



المجلة العربية للدراسات التاريخية

علمية محكمة تصدر عن مركز التاريخ العربي

العدد الرابع
تكريماً
للمغفور له
بإذن الله تعالى
الأستاذ الدكتور
هشام عجيمي

العدد (٤) - السنة الثالثة ٢٠٢٢م

ثورة العشرين في مذكرات زعماء الثورة ورجالها (الأسباب والنتائج - نقد وإعادة بناء)

م. د. حيدر علي خلف جودة العكيلي

آثار الحركة الاصلاحية الإسلامية في الجزائر

د/ايمان بغدادي

التحديات المصيرية التي واجهتها الدولة العثمانية في مراحل تكوينها الحضاري

د. رحماني فاطمة الزهراء

الطريق إلى كامب ديفيد.. مسـار إجبارى

د.محمد عبد النبي

الصرة السلطانية "الرومية" لأهالي بيت المقدس (دفتر رقم ٤١)

د. مروان محمد حمدان الاقرع

سماحة الإسلام مع الآخر الصينيين أنموذجا

أ.د. بشار أكرم جميل الملاح

عدد مجاني - غير مخصص للبيع



شروط وأحكام النشر

١- تنشر المجلّة العربية للدراسات التاريخية الأبحاث الأصيلة ذات المنهجيّة العلميّة الرّصينة والتي تلتزم بالموضوعيّة، وتتوافر فيها الدّقة والجديّة. في التاريخ ، وكافة العلوم الإنسانيّة والعلوم الاجتماعيّة ذات الصلة بالتاريخ.

٢- كلّ بحث لا يحترم شروط النّشر لا يؤخذ بعين الاعتبار.

٣- تخضع كلّ الأبحاث إلى التّحكيم من قبل هيئة مختصّة، ويلقى البحث القبول النّهائي بعد أن يقوم الباحث بالتّعديلات المقترحة.

٤- للمجلّة كلّ الحق في أن تطلب من الباحث أن يحذف أو يعيد صياغة بحثه، أو أي جزء منه بما يتناسب مع طبيعة المجلّة.

٥- لا يجب أن يكون البحث قد سبق نشره أو كان جزءا من كتاب منشور.

٦- يتعهّد الباحث بعدم تقديم البحث للنشر في جهة أخرى، بعد إقرار نشره في المجلّة العربية للدراسات التاريخية، إلاّ بعد الحصول على إذن كتابيّ بذلك من مدير المجلّة.

٧- لا تتجاوز صفحات البحث المقدّم ٢٥ صفحة.

٨- على الباحث احترام شروط الكتابة التّالية:

- تحتوي الصّفحة الأولى من البحث على؛ عنوان البحث، الاسم الكامل للباحث ودرجته العلمية، والجامعة التي ينتمي اليها باللّغة العربيّة واللّغة الانجليزيّة، البريد اللالكتروني للباحث، ملخّص للدّراسة في حدود ١٥٠ كلمة حجم ١٢ بلغة المقال وبلغة أجنبيّة (لإنجليزية)، الكلمات المفتاحيّة بعد الملخّص.

- تقـدّم الأبحـاث مكتوبـة ببرنامـج Word بخـط Traditionnel Arabic حجـم ١٤، تكتـب العناويـن الرئيسـيّة والفرعيّـة للفقـرات بحجـم ١٤ مثلهـا مثـل النصّ الرئيسـيّ لكـن مـع تضخيـم الخـط. أما الأبحاث المكتوبـة باللّغـة اللاتينيّـة فتكتـب بخـط Time new Roman، بحجـم ١٢ وتكـون الحواشـي ٤ سـم علـى جوانـب الصّفحـة الأربعـة، كما تـدرج الرّسـوم البيانيّـة والأشكال التوضيحيّة فـي المقال، وتكتب عناوينها والملاحظـات التوضيحيّـة أسـفلها، أمـا الجـداول ترقـم ترقيمـاً متسلسـلاً وتكتـب عناوينهـا أعلاهـا والملاحظـات التوضيحيّـة أسـفلها.
- يلتـزم الباحـث بتهميـش المعلومـات علـى طريقـة APA American Psychological Association
- بالنّسـبة لعلامـات الترقيـم، توضـع النّقطـة (.) بعـد الكلمـة مباشـرة دون وجـود فـراغ بينهمـا، ويوضـع فـراغ واحـد بيـن النّقطـة وبدايـة الجملـة التّاليـة. كما لا توضـع النّقطـة (.) أبـدا فـي العناويـن، أمّـا إذا كان العنـوان يضـمّ عنوانيـن أحدهمـا فرعـيّ والآخـر رئيسـيّ فيفصـل بينهمـا بنقطتيـن.
- يجب إدراك الفـرق بيـن الفاصلـة بالعربيـة (،) والفاصلـة بالأجنبيـة (,) واسـتغلالهما فـي الكتابـة المناسـبة، كمـا تكتـب الفاصلـة بعـد الكلمـة مباشـرة ولا يوجـد فـراغ بينهمـا.
- تكتـب واو العطـف ملتصقـة بالكلمـة التـي تليهـا ولا يتـرك فـراغ بينهمـا.
- عـدم تزييـن النـصّ بالألـوان والخطـوط العريضـة وتكبير الحجـم، يجـب احتـرام الشـروط المعروضـة سـابقا.
- ضبـط اتّجـاه النـصّ بالعربيّـة مـن اليميـن الـى اليسـار، والنـصّ بالأجنبيّـة مـن اليسـار الـى اليميـن، وضبـط اتجاه الجمل فـي النّصـوص إذا كانـت باللّغـة العربيّـة او بالأجنبيّـة.
- عـدم الإكثـار مـن الفقـرات وجمعهـا فـي نـصّ سـياقي واحـد، واللّجـوء الـى الفقـرات عنـد الضـرورة النصيـة.

٩- الأفـكار والآراء التـي يتضمّنهـا البحـث لا تعبّـر عـن رأي المجلّـة وإنمـا هـي وجهـة نظـر أصحابهـا. كمـا أنّ هيئـة تحريـر المجلّـة غيـر مسـؤولة عـن أيّ سـرقة علميّـة تتـم فـي البحـوث المقدّمـة لهـا.

١٠- يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسـه ونشاطه العلميّ والثقافيّ.

١١- ترسل الأبحاث الى إيميل المجلة

c.a.h.p.e.j@gmail.com

المحتويات

آثار الحركة الاصلاحية الإسلامية في الجزائر

د/ايمان بغدادي

متحصلة على الدكتوراه بالقانون

التخصص : قانون التامينات

كلية الحقوق جامعة قسنطينة

الملخص:

واجهت الجزائر مخاطر عديدة مست كل جوانب الحياة، منذ دخول المستعمر الفرنسي اراضيها، استهدفت هويتها وعقيدتها وتراثها وحضارتها وحريتها، فكانت جهود الحركة الاصلاحية الجزائرية تسلط الضوء على كل ازمات الجزائر، ومن نواحي مختلفة ليس فقط الجانب الديني، والتي ظهر من اجلها الاصلاح، فقد عمل المستعمر جاهدا هو الاخر على تدمير القيم الوطنية والدينية خاصة، تحت هاته الظروف ظهرت الحركة الاصلاحية في الجزائر من خلال نضال النخبة الجزائرية من رواد واعلام، التي بها استطاعت الجزائر ان تنتقل من حالة الضعف في كل المجالات الاجتماعية الى اليقظة والوعي الثقافي والديني والسياسي وحتى الاجتماعي والادبي، لتكون فيما بعد النهضة الاصلاحية الحديثة التي حققت ثورة فكرية وكونت علماء مصلحين متعددين، فقد كانت الاوضاع العامة للجزاءر في اواخر القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠، تساعد على ظهور الفكر الاصلاحي عامة، وعند الحديث عن الحركة الاصلاحية في الجزائر، يقف امامنا الكثير من الرواد العلماء المصلحين، الذين كرسوا حياتهم كلها من أجل الوقوف ضد سياسات الاستعمار المدمر القاضية للهوية والثقافة الإسلامية، فكانت جهودهم تنصب حول اصلاح الاوضاع جراء مافعله الاستعمار، وكرسالة تبعث نهضة وطنية قوامها العلم والاخلاق، هذا ما جسدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

الكلمات المفتاحية: الحركة الاصلاحية؛ الجزائر؛ النخبة؛ مجالات الاصلاح؛ القيم الوطنية؛ الدين؛ الاستعمار الفرنسي؛ القرن ٢٠.

abstract

Algeria has faced many dangers that touched all aspects of life, since the French colonialists entered its lands, targeting its identity, creed, heritage, civilization and freedom. The efforts of the Algerian reform movement shed light on all Algeria's crises, and from different aspects, not only the religious aspect, for which reform emerged. The colonialist also struggled to destroy national and religious values in particular, under these circumstances the reform movement appeared in Algeria through the struggle of the Algerian elite, including pioneers and leaders. With which Algeria was able to move from a state of weakness in all social fields to vigilance and cultural, religious, political, and even social and literary awareness, to be after the modern reform renaissance that achieved an intellectual revolution and formed multiple reformist scholars 20, it helps the emergence of reformist thought in general, and when talking about the reform movement in Algeria, many pioneering reformist scholars stand before us, who have devoted their whole lives to standing against the destructive policies of colonialism that are judging the Islamic identity and culture. And as a message that sends a national renaissance based on science and morals, this is what the Algerian Muslim Scholars Association has embodied.

Key Words :The Reform Movement; Algeria; Elite; Areas of reform; National values; Religion; French colonization; 20th century.

المقدمة

لقد عرف العالم الكثير من الحركات الدينية ذات الطابع الاجتماعي التغييري والتي تسمى بحركات الاصلاح، التي تقوم على الدعوة للعودة الى حظيرة الدين بعد ان تقوم بتنقيته مما اضيف إليه بارجاعه الى اصله الأول وعلى هذا الاساس قامت الحركات الاصلاحية في المجتمعات المختلفة، ومن خلالها عرفت الكثير من المصلحين الذين عملوا على الاصلاح بناء على قول الرسول ﷺ : " ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"، ولارتباط الحركات الاصلاحية الدينية في ظهورها بالازمات الاجتماعية الحادة التي تغير المبادىء والقيم الاجتماعية، فقد عرفت الجزائر شانها شأن باقي دول العالم هذا النوع من الحركات الاصلاحية وهذا لما كانت تتخبطه في الويلات الاستعمارية الفرنسية، فقد كان لظهور الحركات الاصلاحية في الجزائر، الدور الفعال في التاثير على الحياة الاخلاقية والسلوك الاجتماعي لجزء كبير من الشعب الجزائري. فالجذور الأولى لحركة الاصلاح الجزائرية كانت لسنة ١٨٣٠م مع دخول المستعمر الفرنسي ومع ظهور الحركة الصوفية والاصلاح الديني عزز نحو التوجه الى المحافظة على الإسلام والتراث العربي، وبعد زيارة الشيخ الامام محمد عبده للجزاءر عام ١٩٠٣م، كانت بداية النهضة الاصلاحية الحديثة، فلقد جمعت الحركة الاصلاحية الجزائرية شكلا نضاليا تنوع بين الجانب الديني والسياسي، لان الظروف التي كانت تعيشها الجزائر جراء الاستعمار الفرنسي، حتمت على الحركة الاصلاحية الخوض في المساءل السياسية بعدما كانت مجرد حركة دينية ثقافية، واستنادا لذلك يمكن طرح الاشكالية التالية: الى أي مدى ساهمت الحركة الاصلاحية في تحقيق اهدافها بالجزائر؟

اهمية الموضوع:

-وجود تجربة الحركة الوطنية الاصلاحية قبل عام ١٩٠٣م التي اثرت على الفكر بدعوتها الى ضرورة اصلاح الدين الاسلامي بالجزاءر قبل ظهور الجامعة الإسلامية.

-الجزائر أول دولة اسلامية خاضت أول مجابهة حضارية ضد أكبر قوة اوروبية بالعصر الحديث وهي فرنسا هاته الأخيرة التي وضعت سياسة استعمارية متغطرسة ضد الشعب الجزائري للقضاء على الهوية والقيم الوطنية واحتلال البلاد.

-ظهور الصبغة التجديدية لادبيات علماء الاصلاح الجزائريين في اوائل القرن ٢٠ التي

كان لها عظيم الاثر على فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

-اهمية كشف مكانة المرأة في الفكر الاصلاحي الاسلامي الجزائري الحديث وما قدمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للنهوض بالمرأة الجزائرية.

المنهج المتبع:

لدراسة تفصيلات الموضوع انتهجنا المنهج التاريخي من أجل رصد الاحداث والوقائع وترتيبها زمنيا وكان ضروريا معه انتهاج المنهج التحليلي لبعض الاحداث التاريخية كل ذلك من أجل الاجابة على الاشكالية المطروحة.

خطة البحث:

كل ذلك يقودنا الى تناول الموضوع وفق الخطة التالية:

اولا: اندفاع الحركة الاصلاحية الجزائرية

١ -تعريف الحركة الاصلاحية الجزائرية

٢ -دوافع انطلاقة النخبة الجزائرية

ثانيا: مجالات الاصلاح للحركة الاصلاحية الجزائرية

١ -جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

٢ -قضايا المرأة في الحركة الاصلاحية الجزائرية.

اولا: اندفاع الحركة الاصلاحية الجزائرية

انطلاقا من سنة ١٩٢٥ تجاوزت شهرة ابن باديس قسنطينة، بفضل توزيع جريدته وبتوسع شهرته الفكرية والمعنوية ورسوخها عبر الوطن، شهد معه توافد الطلبة على الجامع الاخضر بقسنطينة يتعاظم يوما بعد يوم، فأصبح الجامع الاخضر مرحلة فكرية اساسية في السبيل المؤدي الى جامع الزيتونة، وابن باديس يوجه طلبته نحوه بتونس لاكمال دراستهم العليا، وابتداءا من ١٩٢٦-١٩٢٧ اخذت صفوف الحركة الاصلاحية تتضخم، فضلا عن الجامع الاخضر بقسنطينة، فان المراكز الأخرى الجديدة بالاهتمام كانت مراكز مدينة سطيف بقيادة الشيخ الابراهيمي والشيخ العقبي ببسكرة ومبارك الميلي في الاغواط،

شكلت قواعد صلبة للدعاية الاصلاحية وشهدت سنة ١٩٣٠ تجاوز مجال نفوذ الحركة الاصلاحية الباديسية بالمثلث الاول؛ قسنطينة، سطيف، بسكرة، اذ شمل مجموع الفطر القبائلي وجزء منه بالعاصمة، وانطلاقا من سنة ١٩٣١ اتجهت الحركة الاصلاحية صوب الغرب الجزائري وهو تاريخ الذي سعت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الى نشر الحركة الاصلاحية عبر جميع الاقاليم الجزائرية[١].

(١)علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من ١٩٢٥-١٩٤٠، ج٢، دار الحكمة للنشر، ط.٢، الجزائر، د.سنة، ص: ١٦٢ وما بعدها.

ويقول في ذلك البشير الابراهيمي : "ان لفظ حركة في العرف العصري لا يطلق الا على مبدا تعتنقه جماعة وتنساق لنصرته ونشره والدعاية والعمل له عن عقيدة، وتهيىء له نظاما محددا وخطة مرسومة وعناية مقصودة[١].

١ -تعريف الحركة الاصلاحية الجزائرية

هي حركة تدعو الى العودة الى الإسلام الصحيح وتحرير العقول من التقليد والجمود والى وحدة المسلمين ومواجهة الاستبداد المحلي والاستعمار[٢].

فهي حركة علمية اصلاحية دينية انطلقت بوادرها مع بداية القرن ٢٠، ثم تطورت بقيام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالتدريس في قسنطينة غداة تخرجه من الجامعة الزيتونية بتونس سنة: ١٩١٣ ونضجت هذه اليقظة مع عودة بعض العلماء من مهجرهم بالمشرق العربي الى الجزائر امثال؛ ابن يعلى الزواوي، الطيب العقبي، البشير الابراهيمي....الخ، ثم تبلورت في إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ غداة احتفال فرنسا بالعيد السنوي لاحتلال الجزائر اعتقادا منها انها قضت على الشخصية الجزائرية نهاءيا وعلى الإسلام العروبة فيها[٣].

أ -تعريف النهضة الاصلاحية الجزائرية الحديثة

بعد زيارة الشيخ محمد عبده الجزائر سنة ١٩٠٣، كان لهاته الزيارة الاثر البالغ في تعميق افكار الاصلاح بصورة مباشرة في نفوس المثقفين الجزائريين، الذين اصبحوا يعلمون على استنباط البعد الحقيقي للخذ هذه الفكرة الاصلاحية الحديثة، اذ وجد الأمام محمد عبده عند زيارته، حزبا دينيا له بالجزاءر كونته مجلة المنار ووجد اتباع ومحبيين متأثريين كثر[٤].

ان هاته الزيارة للشيخ محمد عبده كانت كفيلة بتعزيز بدايات النهضة الاصلاحية الحديثة، والوصول بها الى حد الحزب الديني المصلح، حيث اوقد في اوساط المثقفين التقليديين في الجزائر، شعلة الإسلام وجهد روحي في الدعوة الى ثورة فكرية، ومن علماء الجزائر المصلحين المتأثرين نجد: مفتي قسنطينة

(١) محمد البشير الابراهيمي: آثار محمد البشير الابراهيمي، جمع وتقديم احمد طالب الابراهيمي، ج١، دار الغرب الاسلامي للنشر، ط١، بيروت، سنة: ١٩٩٧، ص: ١٨١.

(٢) بشير بلاح: تاريخ الجزائر المعاصر ١٨٣٠-١٩٨٩، دار المعرفة للنشر، د.ط، الجزائر، سنة: ٢٠٠٦، ص: ٣٢٥.

(٣) علي مراد: المرجع السابق، ص ص: ١٦٣-١٦٤ .

(٤)عبد الكريمة بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية ١٩٣١-١٩٤٥، رسالة بالدراسات المعمقة، دار البعث للطباعة والنشر، د.ط، قسنطينة الجزائر، سنة: ١٩٨١، ص: ١٨٩.

الشيخ مولود بن موهوب تلميذ عبد القادر المجاوي ومبارك الميلي وابو يعلى الزواوي وعبد المجيد بن جديد، واستطاع بن موهوب ان يكشف لاجيال المدرسين افكار الاصلاح التي وجدوا انفسهم فيها منخرطين في الحركة الاصلاحية الناشءة بالجزائر[١].

ب -اهم رواد الخطاب الاصلاحي في الجزائر

من اللاواءل المجددين ودعاة الاصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم الاسلامي عامة هو محمد بن محمود بن محمد الشهير بالعنابي ١٧٧٥-١٨٥٠ وهو قاض وباحث من فقهاء الحنفية، حيث نزل بالاسكندرية والف كتابه " السعي المحمود في نظام الجنود"، ومن اثاره؛" ثبت الجزائري" "شرح الدر المختار " "العزيز في علم التجويد."

أيضا الفقيه الاباضي من دعاة الاصلاح في واد ميزاب محمد بن سليمان بن ادريسو، كان كفيف البصر وحاد البصيرة، من اثاره: "نظم كتاب النيل " "شرح اللالفية لابن مالك " "نظم ابواب الطهارة " "نظم متن الاجرومية."

أيضا محمد مرتضى الحسيني الجزائري عالم من رجال الاصلاح الفكري، كان مناضلا مع عمه الامير عبد القادر ثم هاجر الى بلاد الشام وسكن بيروت ونشر العلم والطريقة القادرية ثم خاض في المساءل العقلية والاجتماعية والدينية في سنوات ماقبل الحرب العالمية الاولى، مصلحون اخرون تزعم حركتهم الشيخ عبد القادر المجاوي ١٨٤٨-١٩١٣ وهو مصلح تقليدي سلفي خطيب، من كبار العلماء ولد بتلمسان واكمل دراسته بجامع القيروان بفاس المغرب، وحين عودته الجزائر عين مدربا في جامع الكتاني بقسنطينة[٢].

حتى الشيخ عبد الحليم بن سماية ١٨٦٥-١٩١٥ كان له مواقف معروفة في محاربة البدع في الجزائر، وانه من اواءل تلاميذ الشيخ محمد عبده المصري، الذين نشروا المذهب الاصلاحي خارج مصر، حيث كان يدرس رسالة التوحيد للامام محمد عبده في المدرسة الثعالبية.

أيضا يعتبر قدور الحلوى الشاعر، من دعاة الاصلاح والتجديد، له قصاءد كثيرة في حفل التجديد، بدأ ينشرها سنة ١٩١١، ومنها ما نشر في جريدة المرصاد سنة ١٩٣٢.

اما عمر راسم ١٨٨٣-١٩٥٩ فقد عرف منذ صباه بافكاره الاصلاحية، وكان من اواءل الجزائريين المعتنقين لمذهب الاستاذ الامام محمد عبده

(١) محمد العربي ممريشى، مالك بن نبي: الاتجاه الحضاري، د.ط، د.د.ن، سنة: ٢٠٠٨، ص: ٢٠٥.

(٢) عبد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق، ص: ٧٤.

الاصلاحي، والداعين إليه، انشأ جريدة الجزائر في ١٧ أكتوبر ١٩٠٨ ثم جريدة ذو الفقار في ٢٥ أكتوبر ١٩١٣[١].

٢ -دوافع انطلاقة النخبة الاصلاحية

ان كل من الاحتلال الفرنسي والصوفية الجديدة التي انحرفت عن دين الحق الى دين الباطل، قد عمل على تجهيل الشعب ونشر الامية، اذ كان من اهداف الاستعمار القضاء على الدين والاخلاق الفاضلة وكل المقاومات الحضارية للشعب الجزائري، ووجد في الزوايا ضالته المنشودة يسخرها لتحقيق اغراضه، فكان بذلك العدو الأول في الجزائر بعد الاستعمار، هم الطرق الصوفية الذين استترفوا بإسم الدين، كل الطاقات الفكرية والمادية للشعب الجزائري الواقع بين مخالب الاستعمار، هذا الأمر ادى الى تكوين نخبة جزاءرية تعمل على تحرير الحركة الاصلاحية الجزائرية[٢].

أ -تعريف النخبة الجزائرية

يطلق إسم النخبة على هؤلاء الذين سمحت لهم ظروفهم الاجتماعية بنيل حظ كبير من التعليم والثراء في اطار العلاقات مع الادارة الفرنسية، وهؤلاء الذين تميزوا بالثقافة الفرنسية وامنوا بالنمط الحضاري العربي وفي نفس الوقت كانوا يريدون تحسين اوضاع الجزائريين ولكن في اطار فرنسا الأم.

ان دورهم كان هاما رغم انه لم يكن حاسما فصحافتهم ووفودهم وعراءضهم وهجماتهم على الخرافات من أجل التعليم العربي والتقدم، ادى الى تخلق جماعة النخبة بضمير وطني جديد وطريقة جديدة للمقاومة، ويبدو ان جماعة النخبة اعجبوا بثورة الفتيان الاتراك سنة ١٩٠٨، من أجل شعارها المنادي بالتقدم والتغيير في مجتمع اشبه بمجتمع الجزائر[٣].

وتمثل النخبة الجزائرية اولائك الجزائريين المثقفين الذين برغم من تعليمهم العربي وتوجيههم الاسلامي، اصبحوا مؤثرين بشكل واضح سياسيا ووطنيا[٤].

فهم شريان الشباب المتخرجين من الجامعات الفرنسية والذين كانوا قادرين بأعمالهم ان يصعدوا فوق الجماهير وان يضعوا انفسهم

(١) تركي رابح: الشيخ عبد الحميد ابن باديس والحركة الاصلاحية السلفية في الجزائر، مجلة الثقافة، عدد: ٦٨، د.سنة، ص: ٣٣.

(٢) سليم مزهود: مفهوم الخطاب الاصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، كلية الاداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة الجزائر، سنة: ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص: ٥٠.

(٣) محمد مورو: بعد ٥٠٠ عام من سقوط الاندلس، الجزائر تعود لمحمد (ص)، المختار الاسلامي للطبع والنشر، د.ط، القاهرة، سنة: ١٩٩٢، ص: ٩٢ وما بعدها.

(٤) بشير بلاح: المرجع السابق، ص: ٣٢٦.

في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين[1].

فهي القلة الأكثر مكانة وتاثير في المجتمع وفي مختلف الميادين.

ولم يكن شكل تكوين جماعة النخبة محل اتفاق بين الكتاب، فهناك من يعتبر ان أعضاء هذه الطبقة كانوا يعتبرون انفسهم اقلية منفصلة عن اغلبية ناقصة متكونة من فلاحين جهلة ومرابطين حرفيين وعلماء رجعيين، الا ان بعض الكتاب حاولوا توسيع التشكيل العددي لهذه النخبة لكي تشمل المترجمين والمحامين والاطباء والمعلمين وبعض التجار[2].

ب -عوامل تأثر النخبة الجزائرية

هناك جملة من العوامل ساعدت على ظهور الحركة الاصلاحية من قبل النخبة الجزائرية يمكن تصنيفها الى:

-العوامل الداخلية

•سياسة شارل جونار ١٨٥٧-١٩٢٧ والذي حكم الجزائر في مطلع القرن ثلاث مرات، فرغم سياسته القمعية فإنه تبنى سياسة نوعا ما انفتاحية للشعب الجزائري على حضارتهم العربية الإسلامية، ادى ذلك الى بث النشاط في ميدان الصحافة وبعث حركة النشر، ان سياسة النيل من الجزائريين باللطافة الخبيثة لتحقيق مشاريع فرنسا داخل الجزائر، كانت نافعة بالاخير نوعا ما بتحريك الحركة الاصلاحية، وكانت أول صحيفة عربية وطنية لعمر راسم سنة ١٩٠٨ وجريدة الحق سنة ١٩١١[3].

•حركة التعليم التي كونت جيل مثقف في مطلع القرن ٢٠، بفضل المساجد والزوايا والمدارس العربية الفرنسية، كونت جيل من ذوي الثقافة المزدوجة شارك بحركة الاصلاح.

•القوانين الفرنسية المجحفة بحق الجزائريين؛ مثل قانون الاستقلالية المالية لسنة ١٩٠٠، مرسوم ٢ ديسمبر ١٩٠٧، قانون التجنيد الاجباري ١٩١٢، فعان الشعب الجزائري أكبر معاناة، هذا دفع النخبة للبحث عن مخرج للوضعية المتأزمة، لذلك نشطت الحركة الشبانية التي اطلقت على نفسها اسم: حركة الجزائر الفتاة واحيانا بيان الشباب الجزائري[4].

•الحركة الصحفية خصوصا مابين ١٨٨٢-١٩١٤ نجدها عرفت عدة عناويين المعبرة عن القضايا الوطنية التي كانت فيها جماعة النخبة

(١) الشريف بن حبيلس: ارشاد المعتقلين، مدارس الثقافة، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، عدد: ٠٩، سنة: ١٩٧٨، الجزائر، ص: ١٠٧.

(٢) ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر للنشر، ج٢، د.ط، سنة: ٢٠٠٩، ص: ١٥٩.

(٣) بشير بلاح: المرجع السابق، ص: ٤١٩.

(٤) ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ٤٤٩.

تخاطب قرأها وتشرح لهم دائما مكانة الصحافة ودورها في التوعية ومن اعمدة الصحافة بداية القرن ٢٠ نجد؛ عمر بن قدور الجزائري ١٨٨٦-١٩٣٢ الذي يرجع له الفضل الكبير في تطوير الصحافة العربية في الوطن[١].

-العوامل الخارجية

هناك جملة من العوامل الخارجية التي ساهمت من قريب او من بعيد في عملية انماء الحس المعرفي والثقافي وبعث اليقظة الجزائرية من جديد وتتمثل في[٢]:

- حركة الاصلاح والجامعة الإسلامية في المشرق العربي، اذ ان الجامعة الإسلامية حركة تدعو الى التضامن بين المسلمين لمواجهة الحركة الاستعمارية، بدءا بالاصلاح الديني والاجتماعي، قادها الشيخ جمال الدين الافغاني، وسانده الشيخ محمد عبده الذي حمل لواء الاصلاح بالمشرق العربي، وبرز حينها عبد الرحمن الكواكبي ١٨٤٩-١٩٠٢، رشيد رضا ١٨٧١-١٩٤٦ ومن المغرب العربي نجد المحامي علي باش حمة والشيخ عبد العزيز الثعالبي.

(١) صالح حرفي: عمر بن قدور الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط١، سنة: ١٩٨٤، ص: ١١٩.
(٢) ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ١١٣.

رغم انه النخبة الجزائرية فشلوا في تحقيق جامعة اسلامية جزاءرية، الا ان الوضع قدم لهم تصورات جديدة وشجع الجزائريين الى الهجرة نحو المشرق.

- زيارة محمد عبده الى الجزائر سنة ١٩٠٣ الذي كان له اتباع في الجزائر، من خلال ماكانوا يقراؤونه عنه في جريدة المنار، تركت هذه الزيارة اثر في نفوس النخبة الجزائرية المثقفة، واحدثت حركة كبيرة فيهم، كان الهدف من الزيارة تكوين فروع لجمعية العروة الوثقى التي امتدت من مصر الى المغرب العربي.
- الهجرة الجزائرية بشقيها: حيث وجد المهاجريين حرية التعبيير بالمشرق العربي والعمل والوصول الى المؤتمرات والاجتماعات، فتأثروا بالافكار الاصلاحية المتداولة هناك، ونقل الجرائد والمجلات منها؛ مجلة العروة الوثقى التي لها الدور في تحريك البعث العربي الاسلامي.
- الرحلات والمدارس: حيث كان لها اثر بالغ على النخبة الجزائرية خصوصا المتوجهة نحو المشرق العربي والتمدرس بالزيتونية والجامع الازهر، كان له الدور الكبير في توفير علماء الجزائر منهم عبد الحميد ابن باديس.
- حركة علماء الشام التي ساهمت في توجيه النخبة الجزائرية والاخذ بزمام امرها

امثال: الشيخ الطاهر الجزائري، شكيب ارسلان.

•مدرسة المنار والتي كان لها تأثير كبير على النخبة الجزائرية.

•تأثير الظرف العربي الاسلامي مثل الثورة المهدية في السودان ١٨٨٢-١٨٩٩، اذ هناك الكثير من الاحداث وقعت في الدول العربية الإسلامية وصل مداها الى المثقفين الجزائريين وبالتالي اثرت فيهم وجعلتهم يبادرون الى الاصلاح، الاحتلال الايطالي في ليبيا ١٩١١، الحماية المزدوجة على المغرب الاقصى في ٢ نوفمبر ١٩١٢ من طرف فرنسا واسبانيا، ضف له الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨.

ثانيا: مجالات الاصلاح للحركة الاصلاحية الجزائرية

قادت الحركة الاصلاحية مجموعة من اعلام العلماء الجزائريين تحت مظلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ظهرت في الظروف الاستعمارية الفرنسية وماخلفته من الاثار السلبية على المجتمع من خلال سياساته المختلفة، القصد منها تدمير القيم الوطنية والدينية وطمس الجوانب الروحية للعقيدة الإسلامية، فقد بذلت هاته الجمعية كحركة دينية قاءمة على مجموع الافكار والمبادىء والتوجهات لمكافحة السياسات الغاشمة للمستعمر والمحافظة على الشخصية الجزائرية الإسلامية.

١-جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ظهرت في ٥ ماي ١٩٣١، ماهي الا ثمرة لتلك الجهود التي بدأت منفردة او جماعات النخب الاصلاحية في نهاية القرن ١٩، ان لم نقل منذ ولوج الادارة الاستعمارية أرض الوطن، وبالتالي استطاع الاصلاحيون الى غاية الثلاثينيات من القرن ٢٠، ان يجمعوا شتاتهم في ظلال هذه الجمعية.

عملت الجمعية على الاصلاح في مجالات متعددة بدءا بالمجال الديني وليكون هناك اصلاحات ثقافية وسياسية واجتماعية، نشأ عنها جيل كان له الدور الفعال في المشاركة بالثورة النوفمبرية ١٩٥٤[١].

أ -الاصلاح في المجال الديني

عملت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على محاربة البدع والخرافات التي طمست عقول المسلمين وتصحيح مفاهيم كثيرة عند الجزائريين، دعت الجمعية أيضا الى محاربة الطرقية المنحرفة والقضاء على الخرافات،

---

(١) زليخة بوقرة: سوسيولوجيا الاصلاح الديني في الجزائر، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستيير، كلية علم الاجتماع، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، سنة: ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص: ١٤٤ وما بعدها.

وكل المحدثات التي احدثت في المقابر عامة وعند قبور بعض العباد الصالحين، بالاضافة الى هذا فقد كانت ترى أن كل ما جئت به الطرق من مستحدثات هو بدعة في الإسلام، لذلك فقد رأت ان محاربتهم بأثارهم هو الحل الوحيد الذي يمكن أن تخرج به الأمة من ازماتها وانه لايمكن ان تحقق أي اصلاح في الأمة الا بالقضاء على الخرافات.

وحتى ان الجمعية منذ بدايتها الأولى لنشاطها الاصلاحي، سعت للقضاء على اعداء الإسلام ومن بينهم حركة التبشير المسيحية، التي كانت مرافقة للجيش الفرنسي عند دخوله أول مرة الجزائر سنة ١٨٣٠، فكانت تنظر الى التبشيير انه نتيجة من نتاءج التعصب المسيحي المسلح.

ب -الاصلاح في المجال الثقافي

عملت الجمعية على بعث الثقافة العربية ونشرها اتباعا منها لمنهج الحركات الاصلاحية الإسلامية التي سبقتها، وكانت تؤمن بأن الاصلاح الديني والفكري لايمكن أن يتخذ سبيله الى عقول المواطنين، الا إذا كان مصحوبا بالتعليم، والتعليم القومي على وجه الخصوص الذي يشمل بالاضافة الى مبادىء القراءة والكتابة على دراسة التاريخ العربي الاسلامي، فقد ظل التعليم الاصلاحي الى غاية الحرب العالمية الثانية، صنيع جمعيات ثقافية اصلاحية محلية، وشيدت ٧٠ مدرسة سنة ١٩٣٥ درست حوالي ٣٠ ألف تلميذ وعرفت الجمعية بعض الصعوبات المادية لتلبية متطلبات المراكز، ضف له مضايقات المستعمر الفرنسي وفرض رقابة شديدة على رجال الاصلاح، حيث جاء قرار ٨ مارس ١٩٣٨ الذي ينص على إغلاق المدارس العربية الحرة التي لا تتمتع برخصة، وكانت المساجد مركز الثقافة الدينية لدى المسلمين الجزائريين، فحولت المساجد الى مدارس ومعاهد تعقد فيها حلقات الدروس العالمية من ابتدائية وثانوية وعالية وسمي بالتعليم المسجدي.

ج -الاصلاح في المجال السياسي

رغم تصريح جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأن الجمعية دينية تسعى الى الاصلاح الديني والخلقي للشعب الجزائري، الا ان الامام بن باديس اكد على قدرة الجمعية وبكل فاعلية على البروز بالعمل السياسي، الا ان هناك ظروف خاصة في المجتمع الجزائري اقتضت من الجمعية ان تسلك هذا الطريق، فتبعت الجمعية مخططا ذكيا ظهرت فيه بصفة الموالاة للحكومة الفرنسية عن طريق المرونة السياسية، وقد بقيت الجمعية على

هذا الحال الى غاية المؤتمر الاسلامي ١٩٣٦، لكنها اضطرت الى الخروج بشكل واضح وعلني في بعض المسائل والمواقف مثل محاربتها لقانون التجنيس والادماج ومشروع فيوليت، وابرز موقف هو دعوتها للمؤتمر الاسلامي عام ١٩٣٦م.

د -الاصلاح في المجال الاجتماعي

تعتبر الجمعية من اكثر الحركات المنخرطة في الحياة الاجتماعية راجع لطبيعة عملها، فكانت على دراية بكل قضايا المجتمع، فقد كان "قانون الاهالي "ابان الاستعمار رهيبا حال دون تزويد الاصلاحيين بما ينبغي من المادة العالمية والمعرفية الكاملة، واقتصر دورهم بالسعي الدائم نحو تحقيق الاصلاح بالوعظ والتفسير والتعليم، وبهذا فإنهم لم يتمكنوا من القيام بعمل اصيل في مجال الاصلاح الاجتماعي.

الا ان الدعوة السلفية التي دعت إليها الجمعية لم تمنعها من توجيه نظرها والاخذ بأسباب المدينة الحديثة، ولقد ظهرت هذه المسحة الحضارية بوضوح في اقوالهم واعمالهم وموقفها ازاء الشبيبة الإسلامية الجزائرية، والدعوة الى الترقية الاجتماعية الذي ظهر بوضوح في اسم نادي الترقي المشهور.

٢ -قضايا المرأة في الحركة الاصلاحية الجزائرية

رواد الحركة الاصلاحية الجزائرية امثال عبد الحميد ابن باديس دعوا الى تعليم المرأة حيث كانت نظرة ابن باديس لها من زاوية نظرة الدين الاسلامي اليها، والى دورها في الحياة والمجتمع حيث يأكد ان المرأة الجاهلة بالدين والمحبة له بالفطرة فقط، هي بلاء على المجتمع ويقول ":الجزائرية بدينها ولغتها وقوميتها فعلينا ان نعرفها حقاءق ذلك لتلد لنا أولادا منا ولنا يحفظون امانة الاجيال الماضية للاجيال الأتية"[١].

وكتب ابن باديس ان البيت هو المدرسة الاولى والمصنع الاصلي لتكوين الرجال وتدين الأم هو اساس حفظ الدين والخلق، حيث اسس جمعية التربية والتعليم سنة ١٩٣٠، وحرص في قانونها الاساسي، ان يكون تعليم البنات مجانا، ويطلب من زملاؤه العلماء، الدعوة الى تعليم المرأة، وقد خصص دروس للنسوة في المسجد الاخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة

(١) رابح تركي: الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النهضة العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر، د.ط، سنة: ٢٠٠٣، ص: ١٧٥ وما بعدها.

للنساء، وتقدم ابن باديس بخطوة رائدة بإرسال التلميذات الى جمعية دوحة الادب السورية، وتشكلت بعثة طلابية الى دمشق سنة ١٩٣٩، ولولا اندلاع الحرب العالمية الثانية لا تجسدت الفكرة اصلا، ضف له وفاة العلامة عبد الحميد ابن باديس في ١٦ افريل ١٩٤٠ حال دون تجسيد الفكرة فعليا[١].

أ -تفعيل فكرة تعليم المرأة الجزائرية

حرص محمد البشير الابراهيمي على تفعيل فكرة تعليم المرأة الجزائرية، حيث بلغ عدد المتمدرسات بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٥١ ثلاث عشر ألف بنتا، بعد ان كان قبل سنة ١٩٥١ خمس آلاف وست مائة وتسعون، هذا يعكس الجهود المتواصلة للجمعية برأسة محمد البشير الابراهيمي[٢].

فبداية تعليم الفتاة الجزائرية بدأ فعلا سنة ١٩٣١ أي منذ ٢٢ سنة يوم تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لاحياء العروبة والاسلام بالقطر الجزائري، حيث شكل الابراهيمي بولاية المدية مدرسة خاصة بالبنات وقد سعى الابراهيمي الى محاربة الرذيلة والعمل بما اوتيا له بالحث على تعليم الفتيات رغم الصعوبات الكبيرة التي واجهته حينها، فقد واصل جهود المصلح وعزمه على مواصلة مسيرة ابن باديس والمضي قدما بالجمعية، فظهرت إلى جانب مدرسة المدية، المدرسة الصادقية بحسين داي بمدينة الجزائر، مدرسة الحياة للبنات بجيجل، مدرسة خديجة ام المؤمنين بسكيكدة[٣].

ونجد ابن باديس اهتم بلباس المرأة المسلمة كأحد موضوعات التي انزلق فيها بعض العلماء المسلمين في عصره، فقد استخلص الحقاق الشرعية والتي توخى فيها تبيان الوجهة الإسلامية الصحيحة واستنباط الحل الشرعي الملاءم لاوضاع المرأة المسلمة[٤].

ب - محاولة اشراك المرأة الجزائرية في المجتمع

ساهم الامين العمودي بكتاباته في الصحف الاصلاحية ببسكرة في مختلف القضايا الاجتماعية، وكانت قضية تعليم المرأة الجزائرية

(١) مازن صلاح حامد مطبقاني: عبد الحميد ابن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، عالم الافكار للنشر، د.ط، الجزائر، سنة: ٢٠١١، ص: ٦٢ وما بعدها.
(٢) سعيدة درويش: مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الاسلامي المعاصر، عالم الكتاب الحديث للنشر، د.ط، الجزائر، سنة: ٢٠١٤، ص: ١٥٣.

(٣) محمد البشير الابراهيمي: المرجع السابق، ص: ٢٦٨.
(٤) سعيدة درويش: المرجع السابق، ص: ١٧٣.

من اولوياته والتي يجب ان تخضع لها القضية الى ضوابط الشرع واللاخلاق والحياة العامة، فقد ابدى قدرا من التفكير الاصلاحي المتحرر في هذا الموضوع، مقارنة بباقي الاصلاحيين بفكرته عن امكانية إرسال البنت الجزائرية الى المدارس الفرنسية دون المساء بالعادات، غير انه يؤكد ان تعليم البنات المسلمات هو من مسؤولية المجتمع الإسلامي ذاته، وامر واجب على الاباء وهو الراي نفسه للعلامة بن باديس.

والاسباب التي جعلت الامين العمودي يقصر تعليم المرأة على مستوى البكالوريا، الظروف الاجتماعية والعادات والتقاليد للمجتمع الجزائري، لان مرحلة البكالوريا تتزامن مع سن الزواج وحتى حصولها على هذه الشهادة لن يمكنها من مواصلة تعليمها العالية فلن تكون بالجزاءر جامعات او السفر الى جامعات فرنسا، والبنت المسلمة لا يمكن أن تفرط في زواجها وتنسلخ عن بيئتها، فرغم التكوين الفرنسي للعمودي الا انه خص القول التالي ":أنا لا يروقني ان أرى الفتاة المسلمة من حاملات البكالوريا ومن اعلام الدكاترة بل حسبي ان اجدها تعرف الضرورية من علوم دينهن وتتقن كيفية الانتفاع بحقوقهن، فتعليمهن لابد ان يكون عربيا اسلاميا قبل كل شيء[١].

وكانت دعوة الشيخ الطيب العقبي هي الأخرى تحرص على هذه الفكرة، وقد دعى كذلك الأمة في حاجة ضرورية الى الاصلاح لا من ناحية الدين فقط، بل من عدة نواحي ومنها الأسرة التي تعد الركيزة الاساسية في بناء المجتمع، ولا تتحقق هذه الوظيفة للاسرة إذا ما كان أحد ركنيها الاساسي جاهلا عديم التعليم والثقافة والمعرفة[٢].

اكد ابو يعلى الزواوي على إعطاء للمراة مشاركة بالمجتمعات عامة، وتوسع في الكلام على مسألة الحجاب وفهم الناس عنه انه يحبذ الاتيان بالنساء الى المجتمعات[٣].

حتى محمد السعيد الزاهري ١٨٩٩-١٩٥٦ اورد بكتابه الذي الفه نهاية الاربعينيات بعنوان "الإسلام في حاجة الى دعاية وتبشير"، قصة حول المرأة، مدافعا فيها عن الحجاب وتستر وتعفف المرأة المسلمة، فلها اهمية اجتماعية كبيرة لانها نصف المجتمع، والحجاب لا يمنع اشراكها اجتماعيا[٤].

---

(١) سعيدة درويش: المرجع السابق، ص: ١٤٨.

(٢) كمال عجالي: الفكر الاصلاحي في الجزائر، الطيب العقبي بين الاصالة المعاصرة والتجديد، مطبعة مزوار، د.ط، باتنة الجزائر، سنة: ٢٠٠٥، ص: ٧٣ وما بعدها.

(٣) سعيدة درويش: المرجع السابق، ص: ١٦٦.

(٤) ابو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص: ٣٥٢.

ج -نماذج لرائدات الاصلاح في جمعية العلماء المسلمين

لقد سجلت اسماء كثيرة من النساء اللاتي ساهمنا بجهود كبيرة في ترقية المرأة الجزائرية، سواء في مجال التعليم او الكتابة الصحفية او العمل الجمعوي منهم؛ ليلى بن ذياب الكاتبة في صحيفة البصائر والاديبة زهور لونيسي واخواتها الشقيقات؛ نعناعة، حليمة، زهية، وحتى السيدة شامة بوفجي التي كانت أول معلمة في الجزائر العاصمة كانت تشجع فكرة تعليم المرأة الجزائرية، وهي من نتاج مدرسة الشبيبة الإسلامية، وزليخة كورا إنتاج مدرسة دار الحديث في تلمسان التي كانت كفيفة، زليخة عثمان ابراهيم وهي معلمة بمدرسة دار الحديث والتي كتبت حول تعليم المرأة.

هناك أيضا بعض الجمعيات النسوية التي عملت على ترقية المرأة والنهوض بها، ومن الجمعيات نجد: جمعية نهضة المرأة المسلمة بتلمسان التي كانت ترأسها السيدة فتيحة كاهينة، وقد نشرت بلاغ لمجلة البصاءر قالت فيه ":لانطلب سفورا لعلمنا بانه يؤدي حتما الى ما يحمد عقباه خصوصا في هذا الوقت"، ونشرت رئيسة هذه الجمعية مقالا مطولا في نفس المجلة بعنوان ":نداء في سبيل المرأة المسلمة " شرحت فيه اوضاع المرأة، وانتقدت المتعلمات في المدارس الفرنسية ودعت الى التمسك بالقيم الإسلامية وعدم الاغترار بمظاهر الحضارة الفرنسية التي تعتبر سموما قاتلة[١].

الخاتمة:

مما سبق نلاحظ:

-يرجع اغلب المؤرخين البداية الحقيقية لظهور حركة الاصلاح الديني في الجزائر الى ما قبل الحرب العالمية الأولى وبالضبط سنة ١٩٠٣، حيث نجد انها ظهرت في وقت متأخر جدا مقارنة مع تاريخ الحركات الاصلاحية القديمة بالمشرق العربي، ويرجع التأخر أساسا الى الظروف التي كانت تعيشها الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي الذي منع كل الموجات الثقافية والعلمية والحضارة ان تتسرب إليها.

-الخطاب الاصلاحي في الجزائر حمل لواء الدعوة الاصلاحية من أجل احياء الوعي الديني الإسلامي في الأمة الجزائرية والقضاء على الجهل الذي عم ارجاءها وابطال مفعول البدع والخرافات والشعوذة التي انتشر لهيبها بسرعة فائقة.

(١) يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا المرأة الجزائرية وحركة الاصلاح النسوية العربية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، د.ط، الجزائر، سنة: ٢٠٠٩، ص: ٣٦ وما بعدها.

-النخبة الجزائرية الاصلاحية دافعت عن الخصوصية الشخصية للجزاءر وحفظت البلد من الانصهار بالحضارة العربية فهناك عوامل كانت مؤثرة في الحركة الاصلاحية الجزائرية التي اشاد بها الشيخ عبد الحميد ابن باديس فقد استلهمت منها روح التجديد والثورة على الجمود.

-يعد الدين من اهم الابتعاد التي تقوم على اساسها الحركات الاصلاحية فمهمة الدين هي التغيير المجتمعي.

-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين اتسمت بالواقعية المطلقة لارتباطها بالواقع الجزائري وتواصلها مع افراده وكحركة اصلاحية استقطبت المهام الاجتماعية كلها.

-الخطاب الاصلاحي الجزائري على غير الموجود بالمشرق العربي كان ينهض بالتربية والتعليم لتمكين اللغة العربية والتشبث بالتراث الاسلامي.

-الحركة الاصلاحية لابن باديس تحت شعار الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا شعارا يحمل في طياته ابعاد واهداف دينية ثقافية وطنية وسياسية قاصدا منها صحوة للمجتمع.

-قضية المرأة كانت ضمن العمل الاصلاحي الجزائري في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاشادة بدورها في مستقبل الأمة وتنشئتها للاجيال والحث على ضرورة تعليمها في الوقت الذي كان يمنع فيه خروج البنت للتعلم، ومشكلة الاستعمار الفرنسي أيضا ...فكانت نهضة اصلاحية ضد المستعمر وضد الجهل الذي يعتبر الحجاب الحقيقي بالمجتمع، فكان الحث على تعليم المرأة دون الاهتمام بشكلها وحجابها على حساب مضمونها العقلي.

-الحركة الاصلاحية الجزائرية كونت نخبة ليس فقط بصفوف الرجال من علماء وصحفيين ومحاميين...الخ وانما أيضا كونت رائدات من النسوة ساهمنا بادوارهنا المختلفة في ترقية المرأة الجزائرية.



الحياة الاجتماعية للانجليز في مصر

١٥٨٠-١٨٢٥م

تهاني عبده عبدالحميد أحمد
باحثة دكتوراه بكلية الآداب جامعة حلوان

ملخص الدراسة:

تتناول الدراسة الحديث عن الحياة الاجتماعية للانجليز في مصر في الفترة من ١٥٨٠ وحتى ١٨٢٥، وتتناول الحديث عن إقامتهم، وحصر بأعداد الانجليز فترة الدراسة من خلال سجلات المحاكم الشرعية، إلى جانب المشكلات التي عانى منها الانجليز في مصر مثل القرصنة، والتعايش مع الجاليات الآخرى، ومجىء الرحالة الانجليز لمصر، ورؤيتهم لها، إلى جانب مشاركة الانجليز في وقف الصادر، والدخول في الاسلام، والبعثات التنصيرية الانجليزية، التي جاءت إلى مصر في فترة الدراسة.

الكلمات الدالة: أعداد الانجليز، التعايش، القرصنة، وقف الصادر، الرحالة الانجليز، البعثات التنصيرية، الدخول في الاسلام.

Social life Of English In Egypt

1580-1825

By, Tahaney Abdo Abdel Hameed

PhD researcher in the faculty of arts,Helwan university

Abstract: Study talk about Social life Of English In Egypt(1580-1825),it's talk about their Residence, counting numbers of English during the study period, the problems faced by the English in Egypt, such as the pirate,and their habits,Coexistence with other communities, the arrival of the English travelers,entering into Islam,and English missionarie that come to Egypt during the study period.

إقامة الإنجليز في مصر

خضعت إقامة الإنجليز في مصر لمجموعتين من النظم. المجموعة الأولى: وكانت تشتمل على اللوائح التي أصدرتها شركة الليفانت، وتناولت هذه اللوائح تنظيم شئون المعيشة، وعُهد إلى القناصل تنفيذ تلك اللوائح. أما المجموعة الثانية: فتكونت من منطوق العهود الصادرة من السلطان، متخذة شكل معاهدات الامتياز التي منحتها الدولة العثمانية لرعايا دولة انجلترا[1]. وحددت الامتيازات أوضاع الأجانب الاجتماعية في البلاد؛ كالتعهد بحرية المجىء والإقامة والانتقال، ومنح المسكن الملائم، وحرية الاعتقاد وممارسة الشعائر والطقوس الدينية، وحمايتهم من الاضطهاد والعسف في جباية الضرائب والرسوم[2].

كان على الإنجليز الذين يصلون مصر أن يذهبوا إلى القنصل لمساعدتهم في الحصول على التصاريح التي تمكنهم من التنقل والطواف بحرية في أرجاء البلاد[3]. وكانت الجالية الإنجليزية في مصر تتكون من فئة التجار بشكل رئيسي وهيئة الموظفين الإداريين للجالية[4]. كالقناصل الذين كانوا يتعهدون بحماية رعاياهم والفصل في قضاياهم[5]. وكان الإنجليز في ظل نظام الامتيازات مستقلين تقريباً عن السلطة المحلية في مصر ويحكمها القنصل حكماً تام[6].

---

[1] محمد شفيق غربال: محمد على الكبير، دار أجياد ، ١٩٤٤م ، ص ٧٥.

[2] خالد محمد نعيم : الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية فى مصر(١٧٥٦-١٩٨٦) ، "دراسة وثائقية" ، كتاب المختار، القاهرة ،ص.٣٠، ١٩٨٨م.

وقد تضمنت معاهدات الامتياز مع انجلترا مواد تنص على حُسن معاملتهم، وتمتعهم بالأمان، وحرية التجول في الولايات العثمانية. وفي معاهدة ١٥٨٠م نصت المواد (١-٧) على " تمتع الإنجليز بالأمان فى الولايات العثمانية" ، كما نصت المادة ٥٣ من معاهدة ١٦١٩م على "حرية الإنجليز في أن يأتوا إلى الولايات العثمانية دون أن يمانعوا، والمادة ٥ من معاهدة ١٨٠٩م على "حسن معاملة التجار الإنجليز في الولايات
=

=
العثمانية. كما أعفي الإنجليز من كل أنواع الضرائب (مادة١٣) ، معاهدة ١٥٨٠م ، والمادة ٣٢ على عدم أخذ ضريبة على اللحوم التي يأكلها الإنجليز. يوسف آصاف : المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية ، ص٦٢، ٦٣، ٦٥- ٦٦، ٨٨.

[3] السيد أحمد توفيق: السياحة في مصر خلال القرن ١٩ (١٧٩٨-١٨٨٢م)، دراسة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٢٣.

[4] ليلي الصباغ :الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج ٢ ، ص٦٤٧.

[5]سلوى العطار : التغييرات الاجتماعية فى عهد محمد على ، دار النهضة العربية ، ط١،١٩٨٩، ص٣٥٥.

[6] صالح رمضان: الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل من ١٨٦٣-١٨٧٩م ، منشأة المعارف، الاسكندرية ، ١٩٧٧م ، ص ٢٩٠

وقد تمتع الإنجليز في مصر بالاحترام[1]. يؤكد ذلك ما ذكره الرحالة "بريس دافين" في مذكراته أنه "لا يجد الأجنبي في أي مكان أخر حرية أكثر مما يجد في مصر، فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من إقليم إلى آخر دون أن تهتم أي سلطة بحضورهم، أو تتحرى وظائفهم "[2]. إلا حينما ساءت الأمور في مصر في القرن الثامن عشر وكانت الصراعات العسكرية بينهم على أشدها، وأمر البلاد بيد الأمراء المماليك الذين ازداد نفوذهم على نفوذ الباشوات العثمانيين حتى أصبح عزل الباشوات يتم في معظم الأحوال بيد هؤلاء الأمراء. لقد كانت الحروب لا تنقطع بينهم، وكانت لها أبلغ التأثير في سوء الأحوال الاقتصادية واختلال النظام والأمن[3]. انعكس ذلك بطبيعة الحال على الإنجليز المقيمين في مصر. فبالرغم من الامتيازات التي حصلوا عليها، كانوا يعاملون معاملة سيئة من قبل الحكومة ويلاقون كثيراً من الاضطهاد ويتعرضون للاستبداد[4]. ومن ذلك حادثة إبراهيم بك حاكم القاهرة الذي طرد القنصل الإنجليزي من منزله عام ١٧٤٩م وأخذ منه مبلغ من المال بالقوة[5]. وفي ذلك مخالفة لمعاهدات الامتياز التي نصت على حسن معاملة القناصل الإنجليز[6]. فمن الناحية الفعلية

---

[1] إلهام ذهنى: رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر - بين النزعة الإنسانية والاستعمارية ، دار الشروق، ص ١٦٧.

[2] بريس دافين: إدريس أفندى في مصر "مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسي بريس دافين في مصر" (١٨٠٧-١٨٧٩م)، ترجمة : أنور لوقا، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، عدد ٣٢٣، ١٩٩١، ص٣٤.

[3] وبالرغم من سوء الأحوال في القرن الثامن عشر فإن بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في تلك الفترة أشادوا بالتسامح الديني للسلطات الحاكمة إزاء أهل الذمة، وكتب الأب اليسوعي والرحالة الفرنسي ديرونا الذي زار مصر (١٧١٠-١٧١١) "إن مصر هي البلد الوحيد في الدولة العثمانية الذي تقام فيه شعائر =

= الدين المسيحي بحرية أكثر من أي بلد آخر ". موسى موسى نصر: صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨م، ص ٤٤-٤٥-٤٧.

[4] محمد فهمي لهيطه: تاريخ مصر الاقتصادي في العصور الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م ، ص٤٥. ونتيجة لهذه الاضطرابات أنشئ في عام ١٧٢٠م سوراً لعزل الحى الإفرنجي. وفي عام ١٧٥٧م تم إنشاء بوابة له. أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ص٢٥.

[5] Wood, Alfred C. A history of the Levant combany, oxford, 1935, p. 165.

[6] نصت المادة ٢ من معاهدة ١٥٨٠م بين الدولة العثمانية وانجلترا على أنه "إذا أتى إنجليزى الولايات العثمانية فأهين أو قبض عليه فيجب إطلاق سراحه بدون تأخير وبدون أقل ممانعة". كما نصت المادة ٢٥ من معاهدة ١٦٠٦م على أن "كل القناصل الذين تعينهم في ممالكنا المحروسة السفارة الإنجليزية =

فإن هذه المعاهدات لم يكن معمولاً بها غالباً في مصر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر[1].

وفي البداية كان الإنجليز يسكنون في فندق خاص بهم في الاسكندرية[2]. ومما يدل على ذلك طلب قنصل انجلترا عام ١٦٤٤م السكن في فندق "المسينيين" بخط باب البحر بالاسكندرية، كما سكنوا به من قديم الزمان، حيث أبرز وكيل القنصل حجة تعود لعام ١٦٣٨م وتثبت سكنهم فيه[3]. كما عثرنا على وثيقة تؤكد أن الإنجليز كانوا يسكنون في "فندق الركوزه" منذ أواخر القرن السادس عشر ، وبالتحديد في عام ١٥٨٨م حينما كانوا تحت حماية الإنجليز[4].كما أقام الإنجليز في الحي الإفرنجي في رشيد[5].

ولقد نظم الأوروبيين سكناهم في داخل الفندق، فاستخدموا الطابق السفلي مخزناً للبضائع وغرفاً للمكاتب، وأحياناً إسطبلات. أما الطابق العلوي فقد اتخذوا حجراته مكاناً للمبيت[6].

=

لحماية التجار لا يسوغ سجنهم بأية حجة كانت ولا طردهم ولا تختيم بيوتهم وكل دعوى تقام ضدهم ترفع إلى بابنا العالي حيث يدافع عنهم السفراء". ونصت المادة ٧ من معاهدة ١٨٠٩م على أن "سفراء جلالة ملك =انجلترا يتمتعون بالإكرامات التي يكرم بها سفراء الدول الأخرى لدى الباب العالي". يوسف آصاف: مرجع سابق ، ص ٦٨-٨٩.

[1] جون مارلو: مرجع سابق، ص ٣٥.

[2] محكمة الاسكندرية: س٥١، م١٥٥٨، ص٦٥٦، ١٨ صفر ١٠٧٨هـ/يوليه ١٦٦٧م. وكانت الفنادق التي يعيش فيها الأجانب في مصر في العصر المملوكي هبة من الحكومة للتجار الأجانب وذلك تسهيلاً لإقامتهم في البلاد وقيامهم بالتجارة فيها، وكانت هذه الفنادق تتبع إدارة الجمارك، وكانت تدفع إيجار هذه الفنادق، وتتحمل نفقات الإصلاح والترميم،وكان قنصل الدولة هو المسئول عن الفندق وعن تسديد رسوم التجار للسلطان ،يرصد جزء منها للاصلاحات والصيانة للمبنى.انظر نعيم زكى فهمي: مرجع سابق، ص٢٨٨.

[3] محكمة الاسكندرية: س٤٧، م٥٧٨، ص٢٢٨، ١٤ ذي الحجة ١٠٥٣هـ/فبراير ١٦٤٤م.

[4] نفسه: س٢٥، م ١٢٦٤، ص٤١٤، ٢٠ ذي الحجة ٩٩٦هـ/ أكتوبر ١٥٨٨م.

[5] نيفين مصطفي حسن: رشيد فى العصر العثمانى ، مراجعة: محمد محمود السروجى ، دار الثقافة العلمية ، ١٩٩٢م، ص ٣٠٧. ولا ندري متى أصبح للإفرنج حياً خاصاً بهم، وغالباً كان ذلك في الربع الأخير من القرن السادس عشر. والحي الإفرنجي من مستحدثات العصر العثماني. ففي العهد المملوكي كانت إقامة الأغلبية العظمى من الإفرنج بالاسكندرية، ولا تسمح السلطات الحاكمة لهم بدخول مدينة القاهرة إلا بعد الحصول على إذن خاص يذكر فيه هويتهم وسبب حضورهم. زينب محمد حسين الغنام :الجاليات الأجنبية ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر إبان العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨)،رسالة دكتوراه، غير منشورة،جامعة الأزهر،١٩٨٨،ص ١٨٨-١٨٩.

[6] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص ٦٥٦.

ومع ذلك استأجر بعض الإنجليز بيوتاً خاصة بهم في القرن السابع عشر. وقد وصف القنصل الفرنسي "دو ماييه" منازل الإنجليز بأنها تتسم بوسعها ولها حوش كبير وبستان[1]. ولم يهتم الإنجليز في القرن السابع عشر بتجميل بيوتهم، إذ اعتادوا أن يمضوا أشهراً عديدة من السنة بعيدين عنها في رحلات في أنحاء البلاد[2].

ولقد كان الأجانب ممنوعين من تملك العقارات في مصر بمقتضى القوانين الأساسية للدولة العثمانية[3]. وكان يسمح لهم فقط بالإيجار لمدة معينة. ومن ذلك تأجير قنصل الإنجليز "فلبويك" مكاناً بحارة اليهود من سلمون اليهودي بمبلغ ٢٤،٢١٢ نصف فضة[4].

[1] زينب الغنام : مرجع سابق ، ص ١٨٩.

[2] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٦٦٦.

[3] محمد عبد الباري: الامتيازات الأجنبية، سلسلة المعارف العامة، مطبعة الاعتماد، ١٩٣٠م، ص٣٠. لم ينص على حق تملك الأجانب رسمياً في الدولة العثمانية إلا في المرسوم العثماني الصادر في ٧ صفر سنة ١٢٨٤هـ/١٦ يناير ١٨٦٧م الذي سمح للأجانب بحق امتلاك الأرض في أنحاء الدولة العثمانية ماعدا منطقة الحجاز. ليلى الصباغ: مرجع سابق، ج٢، ص ٦٦٥.

[4] محكمة باب الشعرية: س٦٣٥، م ٩٣٨، ص٤٢٢-٤٢٣، ٨ رجب ١١٤١هـ/ يناير ١٧٢٩م.

=

ومنها بيع أحد الإنجليز بمصر حق منفعة مكان لطبيب بندقي[5]. كذلك امتلك بعض الإنجليز حق منفعة عدد من الحواصل والحوانيت[6].

وكان الإنجليز يستأجرون المنازل لمدد معينة لا تتجاوز الثلاث سنوات في العادة. ومن ذلك "استئجار "بنيامين بن يعقوب النصرانى الإنجليزي قنصل طايفة الإنجليز" من "الزينى

=

ولقد كان القنصل في بادىء الأمر يقيم وتجاره في نفس الخان، ولكنه انصرف إلى منزل خاص به، ولعل الهيبة السياسية التي أراد القنصل إضفاءها على نفسه، أمام السلطات الحاكمة، هي التي دعته إلى فصل مقر سكنه وعمله عن سكنى مواطنيه من التجار. ليلى الصباغ: مرجع سابق ، ص٦٥٨.

[5] تمثل ذلك في "شراء المعلم حنا ولد جوان البندقي الحكيم بحارة البنادقة من الخواجا وارنن الإنجليزي القاطن بمصر المحروسة بحارة البنادقة، جميع منفعة الخلو والسكنى والانتفاع مدة التواجر والأجرة بكامل المكان المعروف بالارقة الكائن بمصر المحروسة خارج قنطرة الموسكي بحارة الفرنج البنادقة المشتمل ذلك على.. والجاري في وقف المرحومة خوند ووقات معتوقة السيفي جانم وزوجته المعروفة بمعتوقة الخلفا، وأجرته المسجلة في ملك وتصرف الخواجا وارنن وله ولاية بيع ذلك وقبض ثمنه، وبالتصادق على ذلك اشترا صحيحاً وبيعاً بتا بثمن ٦٠٠ دينار ذهب فندقلي". محكمة باب الشعرية: س٦٣٩، م٨٤٠، ص٣١٣، ١٢ جمادى الأول ١١٥٧هـ/يونيه ١٧٤٤، كود أرشيفي:1014-000218.

[6] محكمة الصالح: س٣٤٩، م ٢١٠، ص١٥٦، ١٠ جماد ثاني ١١٥١هـ/سبتمبر ١٧٣٨م.

بلال بن علي" جميع "الوكالة" الكائنة داخل سوق الثغر بخط المغربلين المشتملة على حواصل سفلية وطباق علوية وآبار وصهاريج، الانتفاع الشرعي لمدة ثلاث سنوات" وذلك بمبلغ ثلاثة ألف نصف عن أجرة كل سنة ألف نصف واحد[1]. على أن مدة الانتفاع كانت تصل في بعض الأحيان إلى عشر سنوات[2]. ومن ذلك استئجار القنصل "ادوارد وايد قنصل طايفة الإنجليز والفلمنك" لنفسه من الخواجا "إسكندر بن سانتو قنصل طايفة الإنجليز والفلمنك" جميع المكان الكائن بخط حارة الفرنج البنادقة بالقرب من قنطرة الموسكي المشتملة على ٢٢ مسكنا وقاعة علوية و٣ حواصل أرضية وكلار وجنينة وصهريج وبئر ماء.. لينتفع بذلك الانتفاع الشرعي لمدة عشر سنوات، بأجرة قدرها ألف قرش "وعلى المستأجر القيام بأجرة الأرض الحاملة للبنا المرقوم لمستحقها شرعاً وقدرها في كل سنة ٥٣ قرشاً من القروش التي بكلب"[3].

وكانت أجرة حق الانتفاع تسدد كلها مقدماً[4]، أو بصفة سنوية[5]. ولم يسمح للإنجليز بإحداث تعديلات أو عمليات توسيع بدون الحصول على إذن من المؤجر[6]. فعندما استأجر قنصل انجلترا وأخويه بيتين، اشترط عليه المؤجر أن لا

---

[1] محكمة الاسكندرية: س٢١، م ٥٨٢ ، ص٢٠١ ، ٨ رجب ١٠٠٩هـ/يناير ١٦٠١م. كود أرشيفي: 1029-001155.

[2] من الأمثلة على ذلك استئجار "سمويل بركس" قنصل طايفة الإنجليز وأخويه من الشيخ إبراهيم بن عبد الله التاجورى "جميع البيتين الكائنين بوكالة الشيخ إبراهيم الكائنة بجزيزة الثغر على شاطيء البحر الملح بالمينا الشرقية بخط حارة الإفرنج أعلى الوكالة المذكورة الملاصقين لبعضهما بعضا بالدور الأوسط من الوكالة، لمدة عشر سنوات بأجرة قدرها خمسة آلاف قرش رومى. وليس للمستأجرين إحداث شىء في البيتين، إلا بأذن من المؤجر". محكمة الاسكندرية: س١٠٩، م٤٢٣، ص١٩٨، غاية شعبان ١٢١٩هـ/ نوفمبر ١٨٠٤. كود أرشيفي :1029-001663.

[3] محكمة باب سعادة وخرق : كود أرشيفي: -1011 000106، م ١٥٥، ص١٠٢، ١٢ جماد أول ١٠٥٧هـ / يونيه ١٦٤٧م.

[4] محكمة الاسكندرية: س ٢١ ، م ٥٨٢ ، ص ٢٠١، ٨ رجب ١٠٠٩هـ/ يناير ١٦٠١م. س ١٠٩، م٤٢٣، ص١٩٨، غاية شعبان ١٢١٩هـ/نوفمبر ١٨٠٤.

[5] أجر "الورتبيت مرقص ولد عطا الله النصراني الأرميني" المتحدث والمتكلم على أوقاف فقرا مارى يعقوب بالدير الكائن بالثغر الشريف للخواجا "ليل ولد داوود الإفرنجى الإنجليز" جميع المكان الكائن بمصر المحروسة أسفل قنطرة الموسكي بحارة الإفرنج البنادقة، الانتفاع الشرعي لمدة ثلاث سنوات بأجره قدرها ٢٠ دينارا في كل سنة. محكمة باب الشعرية: ف ٢٨٩، س٦٣٦، م٣٣، ص ١٧، محرم ١١٤٢هـ/يوليه ١٧٢٩م.

[6] محكمة باب الشعرية: س٦٣٥، م ٩٣٨، ص٤٢٢،٤ ٢٣، ٨ رجب ١١٤١هـ/يناير ١٧٢٩م، كود أرشيفي :-1014 000214.

يُحدث أى اصلاحات دون إذنه[1]. على أن ذلك لم يكن دون استثناءات. فعندما استأجر الخواجا "ليل ولد داوود الإنجليز" مكاناً "بمصر المحروسة بحارة الإفرنج البنادقة" من "الورتبيت مرقص الناظر على أوقاف فقرا مارى يعقوب".. أذن له بالعمارة والترميم والبياض والتجديد[2].

وفي العادة عاش الإنجليز خارج الحي الإفرنجي[3] ومن ذلك مثل سكن الإنجليز في البيت الكائن بسوق الحمارين بجوار وكالة الزيت الكبرى المعروفة بالسنانية[4].

وكان يتم السماح للإنجليز -كغيرهم من الأجانب- بإحداث تعديلات أو عمليات توسيع فى الخانات التى يسكنون بها، بشرط الحصول على إذن بذلك[5]. ومن الأمثلة على ذلك الأمر الوارد من الديوان العالي بمصر المحروسة "بالكشف عما صرفه باولو المريانى قنصل الإنجليز، حينما كان قنصلاً على الفرنسيين، على عمارة وترميم لخان الجنويز وخان الفرانسه ولخان الدبروتك بالاسكندرية، وعرض ذلك مفصلاً إلى الديوان الشريف، فلم يجد أحد أن باولو المريانى صرف شيئاً، لا عمارة ولا ترميم لخان الدبروتك". وقد كشف "مصطفي أفندي الناظر في الأحكام الشرعية " على خان الفرانسة والجنويز بحضور العلائى على

---

[1] محكمة الاسكندرية: س١٠٩، م٤٢٣، ص١٩٨، غاية شعبان ١٢١٩هـ/نوفمبر ١٨٠٤.كود أرشيفي :-1029 .001663

[2] محكمة الاسكندرية: ف ٢٨٩، س ٦٣٦ ، م ٣٣ ، ص ١٧، محرم ١١٤٢هـ / يوليه ١٧٢٩م.

[3] محكمة الاسكندرية: س١١٥ ، م ٦٨ ، ص ٤٩ ، غاية ربيع الأخر ١٢٢٢هـ / مايو ١٨٠٧م. ولقد سكن جماعة من الإنجليز في ثلاث حجرات بداخل الوكالة الكائنة بجزيرة الثغر بسوق الحلاقين المعروفة بوكالة أودا باشا الجارية في وقف المرحوم مصطفي باشا.

[4] محكمة الاسكندرية: س ١١٥، م ١٦٧ ، ص ١٣٣، ١٥ جماد أول ١٢٢٢هـ / يوليه ١٨٠٧م.

[5] بموجب البيورلدي الوارد من مصر المحروسة على يد الأمير حسن أغا بالخدمة العالية المؤرخ بثالث شهر صفر الخير سنة ١٠٧٨هـ، يتضمن أنه اتصل بالمسامع الكريمة أن طايفة الفرنج النصارى (البنادقة- الفرنسيين- الإنجليز) عمّروا كنايس داخل الخانات الساكنين بها، وأن يكشف ويحرر حقيقة الحال في ذلك، وبالكشف على فندق طايفة النصارى الفلمنك وطايفة النصارى الإنجليز، لم يوجد به عدى الكنيس القديم ولم يجد به عماره مستجدة، وكذلك فندق النصارى الفرنسيين والبنادقة. محكمة الاسكندرية: س٥١، م١٥٥٨، ص ٦٥٦، ١٨ صفر ١٠٧٨هـ/يوليه ١٦٦٧م. كما ورد بيورلدى أخر مؤرخ بسادس عشر شهر صفر سنة ١٠٧٨هـ بالكشف على الثلاث خانات القاطن بها النصارى الفرنج وتجارهم حيث أتصل بالمسامع الكريمة أن طايفة الفرنج النصارى جددوا مخلفات الخانات الساكنين بها.س٥١ ، م ١٥٦٠، ص ٦٥٦، ٢٠صفر ١٠٧٨هـ / يوليه ١٦٦٧م.

بن إلياس كتخدا أمير اللوا ورضوان بن حسن دزدار قلعة الركن بالاسكندرية، ورجب جاويش بديوان مصر، وجمع كبير من العسكر المنصور، والأكابر والأعيان، وبحضور أهل الخبرة من المعلمين والمهندسين والبنايين والحدادين والنجارين وغيرهم"[1].

كان الإنجليز يستخدمون في تنقلاتهم الحمير، وكان عليهم أن ينزلوا من فوقها إذا أقبل عليهم بيك أو أحد من وجهاء القاهرة[2]. وعلى كل فقد كان الحمار وسيلة انتقال مريحة[3]. كما كانت الجمال والحمير تستخدم في حمل البضائع والأمتعة[4].

وكان معظم الإنجليز في مصر غير متزوجين، فهم يذهبون إلى الدولة العثمانية شباباً صغاراً لا تمكنهم أحوالهم من إعالة أسرة، وكانت سلطات الوطن لا تشجعهم على الزواج، لأن الزوجة والولد كانوا عبئاً في تلك البقاع على الرغم من عدم وجود موانع قانونية تحرم الإنجليز إحضار زوجاتهم[5]، بل إن الامتيازات الإنجليزية سنة ١٥٨٠م كانت تفترض إمكان جلبهم لهن. كما أن المادة ١٣ نصت على إعفاء الإنجليز وكل الرعايا التابعين لانجلترا من كل أنواع الضرائب، سواء كان متزوجاً أو غير متزوج[6]. ولكن إذا كانت الدولة العثمانية لم تضع عراقيل ما، فإن الدول الأوروبية نفسها لم تكن تشجع ذلك[7]. وعندما أصدر الصدر الأعظم "قره مصطفي" مرسوماً في عام ١٦٧٧م أعلن فيه "أن جميع الفرنجة الذين يتزوجون من رعايا السلطان يغدون رعايا أتراكاً ويحرمون من فوائد امتيازاتهم، أصدرت شركة الليفانت أوامر مشددة ضد الزواج من هذا النوع، ودعت أفراد الجالية لكي يقسموا يميناً أمام قنصلهم بأنهم لم يتزوجوا من أية امرأة من رعايا السلطان، وصدرت الأوامر للسفراء بمنع مثل هذه الزيجات وطرد من يتحدى الأوامر[8]. وقد منحت شركة الليفانت قناصلها حق إعادة الشخص الذي تثبت علية حياة اللهو

---

[1] محكمة الاسكندرية: س٣١، م ٤٩٩، ص٢٣٢، ١١ ذي القعدة ٩٩٢هـ/نوفمبر ١٥٨٤م.كود أرشيفي : 1029- 001165.

[2] كارستن نيبور: مرجع سابق ، ص ٢٥٤.

[3] الهام ذهنى: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر ، ص ٢٢٠.

[4] آن وولف: كم تبعد القاهرة ، ترجمة :قاسم عبده قاسم ،المجلس الأعلى للثقافة ،٢٠٠٦م، ص ١٢١.

[5] Wood, Alfred c; op. cit, p. 244.

[6] Lewis Hertslet ,Acomplete Collection Of the Treaties And Conventions Between Great Britain And Foreign Powers,London,1820,Vol 2, p. 349.

[7] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص٦٧١.

[8] Wood, Alfred c; op.cit, p. 244.

والفجور إلى انجلترا[1]. كما أننا لم نعثر في سجلات المحاكم الشرعية على حالات لزواج إنجليز.

كان من يموت من الإنجليز في الولايات العثمانية يدفن في مقابر مسيحيي البلاد، وكانوا يُحملون إلى قبورهم بين طلقات مدافع المراكب الراسية في الموانىء، لأن الأتراك كانوا يمنعون استخدام الأجراس وقرعها الكنسي[2]. وقد نصت المعاهدات التي حصلت عليها انجلترا على الحفاظ على تركة الإنجليزي المتوفي، ونصت المادتين ٢٦-٤٦ من معاهدة ١٦٠٦م على أنه "إذا توفي أحد من الإنجليز، لا يجوز لجباة الأموال وغيرهم من المأمورين بحجة أنهم جاهلون مالك المال، أن يستعملوا العنف أو أن يظهروا مقاومة ما بأخذهم أو بحجزها، بل إن متروكات المتوفي تسلم إلى أي إنجليزي أوصى المتوفي له بها، وإلا فتسلم متروكاته للقنصل أو لوكيله إن وجد أحدهما في مكان الوفاة. وإذا لم يكن هناك قنصل ولا نائب عنه، فيضع القاضي الحجز على التركة حتى يسلمها هو ذاته للسفينة التي يرسلها السفير لاستلامها[3].

[1] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص٦٧٨.

[2] المرجع السابق ، ص ٦٦٨.

[3] يوسف آصاف : المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية ، ص٦٨-٧٤.

وإذا كان معظم من جاء من الإنجليز إلى مصر من أجل التجارة[4]. فقد جاء بعضاً منهم بهدف زيارة الأماكن المقدسة ثم المتابعة إلى سيناء لإكمال حجهم إلى القدس[5]. وهؤلاء كانت مدة إقامتهم محدودة للغاية[6]. ومن هؤلاء "جورج ساندس" الإنجليزي الذي سافر من القاهرة إلى فلسطين في عام ١٦١١م. وتورد المصادر ذهاب اثنان من الحجاج الإنجليز إلى دير سانت كاترين[7].

ومن الإنجليز من غامر بالذهاب إلى الأماكن الإسلامية المقدسة - أثناء وجوده بالقاهرة، أو في طريق عودته من الهند[8]- لأسباب قد لا تخلو من أعمال التجسس. ففي عام ١٥٨٦م

[4] محمد صبرى الدالى: قبل الاحتلال والحداثة الأوربيون في الإسكندرية بين التعايش المشترك والخلافات، دراسة ضمن كتاب سلطان بن محمد القاسمى أمير من هذا الزمان الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ٢٠١٠، ص٢٢٧.

[5] إسلام عاصم عبد الكريم بيومى: مصر فى عيون الرحالة فى العصر الحديث (١٥١٧-١٩٥٢م) ، رسالة ماجستير ، كلية السياحة والفنادق ، جامعة الاسكندرية ،٢٠٠٩م، ص٧.

[6] ليلى الصباغ : مرجع سابق ،ص ٧٦٧.

[7] آن وولف: مرجع سابق ،ص ٢٧٢-٢٨٠.

[8] رشاد رشدى: سحر مصر في كتابات الرحالة الإنجليز في القرن التاسع عشر، مراجعة: فاطمة موسى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد ٣٤٦ ، ط ١ ، ٢٠٠٢ ، ص٢١.

التحق رجل إنجليزي مجهول الاسم بقافلة الحج المتوجهة من القاهرة إلى مكة، وعلى كل فقد كانت تلك الرحلة مغامرة، لأنه إذا اكتشف وجود أي مسيحي في الأماكن المقدسة الإسلامية كان يتعرض للإعدام[١].

ولقد نظمت معاهدات الامتياز نظم محاكمة الإنجليز، حيث كان القنصل أو السفير يفصل في المنازعات التي تقوم بين أبناء جلدته حسب قوانينهم ودون تدخل من السلطات المحلية (بند ١٥ من معاهدة ١٥٨٠م). وفي حالة حدوث خلاف أو مشاجرة بين الإنجليز أو من رعايا دولة الإنجليز وغيرهم، لا يجوز للقضاة سماع الدعوى دون حضور أحد التراجمة أو مندوب من قبل السفارة (بند ١٦ من معاهدة ١٥٨٠م)[٢]. وكل دعوى تزيد على ٤٠٠٠ أسبر، كانت تسمع في الباب العالى فقط (بند ٢٤-٦٩)[٣]. ولا يحاكم الإنجليزي أو ترفع عليه دعوى ما لم يكن بيد المدعي حجة مصدق عليها من القاضى[٤]. كما نصت على حق الإنجليز في اللجوء إلى حماية سفيرهم عند إقامة دعوى ضدهم. ولقد نصت المادة العاشرة على أنه "إذا اتهم أحد من الإنجليز أنه أضّر بأحد الأشخاص وقدم شهود زور لإثبات تهمته، لا يسمع القضاة لهذه الدعوى، بل تُحال إلى السفارة الإنجليزية لتقوم بفصلها"[٥]. كما تم النص على أنه لا يؤخذ إنجليزي بجريرة آخر إذا لم يكن كافلاً له[٦]. وإذا ارتكب إنجليزي جريمة القتل الخطأ، لا يجوز محاكمته دون حضور القنصل أو السفير، بل عليهم استماع الدعوى والحكم بها باتفاق مع القنصل أو السفير(مادة ٤٢)[٧]. فإذا أُريد القبض على أحد من الإنجليز وكان على أهبة السفر، كان للقنصل الحق في أن يقيم نفسه كفيلاً

---

[١] آن وولف: مرجع سابق، ص ٣١٥.

[٢] Lewis Hertslet, op. cit. p. 350.

[٣] Ibid. p.352-366 وورد عند "آصاف" أن كل دعوى تزيد على ٤٠٠ أسبر. يوسف آصاف: مرجع سابق، ص٦٧.

[٤] يوسف آصاف: مرجع سابق، ص٦٤. ولقد نصت المادة ٩ من معاهدة ١٥٨٠م على أنه "في كل عمل =

= يحدث بين الإنجليز أو التجار التابعين لدولة انجلترا وخدمهم وتراجمهم من جهة وسائر طبقات الرعايا العثمانيين من جهة أخرى له علاقة بالبيع أو الشراء والمداينة والتأمين.. وغيرها من الأعمال القضائية يتقدم المتعاملان إلى القاضى فيحرران حجة شرعية بحضور شهود ويقيدون ذلك في سجل المحكمة حتى إذا حدث في المستقبل خلاف أو نزاع يمكن الرجوع إلى هذا العقد المسجل". يوسف آصاف: مرجع سابق، ص٦٤.

[٥] يوسف آصاف : المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوروباوية ،ص٦٤.

[٦] المرجع السابق،ص٦٤.مادة ٨-١١ من معاهدة ١٥٨٠م.

[٧] Lewis Hertslet; op.cit, p. 357.

عنه، ويطلق سراح الإنجليزي ولا يسجن ولا يمنع من السفر، وترفع الدعوى في الديوان الهمايوني[1].

المشاكل التي عانى منها الإنجليز

لم يعش الإنجليز في القاهرة بدون مشاكل. ولعل أبرز هذه المشاكل كان يتمثل في **القرصنة** ؛وقد اتخذت القرصنة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر طابع الحرب المقدسة، فبحارة المغرب العربى المسلمون كانوا لا ينفكون عن مهاجمة المراكب الأوروبية، مهما كانت جنسيتها ،وبالمقابل فإن فرسان مالطة، وقراصنة البندقية ، كانوا لا ينقطعون عن مهاجمة المراكب الإسلامية ويحصلون على الأسلاب[2]. ومن ثم فإن القرصنة من كل جنس ولون ، كانت نشيطة جداً فى البحر المتوسط فى هذه الحقبة[3]. وكانت الدولة العثمانية من طرفها تشجع بحارة شمالى إفريقيا على الرغم من تظاهرها بعكس ذلك ، كما كانت الدول الأوروبية المسيحية تشجع القرصان المسيحيين [4].

وطالما كانت الدولة العثمانية قوية مهابة الجانب ،كان نشاط هؤلاء القراصنة محدود،إلا أنه بعد هزيمة الأسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو عام (٩٧٩-١٥٧١ه) بدأ نشاط القراصنة يزداد بصورة واضحة ضد السفن الإسلامية مهددين طريق التجارة والملاحة بين الدولة العثمانية وبعض ولاياتها على البحر المتوسط،وذلك عن طريق القيام باصطياد السفن والسيطرة على ما تحمله من سلع وأفراد،ثم إطلاق سراحهم نظير فدية إن أمكن ذلك[5]. وقد انضم إلى هؤلاء لاحقاً قراصنة إنجليز،الذين أصبحوا يهاجمون السفن العثمانية[6]، مما جعل الدولة العثمانية تؤمن بصعوبة المواصلات مع مصر[7]. وكثيراً ما كانت

---

[1] يوسف آصاف: مرجع سابق، ص٨٦.

[2] جوفنى ميكيله فنسلبيو : تقرير الحالة الحاضرة لمصر ١٦٧١م، ترجمة: وديع عوض، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، ط١، ٢٠٠٦، عدد ١٠٠٥،، ص ١٠٦؛ ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص١٧١-١٧٢.

[3] محكمة الاسكندرية : س ٥٣ ، م ٢٨٨مكرر ، ص ١٤٠-١٤١ ، بتاريخ : ٤ محرم ١٠٨٤هـ / ابريل ١٦٧٣م. وقد تم القبض على عدة غلايين تحمل ٨٢ قرصان من فرنسا وانجلترا ومالطة والونديك ومرسيليا ومسينا.

[4] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص ١٧٢.

[5] أحمد عبد العزيز على : نشاط قراصنة مالطة فى ميناء دمياط (٩٧٩-١٢١٣هـ/ ١٥٧١-١٧٩٨م) ، وقائع تاريخية ، دورية علمية يصدرها مركز البحوث والدراسات التاريخية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عدد يوليو ٢٠٠٩م ، ص ١٤٤.

[6] محكمة الاسكندرية : س ٨٠ ، م ٣٧٢ ، ص ٢٤٣ ، بتاريخ : ٢٤ جمادى الأخر ١١٦١ه / مايو ١٧٤٨م.

[7] خليل إينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من النشوء =

تقوم الخلافات بين القراصنة وبعضهم البعض، ويدخلون إلى الميناء ويطلبون الأمان[1]. مثل الخلاف الذى دب بين قراصنة إنجليز وفرنسيين،والذى أدى إلى قتل غالبهم،ثم دخلوا بالمركب إلى مينا الثغر وسلموها إلى السلطنة الشريفة العثمانية [2].

ونتيجة لكثرة أعمال القرصنة فى البحر المتوسط[3]،أن أعلن قنصل الإنجليز بالقاهرة "ويلام فارنتيوم" وقنصل الإنجليز بالاسكندرية "استيفن مور"عن عدم رغبتهم فى شحن بضائع المسلمين على مراكبهم وأنهما صارا لا يأذنا بشحن أرزاق المسلمين بمراكبهم ،وإذا شحنت بالبضائع وتعدى عليها القراصنة ،فإنهم لا علاقة لهما فى ذلك لا بضمانة ولا بكفالة مطلقاً [4]. وقد توترت العلاقات بين الدولة العثمانية وانجلترا فى أوائل أربعينيات القرن السابع عشر ،بسبب القرصنة العربية – الإنجليزية فى البحر المتوسط [5]. وقد حاولت الدولة العثمانية الحد من نشاط القراصنة ،فأمرت بعمل دوريات على البحر لحراسة السفن التجارية،إلا أن ذلك لم يقض على نشاط القراصنة الذى ظل يزداد حتى بلغ ذروته خلال القرن السابع عشر[6]. وكانت بعض السفن التى تقع فى الأسر يتم الاستيلاء على ما عليها من بضائع وتسلم إلى السلطنة الشريفة لِيُنتفع بها [7].

وقد تضرر التجار نتيجة لأعمال القرصنة هذه ،فقد استولى القراصنة الإنجليز على سفن

=

إلي الانحدار، ترجمة: محمد-م- الارناؤوط ، دار المدار الإسلامي ، ط1، 2002م، ص 71.

[1] محكمة الاسكندرية : س 51 ، م 1793، ص 790 ، بتاريخ : 22 ذى القعدة 1075هـ / مايو 1665م.

[2] نفسه : س 51 ، م 1880، ص 885 ، بتاريخ : 7 صفر 1076هـ / اغسطس 1665م.

[3] محكمة الاسكندرية : س 50 ، بدون رقم ، ص 104 ، بتاريخ : 26 شعبان 1071هـ / ابريل 1661م. وقد وردت الأخبار إلى ثغر الاسكندرية بوصول ستة مراكب قرصنة إلى قرب حصار أبى قير ومن بينهم مركبين إنجليزيين؛ فهرس بطاقات الدار : درج 88 بريد ، دفتر 6 ، معية تركى ، م 457 ، أمر إلى الأفندية ونواب الأقضية الواقعة فى طريق الذهاب والإياب من مصر إلى إستانبول بتاريخ 1236هـ / 1820م.

[4] محكمة الاسكندرية : س 65 ، م 18، ص 8 ، بتاريخ : أواخر شوال 1129هـ / سبتمبر 1717م.

[5] نبيل مطر : الإسلام فى بريطانيا(1558-1685)، ترجمة : بكر عباس ، مراجعة : إحسان عباس ، تقديم : محمد شاهين ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، ط 1 ، 2002م، ص 177.

[6] سحر على حنفى : العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2000م ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد(178) ، ص 21.

[7] محكمة الاسكندرية : س 51 ، م 1793، ص 790 ، بتاريخ : 22 ذى القعده 1075هـ / مايو 1665م.

محملة ببضائع لتجار مصريين[1].وقد لجأ جماعة من التجار القاطنين برشيد ومصر والاسكندرية ،إلى توكيل أحد التجار،فى إستخلاص وتسليم البضائع التى كانوا أشحنوها بغليون برئاسة جان الفرنسي وشيطه برئاسة اندريه الفرنسي التى استولى عليهما الإنجليز ،وفى أخذ القيمة عن ما هلك من البضائع التى كانت بالغليون والشيطه[2]. ولم يقتصر نشاط القراصنة الإنجليز على البحر المتوسط بل امتد إلى البحر الأحمر،فكان ضعف البحرية العثمانية فى البحر الأحمر سبباً هاماً فى إنتشار القرصنة[3]. ولذلك أخذ القراصنة الإنجليز ينشطون بعملياتهم فى البحر الأحمر منذ عام ١٦١٣م [4]. وفى المقابل تعرضت سفن إنجليزية للقرصنة فى البحر الأحمر والخليج العربى[5]. وازدادت أعمال القرصنة أثناء فترة الاحتلال الفرنسى لمصر،فقد تعرضت السفن التجارية للعديد من عمليات القرصنة من جانب الإنجليز(الذين كانوا يحاصرون شواطىء مصر الشمالية المطلة على البحر المتوسط ،لمنع وصول الامدادات إلى الفرنسيين فى مصر)، وفى بعض الحالات كان يتم دفع أموال للإنجليز حتى يتم الافراج عن المراكب التى يتم

[1] نفسه : س ٧٨ ، م ٣٩٥ ، ص ٢٦٤ ، بتاريخ : أواسط شوال ١١٥٧هـ / نوفمبر ١٧٤٤م؛س ٨٠،م ٣٧٢،ص ٢٤٣،بتاريخ: ٢٤ جمادى الأخر ١١٦١هـ/ مايو ١٧٤٨م ؛ س ١١٨،م٢١٩،ص١١٥،بتاريخ:١٩ محرم ١٢٢٦هـ/يناير ١٨١١م؛ محكمة رشيد:م ١٣٢ ، ص ١٨٤،كود:1089-000758.

[2] محكمة رشيد : م ١٣٢ ، ص ١٨٤ ، بتاريخ : ٢٠ رجب ١١٢٠هـ / سبتمبر ١٧٠٨م ،كود أرشيفى : 1089-000758. الشيطية :نوع من المراكب الحربية الصغيرة التى تمتاز بالخفة والسرعة ،وكانت تستعمل فى البحر المتوسط.انظر درويش النخيلى:السفن الإسلامية على حروف المعجم ،جامعة الاسكندرية ،١٩٧٤،ص ٨٢.

[3] صلاح هريدى : دور الصعيد فى مصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م) ، تقديم : عمر عبد العزيز عمر ، دار المعارف ، ١٩٨٤م ، ص ٢٨٦.

[4] خليل إينالجيك : مرجع سابق ، ص ٧٣.

[5] بحر برا : محفظة ٦ ، ملف ١٢٤ ، م ٢٠٨ ، كود أرشيفى : 5011-000750 ، ترجمة مكاتبة واردة من محمد درويش باشا الصدر الأعظم بتاريخ : ٢٦ ذى الحجة ١٢٣٤هـ / سبتمبر ١٨١٩م. حضرة صاحب السعادة : قد ذكر فى التقرير الذى قدمه إلى الباب العالى "بيزانى كبير تراجمة انجلترا " مأذوناً من طرف سفير انجلترا أنه من جهة وقوع تعديات منذ مدة طويلة من أهالى المحلات الواقعة فى الأقطار الشرقية المناظرة لجهة جنوب إقليم اليمن على سفن التجارة الهندية الإنجليزية فى تلك العدوة وفى خليج فارس وعلى أهالى سواحل الهند،قصد جنرال انجلترا الموجود فى جهة اليمن تسير عدة سفن من الأسطول ومعها مقدار ما يكفى من العساكر البرية من جهة بمبائ بنية إدخال الأهالى المذكورين تحت النظام وإجراء ذلك بالمخابرة مع العساكر الموجودين تحت إدارة نجلكم إبراهيم باشا والى جده...

الاستيلاء عليها [1].وتكرر ذلك أثناء حملة فريزر على مصر،وقام الإنجليز بالاستيلاء على السفن وما عليها [2]. وكذلك خلال فترة الحصار القارى [3]،وعملت كلاً من انجلترا وفرنسا على تجهيز سفن قرصنة [4]. ولجأت انجلترا إلى تفتيش السفن وأخذ ما عليها من الأسلحة[5].

---

[1] محكمة الأسكندرية : س ١١٨ ، بدون رقم ، ص ١٦ ، بتاريخ ١٥ رجب ١٢٢٥هـ / اغسطس ١٨١٠م.

[2] نفسه: س ١١٥ ، م ١٢٨ ، ص ١٠٦، بتاريخ : أواخر ربيع الأول ١٢٢٢هـ / مايو ١٨٠٧م. ؛ س ١١٨ ، م ٢١٩ ، ص ١١٥ ، بتاريخ : ١٩ محرم ١٢٢٦هـ / يناير ١٨١١م.

[3] جرانت وتمبرلى : اوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠) ، ترجمة : بهاء فهمى ، مراجعة : أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ، ط ٦ ، ص ٢٢٥. كان نابليون يؤمن بأن قوة انجلترا تكمن فى صادراتها ،وأن دول أوربا هى سوقها الرئيسى ،ولذلك أعلن نابليون فى نوفمبر عام ١٨٠٦م "مراسيم برلين" والتى أعلنت فرض حالة الحصار على الجزائر الإنجليزية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه. ولم يعد مسموحاً للسفن الإنجليزية بدخول موانىء فرنسا =أو حلفائها ،وأصبحت السفن التى تدخل بالرغم من ذلك الأمر عرضة للمصادرة.وردت حكومة انجلترا على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة فى يناير ونوفمبر عام ١٨٠٧م. وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب وأعلنت أنه مادام الاتجار مع اوروبا محرماً على انجلترا فليكن محرماً على الدول المحايدة كذلك ، وضربت انجلترا الحصار على الأراضى الفرنسية.

[4] بحر برا : محفظة ٢ ، ملف ٦٠ ، م ٢/٥٩ ، كود أرشيفى : 5011-000124 . ترجمة مكاتبة مؤرخة بتاريخ : ٢١ جمادى الثانى ١٢٢٧هـ / يونيه ١٨١٢م ، من =

= محفوظات المعية السنية ، من محمد سعيد كتخدا "حضرة صاحب الدولة سيدى ولى النعم،حيث أنه يوجد خصام بين دولتى فرنسا وانجلترا منذ مدة كما أن لهاتين الدولتين مصالح مع الدولة العثمانية،وبناء علي أن قيام هاتين الدولتين بتجهيز سفن قرصنة والحصول على بحريين من الرعايا فى سواحل الأناضول والرومللى وبين الجزر،بينما قبلت الدول المحافظة على أصول الحياد،فهذا الشأن يؤدى إلى انسلاب الأمن فى البحر ،وبما أنه كانت صدرت أوامر سابقاً بأن يُمنع بصورة ودية استخدام بحريين من طرف الدولتين المنوه عنهما فى الموانى والسواحل التى من هذا القبيل،مع منع تجهيز سفن تصلح للقرصنة إذا لزم ذلك،وأنه أيضاً جرى التنبية والتأكيد على قناصل الدولتين المقيمين باستانبول وعلى حضرة الوزير الأكرم ريان البحر،فقد أرسل الأمر الشريف العالى الذى صدر موجهاً إلى طرفكم الباهر بأن تتفضلوا وتبذلوا الهمم الكاملة فى خصوص المحافظة على ذلك بمرسوم عال يشمل التنبيه الأكيد على من يلزم فى الموانىء الكائنة فى سواحل مصر."

[5] محكمة الأسكندرية : س ١١٥ ، م ١٩٠ ، ص ١٥٢ ، بتاريخ : ٤ جمادى الثانى ١٢٢٢هـ / اغسطس ١٨٠٧م.أشهد على نفسه الذمى جورجى ريس ولد يانى الرومى الرودسلى أنه قبض وتسلم من يد حضرة الكمندانتى هلول الإنجليز كمندانتى البحر بالثغر جميع المركب الكائن بالمينا الغربية تعلق المحترم سعيد قبودان الاسكودرلى الغايب عن الثغر بكامل ما فيه من الأرزاق والآلات والأدوات المعلومة عندهما ولم يأخذ منه الكمندانتى ولا غيره من طايفة الإنجليز شيئاً سوى تسع وعشرين مكملة بارود واحدى عشر حربة قبضاً وتسليما معتبرين حسب اعتراف الذمى جورجى المرقوم بذلك. ؛ س ١١٥مكرر ، م ٨٣٦ ، ص ٣٢٨.

وكان الوقوع فى الأسر،كابوساً حقيقياً بالنسبة لسكان السواحل الأوروبية ،وقد حاولت الدول بكل الطرق أن تخفف من وقعه [١]. وعمل الإنجليز على تحرير أبناء جلدتهم من الأسر، فقد وجدت حالات لشراء الإنجليز المقيمين فى مصر لغيرهم من الإنجليز الذين وقعوا فى الآسر[٢]،مثل شراء "طوماز النصرانى الإنجليزى" من "بيرم بن عبدالله" ولد نصرانى إنجليزى أسير[٣]، كذلك شراء "اليترونجان استان فورت ولد صمويل النصرانى الإنجليزى" لأسير إنجليزى يدعى مازبركيت[٤]. وكان السلطان العثمانى مراد الثالث قد تقدم برجاء إلى حاكم المغرب بفك أسر التجار الإنجليز السجناء وإعادة أموالهم إليهم [٥]. كما عمل الإنجليز على إفتداء المصريين الذين وقعوا فى الأسر[٦]. وهناك حالة لشراء "فرنسيسكوا دلفين النصرانى البندقى، قنصل طايفة البنادقة والإنجليز" شاب يدعى بيكال ولد منولى النصرانى البندقى" من "خضر بن عبد الله وجوان جان ماكوا النصرانى الإنجليزى"[٧].

عادات الإنجليز في مصر

تشير المصادر إلى أن الإنجليز في مصر كانوا يعملون في الصباح، وفي المساء كانوا يركبون الخيل في الحقول والحدائق إلى وسط القاهرة. كما كانوا لا يعملون يومي السبت والأحد[٨].

وعلى الرغم من أن شرب الخمر محرماً على المسلمين، فإن الدولة العثمانية سمحت للأوروبيين بتناوله وإحضاره من بلادهم إذا شاءوا ، بل وصنعه في بيوتهم[٩]. وكان يسمح لهم باستيراد النبيذ لاستخدامهم الخاص[١٠]. وقد

[١] ياتسيك ماخوفسكى: تاريخ القرصنة فى العالم، ترجمة : أنور محمد إبراهيم ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨،ص ١١٥.

[٢] محكمة بولاق: س ٦٤ ، م ٢٥٨ ، ص ٩٣ ، ١٠ صفر ١١٣١هـ / ديسمبر ١٧١٨م. كود أرشيفي1005-000304.

[٣] محكمة الأسكندرية: ، س ٤٨ ، م ٧٧٩ ، ص ٣١٧ ، بتاريخ : ٢٥ ذى القعده ١٠٤٩هـ / فبراير ١٦٤٠م ، كود أرشيفى : 1029-001266.

[٤] نفسه : م ٧٤٦ ، ص ٣٠٦ ، بتاريخ : ٢٢ شوال ١٠٤٩هـ / يناير ١٦٤٠م.

[٥] ياسر بن عبد العزيز قارى: دور الإمتيازات الأجنبية فى سقوط الدولة العثمانية ، رسالة دكتوراة ،جامعة أم القرى بمكه ،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ،ج ١ ، ٢٠٠١م، ص ٢٧٦.

[٦] ديوان التجارة والمبيعات : ، ملف ٣ ، م ١٨٣/١٠٣ ، بتاريخ : ٢٧ جماد الأخر ١٢٤١هـ / يناير ١٨٢٦م ، كود أرشيفى : 3013-000345.

[٧] محكمة الاسكندرية: ، س ٦ ، م ٦٠٤ ، ص ٢٥٣ ، ٢٠ ذى الحجة ٩٧٩هـ/ أبريل ١٥٧٢هـ. كود أرشيفي 1029-1056

[٨] Ibid., p.242.

[٩] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص ٧١٠.

[١٠] آن وولف : مرجع سابق ، ص ١٠٥.

نصت معاهدات الامتياز على حرية الإنجليز في شرب الخمر وصنعه في منازلهم (المادة ٢٦ من معاهدة سنة ١٦٠٦م)[١].

وتشير الوثائق إلى أنه كان يأتى لقنصل انجلترا في كل سنة ٤٠ بتية من الخمور[٢]. وتعكس وثائق المحكمة ذلك حين أوردت أنه "حضر وكيل الأمير أحمد جاويش بالخدمة العالية أمين ديوان الثغر، وهو المعلم إبراهيم اليهودي وأخبر أن من الجاري به العادة السابقة من قديم الزمان وإلى تاريخه ،أنه في كل سنة يسمح لقنصل الإنجليز أربعين بتية مملؤة من الشراب الذي يتعاطونه بموجب الأوامر الشريفة المخلدة تحت يده وأن عادة كل بتيه من ذلك ثمانية قروش ونصف قرش ريالاً، وأنه في سنة تاريخه أدناه تسلم الأربعين بتيه على مرات متعددة في أزمنة مختلفة من غير عادة ولا مصرف، وأن جملة ما يصرف على ذلك لجانب الديوان واليسقجيه وغيرهم حكم العادة ٣٤٠ قرش ريالاً، وحضر ترجمان الإنجليز وصدق على تسليم ذلك "[٣].

وبالإضافة إلى الخمور، كان الإنجليز يميلون بنوع خاص إلى شرب الشاى والقهوة[٤]. كما كانوا يبقون مدة أطول على المائدة، ويدخنون ما يقارب الساعة والنصف، ثم ينسحبون للقيلولة. وعلى العشاء كان استرخاؤهم بعد الطعام، وتدخينهم يستغرق مدة أطول. ويلاحظ أنهم كانوا دقيقين جداً في مراعاة انتظام أوقات الطعام. وما عدا أيام المآدب، فإنهم كانوا يتوخون الاعتدال في الشراب، لأن أى إسراف فيه يعرقل العمل في اليوم التالى. وعلى الرغم من محاولاتهم الاعتدال في تناول الخمر، فإن بعضهم كان غير قادر على ذلك[٥]. ومن ثم ظهرت بعض مشاكلهم نتيجة سكرهم. ومن ذلك الدعوى التي أقامها "الشهابى أحمد بن قاسم بلوك باشى بقلعة الركن والوكيل عن ولده النورى على" ضد "تودرى النصرانى الإنجليزي، وثلاثة غيره "لأنهم تعدوا على ولده وهم سكارى[٦].

---

[١] Lewis Hertslet; op.cit, p. 353.

[٢] محكمة الاسكندرية: س٥١، م٢٠٣١، ص٩٧٨، ١٨ ذي الحجة ١٠٧٣هـ/يوليه ١٦٦٣م. س٥١، م١٧٤٥، ص٧٥٩، أواخر ذي الحجة ١٠٧٦هـ/يونيه ١٦٦٦م. والبتية: برميل من الخشب، والجمع بتاتى. عادل شحاته طايع: حى بولاق "ثغر القاهرة" منذ نشأته وحتى نهاية العصر العثماني، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار، ٢٠٠٦ ، ص٧٣١.

[٣] محكمة الاسكندرية: س ٤٩، م ٢٤٤ ، ص ٨١ ، جمادى الثاني ١٠٦٣هـ/ أبريل ١٦٥٣م.

[٤] جلال يحى : تاريخ العلاقات الدولية في العصور الوسطى، دار المعارف ، ص ٥٨٠.

[٥] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص ٧١٣.

[٦] محكمة الاسكندرية: س٤٦، م ٧٥، ص٢٩، ٢٠ شوال ١٠٥٠هـ/يناير ١٦٤١م، كود أرشيفي: 1029-001264.

وقد أُجبر الإنجليز في مصر على لبس الزي التركي، وكان عليهم أن يضعون وشاحاً أحمر على قبعاتهم، لتمييزهم عن أهل البلد. إلا أنهم في عام ١٧٩٢م أصبحوا قادرين على لبس زيهم الخاص في الاسكندرية دون مضايقات[1]. وعلى الرغم من إقامة الإنجليز في الشرق مدة طويلة، من الصعب القول أنهم أصبح لهم صفات الأجانب الشرقيين. ولأنهم كانت لهم صفات مميزة لهم، فإنهم ظلوا يحتفظون بتلك الصفات كاملة، ومن ثم كانوا لا يختلفون كثيراً عن أبناء وطنهم في انجلترا. فالإنجليزي أشد العناصر الأجنبية حرصاً على عاداته، فهو في القاهرة كما في لندن، لا يمكنه الاستغناء عن عاداته في المأكل والمشرب، لاسيما عادة شرب المسكرات[2].

أما عن احتفالات الإنجليز في مصر، فكان يجتمع فيها أفراد الجالية الإنجليزية يوم الأحد والأعياد في الكنيسة، ولم يكن الاحتفال بالأعياد الدينية فقط، وإنما كانت هناك مناسبة وصول باشا جديد، وإقامة قنصل جديد، واستقبال السفير، بالإضافة إلى الاحتفالات القومية والوطنية[3].

[1] Wood, Alfred c,; op.cit, p. 240.

[2] ناهد السيد علي: الجالية البريطانية في مصر (١٨٠٥-١٨٨٢)،رسالة ماجستير،جامعة الأزهر،٢٠٠٨م، ص٣١٥.

[3] ليلى الصباغ : مرجع سابق ، ص ٦٩٠.

التعايش بين الإنجليز وغيرهم

لم يعش الإنجليز في أحياء منعزلة عن المصريين، بل تجاورت مساكنهم ومساكن المصريين، مما أنتج تعايشاً. ومما يدل على ذلك "دعوى المعلم صالح عطا الله القبطى على الشيخ إبراهيم عبد الله بأنه اتفق معه أن يبنى له بيتاً على سطح ٣ حواصل من حواصل الوكالة المعروفة سابقاً بوكالة الدماهره، والآن بوكالة القلو الملاصقة للوكالة الجديدة، سكن قنصل الإنجليز بخط سوق الحمارين"[4]. وخلاصة هذه الوثيقة تعنى أن قبطياً مصرياً عاش جاراً للقنصل الإنجليزى.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً سكن بعض الإنجليز في ثلاث حجرات بداخل الوكالة الكائنة بجزيرة الثغر بسوق الحلاقين المعروفة بوكالة أودا باشا الجارية في وقف الحاج مصطفي باشا[5]. وكذلك سكن الإنجليز في الأوضة الكائنة بوكالة الناضورى[6]. وهذا يعني - ومن

[4] محكمة الاسكندرية: س١٢٢، م٧٢٥، ص٤٢٠، ذي القعده ١٢٣٤هـ/أغسطس ١٨١٩م. كود أرشيفي: 1029-001765. س ١٢٧ ، م ٧٩ ، ص ٥٠ ، بتاريخ : أواخر ذى الحجة ١٢٤١هـ / يوليه ١٨٢٦، كود: -1029 001770.

[5] محكمة الاسكندرية: س ١١٥، م ٦٨، ص ٤٩، غاية ربيع الأول ١٢٢٢هـ/ مايو ١٨٠٧م.

[6] نفسه: س ١١٥، م ١٤٩، ص١٢١ ، ١٤ ربيع الثاني ١٢٢٢هـ / يونيه ١٨٠٧م.

جديد- سكن الإنجليز بين المصريين. وعلى كل فقد شهد القرن الثامن عشر نزوحاً اختيارياً من الأوربيين للسكن خارج الفندق، واستئجار بيوت بين الأهالي[1].

من ناحية أخرى كانت علاقات الإنجليز مع مجتمع القاهرة مفتوحة، وتقوم على الاحترام المتبادل[2]. بل لقد أشار البعض إلى أن القنصل الإنجليزي بالقاهرة كان يلبس الملابس التركية، ويقيم الولائم لوجهاء القاهرة ، وكانوا أيضاً يولمون له، وكان إذا خرج إلى الشارع يوزع الصدقات عن سعة، وكانوا يحبون رؤيته [3]. ومن ثم كانت توجد عمليات بيع وشراء بين مصريين وإنجليز[4]. ومن ذلك شراء الحاج خليل بن عطية شيخ الشيالين من رجل إنجليزي حمار بثمانية ريالات فرانسه[5].

كما استخدم الإنجليز تراجمة من المصريين[6]. ومنهم المعلم "حييم اليهودي" ترجمان طايفة الإنجليز[7] و"إلياه بن يوسف اليهودي"[8]، وهارون بن سلمون اليهودي[9]. كما استخدم الإنجليز وكلاء لهم من أجناس مختلفة[10]. ومن هؤلاء "فرنسيسكو بن نقوله البندقي" الذي كان الوكيل الشرعي عن "مرسيليو قنصل طايفة الفرنج الإنجليز"[11] و"فرحانه بن برتميلوا الفرنسي" الذي كان وكيلاً لقنصل الإنجليز[12]،

---

[1] محمد صبرى الدالى: الأوربيون في الاسكندرية العثمانية بين التعايش والخلافات، ص٢٢٥.

[2] عبد الرحيم عبد الرحمن : فصول من تاريخ مصر اللاقتصادى والاجتماعي، ص ٣٠٤.

[3] كارستن نيبور : رحله إلي بلاد العرب وما حولها (١٧٦١-١٧٦٧) ، رحلة إلي مصر ، ج١ (١٧٦١-١٧٦٢) ، ترجمة: مصطفي ماهر ، المطبعة العالمية ، ص ٢٥٥.

[4] محكمة الاسكندرية: س ١١٠ ، م ٢٠٨ ، ص ١٠٨ ، بتاريخ: ٢٨ جمادى الأول ١٢١٦هـ/ سبتمبر ١٨٠١م ،كود أرشيفى: 1029-001664.

[5] نفسه: س ١١٥مكرر، م ٤٠٧، ص١٦٦، ٢٢ ذي الحجه ١٢٢٢هـ / يناير ١٨٠٨م.

[6] نفسه: س١٠٦، م ٢٠٦، ص١٢٥، ٢٥ شعبان ١٢٠٨هـ/مارس ١٧٩٤م، كود أرشيفي: 1029-00165؛ س٦٣، م٤٤٦ مكرر، ص٢٤٨-٢٤٩، أواسط شعبان ١١٢٦هـ/أغسطس ١٧١٤م؛ محكمة دمياط : س ٢٩٨ ، م ٢٤ ، ص ١٩ ، بتاريخ ٢٢ شوال ١٢٢٠هـ / ديسمبر ١٨٠٥م ، كود:1032-000611.

[7] محكمة الاسكندرية: س ٥٥، م ٧٧١، ص ٣٤٣، أواخر ربيع الأول ١٠٩٨هـ/يناير ١٦٨٧م، س ٥٧ ، م ٤٧ ، ص ١٩ ، ١٠ شوال ١٠٩٨هـ / أغسطس ١٦٨٧م.

[8] م الاسكندرية: س ٩٥ ، م ١٢٥ ، ص ٨٤-٨٥ ، ١٣ شوال ١١٨٧هـ / ديسمبر ١٧٧٣م.

[9] نفسه: س٣٣، م ١٩، ص١٢، ٩ شعبان ١٠٠٩هـ/ فبراير ١٦٠١م ،كود أرشيفي: 1029-001251

[10] م دمياط: س ٣٠٥ ، م ٢٣١ ، ص ٢٠٤ ، ١١ جمادى الثاني ١٢٣٥هـ/مارس ١٨٢٠م.

[11] م الاسكندرية: س٢٥، م ١٣٤٥، ص ٤٠٥ ، ١٥ محرم ٩٩٧هـ / نوفمبر ١٥٨٨م، كود أرشيفي: 1029-001159.

[12] نفسه: س٥١ ، م ٧٤ ، ص ٣١ ، ٢٤ ذي الحجة ١٠٧٣هـ / يوليه ١٦٦٣م.

والذمي إسحاق أشكنازى[1].

وفي إطار تعاون الإنجليز مع غيرهم، كانت توجد شركات بين الإنجليز وغيرهم من التجار العرب والمسلمين.ومن الأمثلة على ذلك تصادق "أحمد بن على المغربى الطرابلسى" مع الريس "قسنطى ولد دميترو النصرانى الإنجليزي" على أن بينهما شركة جميع مركب إنجليزي[2]. وكذلك ضمان قنصل انجلترا لمراكب تجار من فرنسا والبندقية لنقل الذخيرة السلطانية وتعهده بحمايتهم، و أن يدفع ثمنها في حالة تعدى روسيا على هذه الذخيرة[3].

في الوقت نفسه تشير الوثائق إلى أن الإنجليز كانوا على علاقة بغيرهم من الأوربيين. من هنا نجد أمثلة على وجود وكالة متبادلة بينهم، كدليل على الثقة المتبادلة. من ذلك "إشهاد بيرو بن جاكمو النصرانى البندقي أنه وكل صاوى بن ماركو الفرنجى الركوزى في تعاطى ما يتعلق بقنصلية الإنجليز ،واستخلاص ديونه كلها وحقوقه "[4]. واشتراك فرنسيان مع إنجليزيين في شراء بيت كبير بالأزبكية سنة ١٧٣٨م، حيث باعوه لقاسم الشرايبى التاجر بمبلغ ٦٠٠دينار ذهب شريفي محققين ربحاً لابأس به[5]. ومن ذلك أيضاً إرسال تاجرين إنجليزيين فرنسى ببضائع ليبيعها في مصر، حيث "أشهد عليه "جريرموا مرتلى النصرانى الفرنسي" بأن "جميع البضايع والصارمية النقدية التي باع بعضها من قبل ولا يزال بعضها تحت يده، قد ابتاع بها بضايع وأشحنها بمركب الريس هارون استيس النصرانى الإنجليزي الواردة لمينا الثغر، وذلك لصالح التاجرين الإنجليزيين لورينسو مرتلى ومرتين ولكتسون النصرانى" وأنه لا ملكية له فيه، وأن هذين التاجرين أرسلاه صحبة الريس المذكور بالمركب وتسلم منهما البضايع والصارمية النقدية وجعلا له أجرة في نظير خدمته[6].كما لجأوا إلى شهادة المصريين فى المعاملات التى تتم فيما بينهم ،مثل شراء قنصل النمسا سفينة من أحد التجار الإنجليز

---

[1] نفسه: س ٦٣ ، م ٤٤٦ مكرر ، ص ٢٤٨-٢٤٩، أواسط شعبان ١١٢٦ﻫ / أغسطس ١٧١٤م.

[2] نفسه: س٤٨، م ١١٥٣، ص٤٥١، ٢١ ذي القعده ١٠٥٥ﻫـ/ديسمبر ١٦٤٥م. كود أرشيفي : 1029-001266.

[3] نفسه: س ٩٥، م ١٢٥ ، ص٨٤-٨٥ ، ١٣ شوال ١١٨٧ﻫ/ديسمبر ١٧٧٣م.

[4] نفسه: س٢٢، م٦١١، ص٢٦١، ٢٠ ذي القعده ٩٩٢ﻫ/نوفمبر ١٥٨٤م، كود أرشيفي: 1029-001156.

[5] زينب الغنام : مرجع سابق ، ص ١٥٠.

[6] محكمة الاسكندرية: س٥١، م٥٤٣، ص٢٤٧، ٤ ربيع الآخر ١٠٧٥ﻫـ/أكتوبر ١٦٦٤م، كود أرشيفي 1029-001351.

،وكان ذلك بشهادة تجار مصريين [1].

كما تعامل التجار الإنجليز مع أتراك. ومن ذلك اشتراك مجموعة من التجار الإنجليز في شراء مركب من تاجر من إستانبول، بشهادة تجار من مصر ومسينا، بحضور "الحاج إبراهيم بن محمد أغا" و"الذمي حنا بن جورجى من أهالى مسينا" حيث اشترى الذمي الخواجا "نقولا ولد رخريا.. وهو القائم عن نفسه وبوكالته الشرعية عن الخواجا ميخائيل ولد حنا سرور، وعن الذمي استفانى الإنجليز وفطريه الإنجليز.. من الذمي أنطون الإسلامبولى جميع المركب المشتمل سابقاً على ثلاث صوارى والآت ومدفعين وقارب.. وغير ذلك بثمن قدره ثمانية الآف قرش، وما اشتراه استفانى النصف اثنى عشر قيراطاً بأربعة آلاف غرش، وما اشتراه لنفسه أربعة قراريط بألف غرش وثلاثماية غرش وثلاثة وثلاثون غرشاً وثلث غرش، وما اشتراه إلى الخواجا ميخائيل أربعة قراريط بألف غرش وثلاثماية غرش وثلاثة وثلاثون غرشاً وثلث غرش من مبلغ الثمن المذكور، وما اشتراه إلى الخواجا فطريه أربعة قراريط بألف غرش وثلاثماية غرش وثلاثة وثلاثون غرشاً وثلث غرش، ولم يبق للبايع في ذلك حق" [2].

ومما يدل على التعايش والتعاون وجود حالات لوقوع الإنجليز في الدّين، مثل تصادق "الشهابى أحمد بن محمد المنتصر" وأخيه "مصطفي" الوكيل الشرعي عن "الحاج أبو سلامة" مع الخواجا "حايسيه ولد طيشه النصرانى الفرنسي" على تسلم "حايسيه" منهما جميع "بوليصة" مكتتبة بخط الافرنج بدين شرعى للحاج محمد المنتصر ووالد أبو سلامة من نحو اثنا وعشرين سنة على "كرجانى قنصل الإنجليز بالثغر" بألف ريال وثمان ماية ريال وسبعة وخمسون كل ريال بثلاثة وثلاثين نصف فضة، وما هو للحاج محمد المنتصر ألف ريال وماية وسته وخمسون ريال وثلث ريال وما هو لوالد أبو سلامة سبعماية ريال وثلاثة أرباع كل ريال ثلاثة وثلاثون نصف فضة وأنه رضى بالبوليصة في نظير ذلك الدين، وتراضوا على ذلك" [3]. ومنها "دعوى الذمي ميشيلى الاقريقى الجرتلى ولد مرى البريجو الوكيل، على الريس قابودان جوانى بن جوانى الإنجليز بمبلغ من المال وقدره ٢٩٦

---

[1] نفسه : س ١١١،م٥٣٣،ص٣٤٢،بتاريخ : ١٣ رجب ١٢١٧هـ/اكتوبر١٨٠٢م.

[2] محكمة دمياط: س٣٠٨، م ٢٣١، ص٢٠٤ ، ١١ جمادى الثاني ١٢٣٥هـ/مارس ١٨٢٠م.

[3] محكمة الاسكندرية :س٥٥، م ٧١٧ ، ص ٣١٩ ، ١٠ صفر ١٠٩٨هـ/ديسمبر ١٦٨٦م.

قرش، بموجب تمسك مكتتب بخط المدعي عليه، وبحضور كل من أحمد جاويش مستحفظان والحاج إبراهيم ومصطفى مخلوف وغيرهم"[1]. وعلى كل يمكننا أن نفهم أن علاقات العمل بين الإنجليز والمصريين تعكس نوعاً من التعايش أيضاً.

كما ساهمت سفن الإنجليز بدور مهم في تنشيط حركة التجارة، بالمشاركة مع سفن مصرية وتركية ويونانية، حاملة السلع لحساب الأشخاص أو الدولة، حيث أن إجراءات النقل كانت تحتاج إلى تعاملات عديدة. فتأجير السفينة كان يحتاج لمفاوضات قبل التعاقد بين ريس السفينة والتجار لضمان عدم نكوص طرف على الآخر، وللحصول على أفضل الأسعار لنقل السلع وإمكانية حمل الأشخاص دون ثمن، والاتفاق على طريقة الدفع ومكانه وكيفية تسليم وتسلم السلع. وكل ذلك يشير إلى أن السفن التجارية كانت أحد أشكال التعايش[2]. وكذلك لابد من الوضع في الاعتبار أن طاقم السفينة نفسه كان خليطاً

---

[1] نفسه: س٨١، م ٣٦٣ ، ص٢٥٧، ١٦ صفر ١١٦٧هـ/نوفمبر ١٧٥٣م، كود أرشيفي: 1029-001462.

[2] محمد صبرى الدالى: الأوربيون في الاسكندرية العثمانية، ص٢٤٧. وتحوى الوثائق مئات الحالات لسفن حملت السلع والأشخاص إلى إستانبول وتونس وغيرها. محكمة دمياط: س١٨٦، م٧٠ ، ص٣٨، ١٨ شعبان ١١٢٨ هـ /يوليه ١٧١٦م، كود أرشيفي: -1023
=

=
000410، س١٨٦، م٢١٥، ص١٤٣، ٢٠ ربيع الأول ١١٢٨هـ/ فبراير ١٧١٦م، س٢١٨، م٤٣٨، ص٣٠٠، ٢٤ شوال ١١٥١هـ/ يناير ١٧٣٩م. س٢١٨، م ٦٣، ص٤٧، ١٠ محرم ١١٥٢هـ/ أبريل ١٧٣٩م. س٢١٨، م٥١٥، ص٣٦٢، ٢٤ صفر ١١٥٢هـ/ مايو ١٧٣٩م. س١٨٧، م٢٨٥، ص٢٢٥-٢٢٦،١٠ ذي القعدة ١١٢٩هـ/أكتوبر ١٧١٦م. س٢٢٠، م٣٥٥، ص٢٣٣، ٢٢ محرم ١١٤٩هـ/مايو ١٧٣٦م. محكمة الاسكندرية: س٤٨، م ٨٩٩، ص٣٥٩، غاية محرم ١٠٥٠هـ/أبريل ١٦٤٠م. س٥٠ ، م٨٨٦ مكرر، ص٥٣٩، رجب ١٠٧٧هـ/ ديسمبر ١٦٦٦ م. س٤٠، م ٥٢٥، ص١٩٢، غاية محرم ١٠٣٣هـ/أكتوبر ١٦٢٣م. س٥٧، م ٦٦٨، ص ٢٩٥، رجب ١١٠٠هـ/أبريل ١٦٨٩م. س٥٧، م٦٦٥، ص٢٩٤، ٥ رجب ١١٠٠م. س٥٧، م ٢٩، ص١٢، ٢١ رمضان ١٠٩٨هـ/يوليه ١٦٨٧م. س٨٨،م ٤٢٩، ص٣٤٤، ٥ رمضان ١١٧٤هـ/أبريل ١٧٦١. س٥٥ ، م٦٢، ص٢٩، ن ١٧٦١م. س٥٧، م ٦٦٩، ص٢٩٦، ٢١ رجب ١١٠٠هـ/أبريل ١٦٨٩م. س٤١، م١٧١، ص٩٢، ٧ رجب ١٠٦٧هـ/أبريل ١٦٥٦م. س٥٥، م ٦١٨، =ص٢٧٥، ٢٦ شوال ١٠٩٧هـ/أغسطس ١٦٨٥م. س٥٥، م٣٥، ص١٥،٨ ربيع ثاني ١٠٩٦هـ/مارس ١٦٨٤م. س٥٥، م٣٤، ص١٥، ٨ ربيع ثاني ١٠٩٦هـ/مارس ١٦٨٤م؛ س٥٥، م ٣٨، ص١٦، ٨ ربيع الأخر ١٠٩٦هـ/مارس ١٦٨٤م. س٥٥، م٤١، ص١٧، ٩ ربيع الأخر ١٠٩٦هـ /مارس ١٦٨٤م. س٦٤، م٥٤٩، ص٣٠٥، ٢٨ صفر ١١٢٩هـ/يناير ١٧١٦م. س٧٣، م٣٩٢، ص٣١٨، ٥ شعبان ١١٤٧هـ/ديسمبر ١٧٣٤م. س٦٤، م٣٣٤، ص١٨٥، غرة رجب ١١٢١هـ/سبتمبر ١٧٠٩م. س٥٥، م٦٢، ص٢٩، أواخر ربيع الأول١٠٩٦هـ/فبراير ١٦٨٥م؛س٥٧، م٤٧، ص١٩، ١٠ شوال ١٠٩٨هـ/ أغسطس ١٦٨٧م؛ س ٩٨ ، م ١٦٨٠، ص ٤٤٢ ، بتاريخ : ٢٠ جماد أول ١١٩٠هـ / يونيه ١٧٧٦م؛ محكمة رشيد: س٦٦، م٣٩، ص بدون، ٢٨ صفر ١٠٦٣هـ / يناير ١٦٥٣م.

من الأجناس. من ذلك أن وجود عبدى الطرابلسى البازركان في الغليون الإنجليزي برياسة الذمي موسى كاوين قابودان الإنجليز[1] والذمي شحاده النصرانى البازركان بالغليون المالحي برياسة الذمي توماس النصرانى قابودان الإنجليز[2].

فهم النزاعات في إطار التعايش

إذا كنا نفهم التعاملات باعتبارها أشكالاً للتعايش، فمن الإنصاف فهم النزاعات في هذا الإطار أيضاً، وباعتبارها نتيجة. وحين دبت الخلافات بينهم، قامت المحكمة بدور مهم في تسويتها، وبالإعتماد على الواقع وشهادات الجيران الذين عاش الإنجليز بينهم وجاوروهم. من ذلك دعوى قنصل الإنجليز على درغماش البدوى بأنه يعمل في خدمته "بأجرة معلومة وأنه من نحو ثلاثة أيام تعدى واختلس له من جيب قفطانه ٣ دنانير ويطالبه بذلك.. وبسؤاله أجاب بالاعتراف في أخذ المبلغ وأنه أغراه الشيطان على ذلك فألزم بدفعها". والمُلاحظ أن القنصل ذهب للمحكمة بصحبة باكير كتخدا قبودان الثغر[3].

وهناك أيضاً الخلاف الذي كان بين "الحاج مصطفي قابودان بن خليل الكبجى" و"الذمي روك الإنجليز" على أجرة المركب التي استأجرها الحاج مصطفي من الذمي روك [4]. وهنا نشير إلى أن الوثائق وإن كانت تشير إلى خلافات، إلا أنها تعكس درجة من التعاون والتعايش تسبق الخلافات [5].

وعلى كل فإن القضاء في مصر كان ينصف الإنجليز وفقاً لمفهوم الامتيازات. ومن الأمثلة على ذلك الحكم الصادر لأمير أمراء مصر وقاضيه وقاضى الاسكندرية حول التحقق من شكوى قنصل انجلترا في الاسكندرية حول استيلاء قنصل فرنسا على حجرة ومحل وجميع متروكات أحد التجار الإنجليز المتوفين والختم عليها، وإعادتها لقنصل انجلترا للتصرف فيها وفقاً للقانون[6].

كذلك لجأ الإنجليز إلى المصريين للشهادة في حالة حدوث نزاع بينهم. ومن ذلك النزاع الذي

---

[1] م دمياط: س١٨٦، م٧٠، ص٣٨، ١٨ شعبان ١١٢٨هـ/يوليه ١٧١٦م، كود:1023-000410.

[2] نفسه: س ١٨٦ ، م ٢١٥ ، ص ١٤٣، ٢٠ ربيع الأول ١١٢٨هـ / فبراير ١٧١٦م.

[3] محمد صبرى الدالى: الأوربيون في الاسكندرية العثمانية بين التعايش والخلافات، ص٢٢٦-٢٤٣، ٢٨٠.

[4] محكمة الاسكندرية: س ٧٧، م ٣٥٩، ص ٢١٨، ١٤ ربيع الثاني ١١٥٦هـ / مايو ١٧٤٣م.

[5] مثل الخلاف الذى كان بين على بن مصطفى ومنصور الشيال ومحمد بن عبد الله والشهابى أحمد بن محمد وحسن بن عبد الله مع جاكموا مانولى قابودان الإنجليز. محكمة الاسكندرية: س ٧٥،م ٤٧ ،ص ١٩ ،بتاريخ:١٠شوال ١٠٩٨هـ/اغسطس ١٦٨٧م.

[6] دفتر المهمة رقم ٥٨/ ٣١٨ ، ١٧ رمضان ٩٩٣هـ ، في سيد محمد السيد : مرجع سابق، ص ٥١.

دب بين "قنصل انجلترا" و"قنصل فرنسا" على السكن في "فندق الجنويز والركوزه" بسوق التجار، وزعم قنصل انجلترا أنهم كانوا يسكنون به من قديم الزمان، ويطلب السكن فيه حيث أنه خال ولا يوجد للتجار الإنجليز مكان يسكنون فيه، وطلب قنصل فرنسا شهادة الأعيان والتجار لتأكيد صحة قوله بأن هذا الفندق تابعاً للفرنسيين، وقد شهدوا في صالح قنصل فرنسا[١]. وهناك حالة استشهد فيها الخواجا "قستين ولد بشينسوا النمساوى" بشهادة "سالم مسعود ضيف الله" في شأن مركب "شلبتور باش الإنجليزي"[٢].وكذلك فى الخلاف الذى كان بين قنصل البندقية مع كل من قنصل الإنجليز وقنصل الفرنسيين ،واستعانته بالمصريين للشهادة معه [٣].

أعداد الإنجليز في مصر

في محاولة لمعرفة متوسطات أعداد الإنجليز بمصر، أحصيت عدد المترددين على المحكمة من عينات بالسجلات[٤]. وبلغ عدد الإنجليز في القرن السادس عشر حوالى ٥ (بالإضافة إلى مالطى)، وفي القرن السابع عشر حوالى ٦١ (بالإضافة إلى ٤٢ مالطى و٧ من لندر و٣ من لندوا وجنوى تحت الحماية). وفي القرن الثامن عشر حوالى ٣٥ (بالإضافة إلى٢ تحت الحماية). وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر حوالى ٢٥ (بالإضافة إلى ٥ تحت حماية الإنجليز غير محددى الجنسية، وشامى تحت الحماية). هذا مع ملاحظة أن هناك العديد من الوثائق التى لم تحدد عدد الإنجليز وذكرت عبارات مثل "جماعة من الإنجليز" أو "طوايف النصارى الإنجليز" أو "تأجير مركب إنجليزي".

على كل فما عثرت عليه عن أعداد الإنجليز يختلف عما أوردته "زينب الغنام" التي ذكرت أنه في القرن السادس عشر لم يرد ذكر لأى إنجليزى، وكان في مصر في القرن السابع عشر إنجليزى واحد، و١٥ إنجليزي في القرن

---

[١] محكمة الاسكندرية: س ٤٧ ، م بدون رقم ، ص ٢٩٥ ، ١٠ محرم ١٠٥٤هـ / مارس ١٦٤٤م.

[٢] نفسه :س١٢٢، م ٢٧٢ ، ص ١٦٤، ١٧ شعبان ١٢٣٢هـ / يونيه ١٨١٦م.

[٣] نفسه : س ٤٧ ،م بدون ، ص ٢٥٦ ، بتاريخ: أواسط رجب ١٠٥٤هـ / أبريل ١٦٤٤م.

[٤] تم الاعتماد في الإحصاء على سجلات محكمة الاسكندرية: س٤١،٤٠،٣٩،٣٣،٣١،٢٨،٢٥،٢٢،٢١،٦-٤٦، ٤٧، =

=

٤٨، ٥٦،٥٥،٥١،٥٠، ٧٨،٧٧،٧٣،٦٨،٦٥،٦٤،٦٣،٥٧ ، ١١١،١٠٩،١٠١،٩٥،٨٩،٨٨،٨١-١١٢مكرر-١١٥-١١٥مكرر-١١٨-١٢١-١٢٢. محكمة دمياط: س ١٨٦ ، ١٨٧، ٢١٨،٢٢٠، ٣٠٦، ٣٠٨. محكمة رشيد : س٦٤، ٦٦، ٦٩، 1089-000789. محاكم القاهرة: محكمة بابى سعادة وخرق: س1011-000106؛ محكمة باب الشعرية: س٦٣٥-٦٣٦-٦٣٧-٦٣٩. محكمة بولاق: س٦٤. محكمة الصالح: س ٣٤٩ ؛ بالإضافة إلى فهرس بطاقات الدار وبحر برا وديوان التجارة والمبيعات.

الثامن عشر[1]. كما أن ما أورته يختلف مع ما ذكره "محمد رفعت" بأن "دو مايه" عندما عاد إلى مصر عام ١٧١٩م مفتشاً عاماً لأساكل الليفانت قرر "أن الجالية الإنجليزية بمصر في ذلك الحين لم تكن تزيد على ثلاثة أشخاص يعيشون في بذخ ونعيم دون عمل كبير ثم أخذ عددهم يتضائل حتى توفي آخر تاجر إنجليزى عام ١٧٥٢م، ولم يبق بمصر سوى القنصل الإنجليزى" الذي طلب في عام ١٧٦٦م إعفاءه من منصبه، وتم غلق أبواب القنصلية وليضمحل النشاط الإنجليزى بمصر[2]. أما "جلال يحى" فذكر أنه قرب عام ١٦٩٦م - وهو الوقت الذي تم فيه تعين أحد القناصل في القاهرة- كانت الجالية الإنجليزية في القاهرة ممثلة في المدينة بما يقرب من عشرة تجار[3].

على كل لم يكن وجود الإنجليز في مدينة ما في مصر مثلما كان في الاسكندرية، والتي شكلت مركزاً لجذب أعداد كبيرة من الإنجليز، وقد احتلت الاسكندرية المرتبة الثانية بعد إستانبول كمقر رئيسى للتجار الأجانب ولممثلى الدول الأجنبية في الولايات الشرقية[4].

وقد اختلفت الآراء حول عدد البيوت والمحلات التجارية الإنجليزية في القاهرة والاسكندرية في عهد محمد على، فذكر بورنج أنه لم يكن في القاهرة في عام ١٨٣٩م أية مؤسسة تجارية بريطانية. أما الاسكندرية فكان عدد البيوت التجارية الإنجليزية بها في عهد محمد علي سبعة بيوت تجارية، ولم يكن بها عام ١٨٢١م سوى بريطانى واحد لتجارة القطن "صمويل برجز"[5].

البعثات التنصيرية

يمكن القول بأن أحداً من الإنجليز في مصر لم يُبد اهتماماً كبيراً بإدخال النفوذ الثقافي الإنجليزي في مصر، وكان اهتمامهم الرئيسى منصباً على التجارة وتطويرها[6]. أما التنصير/

---

[1] زينب الغنام: مرجع سابق، ص١٨٦.

[2] محمد رفعت رمضان: علي بك الكبير ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٠م، ص١٢٤.

وكذلك Charles – Roux , L'angleterre L'isthme De Suez Et L'Egypt , Librairie Plon ,Paris ,1922, P18.

[3] جلال يحى: تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة، ص٥٨٠.

[4] أرشيف رئاسة الوزراء: دفتر المهمة رقم١٠/٦٠، في: سيد محمد السيد: مرجع سابق، ص٤٣. كان الأوربيون يقيمون في الثغور وعلى وجه الخصوص في الاسكندرية بقصد التجارة وبيع السلع التي يجلبونها من الثغور الأوربية الواقعة على البحر المتوسط وكان بدء ترددهم في عهد ملوك الشراكسة. عمر لطفي: مرجع سابق، ص٢٠.

[5] ناهد زيان: مرجع سابق ، ص ١٣٢.

[6] جون مارلو: مرجع سابق ، ص٣٢.

التبشير فكان المجال الذي حظي باهتمامهم.

لقد أغمضت الدولة العثمانية عينيها في البداية عن النشاط التنصيري لأسباب منها أنه بدأ في أول الأمر في الربع الأول من القرن السابع عشر وكانت الدولة لا تزال قوية مهيبة الجانب، ولم يكن هناك خطر يتهدد أمنها الداخلي أو الخارجي، وكان نشاط المنصرين محدوداً وفي نطاق ضيق. لكن الموقف تغير بعد ذلك، إذ لم يعد النشاط التنصيري مقصوراً على الغرض الديني، بل أصبحت هذه البعثات أداة مرنة في يد الحكومات الأوروبية تعتمد عليها في بسط نفوذها السياسي والثقافي والديني على البلاد التي سيطرت عليها أو تطلعت لامتلاكها، وغدا النشاط التنصيري من أقوى الركائز الاستعمارية[1].

في البداية كانت هناك رحلات تنصيرية قليلة يقوم بها حفنة من الرهبان الذين كان يتم توجيههم عبر مصر إلى الحبشة[2]. ومع ذلك لم تخل مصر من الرهبان الأوروبيين. ففي القاهرة –وعلى حد ما ذكره بعض الرحالة- كان يوجد يسوعيون وكبوشيون وفرنسيسكان، وكلهم كانوا متحمسين للتبشير، وكثيراً ما تمكنوا من تحويل بعض المسيحيين الشرقيين إلى الكاثوليكية، وكان أصحاب الحل والعقد في الديوان لا يجدون سبباً يدفعهم إلى مناهضة المبشرين الأوروبيين. فالمنازعات التي كثيراً ما تنشب بين المتحولين إلى الكاثوليكية والمتمسكين بالكنيسة القبطية تتيح للباشوات فرصة تحصيل غرامات مالية مرتفعة من هذا الطرف مرة ومن الطرف الآخر مرة أخرى، بل إن الرهبان أنفسهم طالبوا أحياناً بدفع الغرامات التي يحكم بها عليهم[3].

ومع ذلك لا توجد أدلة وثائقية تصور النشاط الإنجليزي التنصيري بين المسلمين. ورغم عدم وجود نشاط تبشيرى بين المسلمين، فقد ظل الأمل في انجلتر قوياً لتحويلهم. تغير هذا الموقف في النصف الثاني من القرن السادس عشر، ربما بسبب الخوف من إسبانيا في عهد إليزابيث، حيث أن انشقاق انجلترا عن روما وتبنيها كنيسة وطنية، فصلها عن أوروبا الكاثوليكية ودفعها إلى إقامة روابط أقوى مع ألد أعداء إسبانيا والبابوية في حوض البحر المتوسط، وهى الدولة العثمانية، بالإضافة إلى خوفها من النشاط التبشيرى الكاثوليكى.

[1] عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ،مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١٠٢.

[2] آن وولف: مرجع سابق ، ص ٤٤.

[3] كارستن نيبور: رحله إلي بلاد العرب وما حولها (١٧٦١-١٧٦٧)، رحلة إلي مصر ، ج١، ترجمة: مصطفي ماهر، المطبعة العالمية، ص٢٤٤-٢٤٥.

كانت ثمة مبررات لهذا الخوف؛ فاليسوعيون والكبوشيون الفرنسيون كانوا في عصرهم الذهبى من حيث التبشير في البلاد الإسلامية[1]. ومع ازدياد المنافسة بين الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في نشر مذهبيهما وتحويل أقباط مصر ونصارى الحبشة عن المذهب الأرثوذكسى، فكثرت البعثات التبشيرية في الاتجاه إلى مصر والحبشة[2]. وقد وقد امتد نشاط المبشرين الإنجليز إلى مصر. ففي عام ١٦٦١م تم ترحيل "هنرى فل" Henry Fell و"جون اسطُبز John Stubs من القاهرة بمعرفة القنصل الإنجليزي، لأنهما كانا يحاولان تنصير المسلمين. وفي طريقهما إلى السفينة التي كانت ستقلهما من القاهرة أخذا ينثران منشورات كتبت "باللاتينية والعبرية والعربية". وقد قال القنصل "رتشارد بندش" Richard Bendish أنهما لو بقيا مدة أطول قليلاً لوجدا نفسيهما في مأزق، لأن الدولة العثمانية منعت الطباعة بالعربية لكيلا يساء إلى لغة القرآن[3]. وقد زادت أنشطة التبشير الأوربية في مصر في القرن الثامن عشر[4].

خلاصة القول أنه رغم اهتمام الإنجليز بالتنصير، فإن حظهم من النجاح كان قليلاً، بل وأخذ الاهتمام يتضاءل مع نهاية القرن السابع عشر لرغبة انجلترا في الحصول على مساعدة المسلمين ضد تيارات الإلحاد والإيمان العقلى المتزايد أشد من رغبتها في زعزعة الإسلام. ومع عشرينيات القرن التاسع عشر بدأت عملية الغزو التنصيري المُنظم لمصر وغيرها من دول المشرق. كان أول اتصال بين الإرساليات الإنجليزية وبين مصر في أعقاب هزيمة نابليون بونابرت في معركة "وترلو". ولقد ورد في أول تقرير إرسالية إنجليزية "أنه بعد سقوط نابليون أصبح البحر المتوسط مفتوحاً للنشاط التبشيرى". وبالفعل وصل المُنصر "وليم جويت" W.Jowett إلى مصر في عام ١٨١٩م موفداً من جانب "جمعية إرساليات الكنيسة الإنجليزية". قضى جويت في مصر بضعة شهور في عامي ١٨١٩ و١٨٢٠م ثم في عام ١٨٢٣م. وخلال هذه

[1] نبيل مطر: مرجع سابق ، ص١٦٨، ١٦٩.

[2] إسلام عاصم عبد الكريم بيومى: مصر في عيون الرحالة في العصر الحديث (١٥١٧-١٩٥٢م)، رسالة ماجستير، كلية السياحة والفنادق ، جامعة الاسكندرية ، ٢٠٠٩ ، ص ٦.

[3] نبيل مطر: مرجع سابق ، ص١٨١-١٨٢.

[4] محمد صبرى الدالى: مُسميات الأوربيين في المصادر التاريخية المصرية بين الوعي بالذات والوعي بالآخر من القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر، دراسة ضمن كتاب: فقهاء وفقراء إتجاهات فكرية وسياسية في مصر العثمانية ، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،٢٠١٠م، ص٣٥٠.

الفترة تعلم اللغة العربية وأخذ يمارس نشاطه التنصيري بتوزيع منشورات باللغة العربية، والتي كانت تدعو للدخول في المسيحية، وكانت تحت عنوان "البشائر الأربع"، كما أنشأ مجلة "الشرق والغرب" لسان حال كافة الإرساليات التنصيرية في مصر والشرق الإسلامي، وأنشأ مستشفي "هرمل" في منطقة "مصر القديمة" وهو المستشفي الذي سيتحول إلى مركز تنصيري خطير في مصر. ويقول ذات التقرير السابق "أنه في عام ١٨٢٥م وصل إلى مصر خمسة مرسلين، وقد مكنت الامتيازات الأجنبية الإرسالية الإنجليزية من الانتشار بسرعة، وممارسة نشاطها التنصيري تحت ستار أنها من الكنائس وتحتاج لإجراء التعديلات الداخلية فيها، وإعادة تعليم الإكليروس". ولقد كان هؤلاء الخمسة هم النواة الأولى لتأسيس الإرسالية الإنجليزية في مصر[١]. ورغم ذلك فإن اهتمام انجلترا بتنصير المسلمين في الشرق لم يعد إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢].

ومن أهم الإرساليات التي حضرت إلى مصر جمعية "الكنيسة الانجليكانية" The Church Missionary Society التي وفدت إلى مصر عام ١٨١٥م. غير أن عمل الإرسالية لم يبدأ إلا في سنة ١٨٢٦م وكان هدفها تعليم أقباط مصر. غير أن هذه الفكرة لم تنجح لمقاومة الأقباط لها، ومن ثم أغلقت المدرسة في عام ١٨٤٨م[٣]. وتعد هذه الجمعية من أهم الإرساليات الإنجليزية التابعة للكنيسة الإنجيلية، وقد امتد نشاطها إلى بلدان عديدة، فكانت أكثر الإرساليات البروتستانتية انتشاراً في العالم[٤].

ولقد أخذ نشاط المُنصرون الإنجليز يظهر بشكل ملفت في مصر منذ أن لجأوا إلى فتح المدارس، باعتبارها من أفضل الوسائل الإيجابية في العمل التنصيري، لجعلها مراكز لعملهم إذ ينجذب إليها الكافة. وإن كانوا قد بدأوا بعملهم الجاد بين الأقليات الدينية، وراحوا يركزون نشاطهم في البداية بين اليهود، وكان ذلك محاولة من جانب المُنصرون الإنجليز لجس النبض، ثم التحول إلى الهدف المنشود، وهو

---

[١] خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص٢٢، ٣٥، ٣٦.

[٢] نبيل مطر: مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨.

[٣] وكان لها في سنة ١٨٤٠م بالقاهرة ثلاث مدارس ومدرسة واحدة بالاسكندرية. سلوى العطار: التغييرات الاجتماعية في عهد محمد على، دار النهضة العربية، ط ١، ١٩٨٩م ، ص ٣٥٦.

[٤] ولقد كان هدف الإرساليات الإنجليزية نشر التعليم الأجنبى والديني بين أبناء البلاد بل وتحويل بعض الأقباط إلى المذهب البروتستانتى. ناهد زيان: مرجع سابق، ص٢٥٢. سلوى العطار: مرجع سابق، ص٣٥٦.

العمل بين المسلمين لتنصيرهم[1]. وكانت الامتيازات الأجنبية هي جواز المرور الشرعي لوفود الإرساليات التنصيرية، وأيضاً المظلة الشرعية التي مارست تحتها الإرساليات نشاطها التنصيري ضد الإسلام والمسلمين ليس في مصر وحدها، وإنما في كافة أقطار العالم الإسلامي[2].

دخول الإنجليز في الإسلام

لم يكن هناك أي إكراه على اعتناق الدين الإسلامي[3]، خاصة وقد حافظت الدولة العثمانية على مبدأ الحرية الدينية للأجانب[4]. لقد سمحت المعاهدات للإنجليز حرية اعتناق الإسلام بشرط أن يرد البضائع التي تحت يده

[1] خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص ٣٧.

[2] استمر نشاط الإرسالية الإنجليزية بعد محمد علي، وإن لم يتواصل أمام تنامي النشاط التنصيري الفرنسي، وبدأ حجم نشاط الإرسالية الإنجليزية في التراجع إلى أن صدرت تعليمات لندن بوقف نشاط الإرسالية الإنجليزية في مصر. وبالفعل أغلقت الإرسالية أبوابها رسمياً في مصر عام ١٨٦٢م، وستظل المحاولات التنصيرية الإنجليزية بعيداً عن عملها في مصر إلى أن تعود مرة أخرى عام ١٨٨٢م. خالد محمد نعيم: مرجع سابق، ص٣١، ٣٨.

[3] جوزيف بتس: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ، العدد ١٨٩، ١٩٩٥، ص٣٧.

[4] ليلى الصباغ : مرجع سابق، ص ٦٨٠.

ولا تخصه إلى أبناء جلدته[5]. وقد أفردت انجلترا في امتيازها لعام ١٦٧٥م بنوداً خاصة لمن يُسلم من رعاياها في الدولة العثمانية لتحفظ حقوق مواطنيها الذين كانوا يتعاملون معه تجارياً[6]. ونصت المادة ٦١ على أنه "إذا أسلم إنجليزي وثبت وتقرر أنه يملك عدا أمواله الخصوصية أموالاً أخرى تختص بأناس إنجليز، تؤخذ منه الأموال التي هى ملك سواه وتسلم للسفير أو للقنصل حتى يرجعها هؤلاء إلى مالكها الحقيقي"[7]. كما نصت المادة ٧١ على أنه "إذا جاء إنجليزي إلى ممالكنا المحروسة ببضائع وعند وصوله اعتنق الإسلام، ثم ثبت أن البضائع والأمتعة التي أتى بها هي ملك تجار من بلاده أخذها منهم، فتحجز كل البضائع والأموال النقدية وتسلم للسفير حتى يرسلها إلى المالك الحقيقي. ولا يسوغ لأحد من قضاتنا وضباطنا أن يبدي بشأن ذلك ممانعة أو معارضة"[8].

[5] زينب الغنام: مرجع سابق، ص٢٠.

[6] ليلى الصباغ: مرجع سابق، ص٦٧٣.

[7] Lewis Hertslet; op.cit, p. 366.

[8] يوسف آصاف: مرجع سابق: ص٨٥. ويذكر نبيل مطر سبب ذلك يرجع إلى أنه حدث في عام ١٦٧٣م أن شاباً إنجليزياً نهب شريكه الذي كان يحفظ الذهب لعدة تجار في لندن، ولكى يتجنب ملاحقة الإنجليز في إستانبول تحول للإسلام، وبذلك حمى نفسه =

وعلى كل هناك حالات لدخول الإنجليز في الإسلام لوقوعهم في الرق. من ذلك حالة مصطفي بن عبد الله "الإنجليزي الأصل، الجاري في رق عبد الجليل أغا الينكجرى من طايفة القابى قولي"[1]. وهناك حالات أخرى لإنجليز لم يكونوا واقعين في الرق، ودخلوا بمحض إرادتهم في الإسلام، مثل "جان النصرانى الإنجليزي" الذي طلب الدخول في الإسلام من غير إكراه له في ذلك، وكان ذلك بحضور باكير بلك باشى طايفة الينكجرية النوبتجية بالثغر، والسيد أحمد نقيب السادة الأشراف بالثغر، ومفتى المسلمين أبى عبد الله شمس الدين محمد وحسين أغا الحوالة.. وجمع كبير من الأعيان[2]. وفي عام ١٦٨٠م دخل "حزيقيا وير" Hezekiah Ware من لندن في الإسلام طوعاً أثناء وجوده في الاسكندرية[3]. ولم يكن المتحولون إلى الإسلام من الإنجليز من الطبقات الدنيا، بل بعض الحالات لأشخاص من ذوي المكانة. ومن هنا شاع أن "بنجامين بشوب" كان قد عين قنصلاً في مصر عام ١٦٠٦م، وبعدها اعتنق الإسلام[4].

كما نصت معاهدات الامتياز بين الدولة العثمانية وانجلترا على إطلاق سراح الأسرى الإنجليز. فقد نصت المادة ١٢ من معاهدة ١٥٨٠م على أنه "إذا وجد إنجليزي أو أحد من رعايا دولة انجلترا أسيراً في ممالكنا المحروسة وأعلن عنه السفير أو القنصل، يفحص ويفتش

=

بالشريعة الإسلامية التي لم تكن تقبل شهادة غير مسلم على مسلم. ومع أنه اقنع في النهاية بالعودة إلى انجلترا والمسيحية، فإن الدوائر الإنجليزية كانت تخشى تكرار مثل هذه الواقعة. ومن جراء ذلك فإن سفير انجلترا في إستانبول أضاف في سنة ١٦٧٥م مواداً جديدة إلى المعاهدة بين انجلترا والباب العالي للتقليل من أضرار مثل هذه التحولات. نبيل مطر:مرجع سابق، ص٦٣.

[1] محكمة الاسكندرية: س٥١، م ١٤٤٩، ص٦١٨، ٩ ذي القعده ١٠٧٧هـ/ أبريل ١٦٦٦. ويبدو أنه منذ أول زيارة مدونة دخل فيها إنجليزى الدولة العثمانية، وهو "أنتونى جنكنسن" Antony Jenkinson عام ١٥٥٣م، كان في البحر المتوسط تجار وبحارة إنجليز وقع بعضهم في أيدى المسلمين وتحولوا إلى الإسلام، ومع أنه لم تصلنا أعداد هؤلاء أو أسماؤهم فإن مبلغ الأربعة آلاف جنيه الذي أُنفق لافتداء هؤلاء الرعايا يدل على أن المجموعة كانت كبيرة. وفي يناير ١٥٨٤م جمعت أموال في لندن لافتداء ستين أسيراً إنجليزياً عند المسلمين. نبيل مطر: مرجع سابق، ص١٩.

[2] محكمة الاسكندرية: س٤٨ ، م ٦٥٩ مكرر، ص٢٧٩، ٤ شعبان ١٠٤٩هـ/نوفمبر ١٦٣٩م. كود أرشيفي : 1029-00126.

[3] وفي عام ١٦٢٢م أفاد توماس رو سفير انجلترا في إستانبول أن إنجليزيين تحولا للإسلام. نبيل مطر: مرجع سابق، ص٥٤، ٥٧.

[4] نبيل مطر: مرجع سابق ، ص ٦٠.

عن سبب وجود ذاك الشخص في تلك الحالة، وإذا ثبت أنه إنجليزي يطلق للحال سراحه ويسلم للسفير أو القنصل"[1].

مشاركة الإنجليز في وقف الصادر

اعتمد "وقف الصادر" على أمرين، الأول: ما أوقفه صلاح الدين الأيوبى، والثاني : وهو ما يهمنا - وخصصه صلاح الدين أيضاً- وتمثل فيما "يؤخذ من النصارى الإفرنج الحربيون الواردين إلى الثغر" أو "من عوائد مراكب النصارى الواردين على الثغر" لمصلحة "الأشراف والعلماء والفقهاء والمدرسين والصلحاء والمساجد والزوايا ومقامات الأولياء". وقد أقرت الدولة العثمانية "الصادر" كما وجدته مع أنه قد يتعارض مع الامتيازات[2]. وقد شارك الإنجليز في ذلك الوقف بدفع الرسوم عن البضائع التي يحملونها، مثل ما تحصل من إدخالات قنصل الإنجليز عام ١١٣٦هـ/١٧٢٣م[3] وكذلك مما تحصل من إدخالات التجار الإنجليز إلى مصر[4].

---

[1] يوسف آصاف: المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوربية ، ص ٦٤-٦٥.

قام صلاح الدين الأيوبى في عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م برصد إيراداته كاملة على فئة اجتماعية محددة، وهي فقهاء وفقراء الثغر السكندرى، وأصبح وقف السلطان صلاح الدين يُعرف في العصر العثماني "بوقف الصادر". وترجع كلمة الصادر إلى أن أهم إيرادات الوقف كانت تتعلق "بجمرك الصادر" القائم على تحصيل الرسوم المقررة على البضائع المصدرة من ميناء الاسكندرية، وهو ما جرى تعريفه في العصر الأيوبى والمملوكى بـ "صادر الفرنج" كما عُرف بـ "صادر الخمس" حيث أن التجار الفرنج كانوا يدفعون خمس قيمة البضائع التي كانوا يحملونها. ناصر أحمد إبراهيم: صادر الفقهاء والفقراء بالثغر السكندرى في القرن الثامن عشر "وقفية صلاح الدين الأيوبى"، مجلة الروزنامة، عدد ٤ ، ٢٠٠٦م، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ٢٠٠٧م ، ص١٩٦-١٩٧.

[2] محمد صبرى الدالى: الأوربيون في الاسكندرية العثمانية بين التعايش والخلافات، ص ٢٤٩-٢٥٠.

[3] دفتر مبارك إن شاء الله تعالى سطر بالإذن من حضرة سيدنا ومولانا فخر قضاة الإسلام مولانا "مصطفي" أفندى الحنفي الناظر يومئذ في الأحكام الشرعية والأمور الدينية والتعلقات السلطانية بثغر الاسكندرية، مضمونه: وقف الصادر بديوان الثغر المرقوم من وقف السلطان صلاح الدين أيوب طاب ثراه على مستحقين ومستأجرو زوايا بالثغر على إدخالات واخراجات مما يتحصل من أرزاق طايفة الفرنسيين والإنجليز والفلمنك النازلين بالثغر من قماش وكتان وجلود وقطن وعصفر، ويصرف مما يتحصل منهم علي مستحقين وأرباب وظائف لجهة الميرى إلى الوزير الأعظم القاطن بمحروسة مصر في كل سنة وعوايد مولانا أفندى المذكور أعلاه وحوالا أغاسي وكتبا من ابتدأ شهر توت سنة ١١٣٥هـ/ سبتمبر ١٧٢٢م الواقع في سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م؛ الإدخالات في سنة ١١٣٥هـ من قنصل الإنجليز ٣٣٩. م الاسكندرية: س ٦٨، م٩٧، ص٦٥، ١١٣٦هـ/١٧٢٣م.

[4] مما تحصل من إدخالات قنصل الإنجليز ٨٩٦ ، ومن جمرك الإنجليز ٩٦٠. س٦٨ ، م ١٦١ ، ص ١٠٥، محرم ١١٣٨هـ / سبتمبر ١٧٢٥م.

الرحالة الإنجليز ورؤيتهم لمصر

قدم إلى مصر العديد من الرحالة الإنجليز خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر[1]. وقبل الاحتلال الفرنسي اهتم بمصر مجموعة صغيرة من الرحالة غير المنتظمين الذين كانوا يمرون بها، وفي الغالب الأعم لا يتوقفون عندها. ففي معظم الأحيان لم يقم أولئك الرحالة بزيارة لمصر لنفسها وإنما مروا بها في طريقهم إلى الهند كتجار، أو جنود أو موظفين في خدمة شركة الهند الشرقية أو في طريقهم إلى مجاهل أفريقيا، تدفعهم روح الاكتشاف التي نمت مع نهاية القرن الثامن عشر[2]. ولقد جذب الاحتلال الفرنسي لمصر أنظار الإنجليز بوجه خاص والأوروبيين بوجه عام إلى مصر، ولم يعد مجرد الفضول أو حب الطرافة الذي يحرك اهتمام الإنجليز بمصر، إذ ازدادت مصر أهمية نتيجة لموقعها الاستراتيجي الذي بدأ كما لو كان كشفاً جديداً، فنادى بعض الإنجليز بضرورة احتلال مصر[3].

وإذا كنا في القرن السابع عشر لا نعلم سوى الرحالة جورج سانديز (١٥٧٨-١٦٤٤م) الذي تسلق هرم الجيزة عام ١٦١١م، وعرض ألواناً من تقاليد أهلها وعاداتهم وتاريخهم ضمن كتابه ذى الأجزاء الأربعة عن رحلته إلى تركيا وفلسطين ومصر وإيطاليا.. ففي العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر، فاق عدد الإنجليز الذين زاروا مصر عدد من زاروها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، وذلك لسببين: أولهما انتهاء حروب نابليون التي حجزت الرحالة الإنجليز خلال العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، وثانيهما: استقرار الظروف السياسية في مصر بعد اعتلاء محمد علي عرشها وأصبح الرحالة يشعرون بالأمان أكثر من ذى قبل، فلم يعد هناك خوف من أن تصادر السلطات أملاكهم أو يتعرضوا للإهانة كما كان يحدث في عصر المماليك، حتى كتب أحد الرحالة في عام ١٨١٧م "يستطيع السائح أن يمضى حاملاً نقوده معه من أدنى البلاد إلى أقصاها دون أن يتصدى له لص ويستولى على ما معه قهراً، كما اختفت جريمة القتل ولم يعد لها أثر"[4]. ولذلك زار مصر رجال على كل شاكلة من ضباط في جيش الهند ليقضوا أجازتهم

---

[1] محمد أنيس: النشاط الأوروبى ، ص ١٢١.

[2] رشاد رشدى: مرجع سابق ، ص ٢١.

[3] المرجع السابق، ص ٢٥.

[4] ثروت عكاشة: مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٩٠، ٢٩٧.

فيها، ورجال بحرية متقاعدون، ومغامرون وشباب أثرياء، وصحفيون ودبلوماسيون وأعضاء برلمان، وطبع بين أعوام ١٨٠٥-١٨٢٠م ما يربو على ٣٥ كتاباً من أدب الرحلات عن مصر[١].

ومن الممكن تقسيم الرحالة الإنجليز إلى ثلاثة أنواع:

الرحالة العابرون: وهم ممن خدموا شركة الهند الشرقية ومن التجار الذين كانوا يعملون بترخيص من الشركة، وغيرهم ممن زار مصر في طريقه إلى الهند البريطانية أو العكس، مثل "جيمس كابر" Capper.J الذي كان في خدمة شركة الهند الشرقية، ومن أكثر الإنجليز خبرة بأحوال الطرق البرية الموصلة بين أوروبا والهند[٢]، والكتاب الذى وضعه هام لأنه يتناول دراسة طرق المواصلات عبر مصر في ذلك الوقت[٣].وهناك الرحالة "إروين" Irwin, E الذى كان في خدمة شركة الهند الشرقية، وخرج من الهند في طريقه إلى انجلترا ومعه بعض المراسلات الرسمية، واضطر للنزول في القصير متخذاً طريق القصير قنا، ثم شمالاً حتى القاهرة فالاسكندرية عام ١٧٧٧م[٤]. وكليجهورن Cleghorn,H الذي وصل الاسكندرية في منتصف عام ١٧٩٥م في طريقه إلى سيلان بتكليف من هنرى دنداس، وكان على اتصال قوي بجورج بلدوين وكارلو روسيتى، وعن طريقهما بدأ يهتم بالتجارة الإنجليزية مع مصر ومشروع المواصلات بين الهند الإنجليزية ولندن عن طريق البحر الأحمر ومصر، وكانت له عدة اقتراحات في هذا الصدد أرسلها إلى هنرى دنداس Cleghorn Papers London 1925. [٥] وهناك السيدة "فاى" Fay.E التي سافرت من انجلترا إلى الهند عن طريق مصر في عام ١٧٧٨م وكتبت مذكرات عن مشاهداتها في الاسكندرية والقاهرة والسويس بعنوان Letters From India. 1925. وهناك التاجر "بارسونز" Parsons, A الذي زار مصر عام ١٧٧٨م في طريقه من الهند إلى انجلترا، وتناول في كتابه وصف بعض مشاهداته في مصر، وكلها تتعلق بعادات المصريين وحياتهم بوجه عام، كما

---

[١] رشاد رشدى : مرجع سابق، ص ٣٣.

[٢] محمد أنيس : النشاط الاوروبى ، ص ١٢٤-١٢٦.

[٣] James Capper, Observations On The Passage To India Through Egypt.London 1785.

[٤] Irwin, E; A Series Of Adventures In The Course Of A voyage Up The red Sea On The Coasts Of Arabia And Egypt, J. Dodsley,Pall-Mall, London, 1780, P116-130.

[٥] محمد أنيس : النشاط الاوروبى، ص ١٢٤-١٢٥.

تصورها[1]. وهناك هنرى روك Rooke, H. الذي كان في خدمة شركة الهند الشرقية، ووصل إلى مصر عام 1782م في طريقه من الهند إلى انجلترا. والكتاب الذى وضعه عبارة عن مجموعة من الرسائل(بلغ عددهم ثلاثة عشر رسالة) ،وهو مهم لأنه تناول أحوال الثغور الإسلامية على ساحل البحر الأحمر،وخصص من الرسالة التاسعة إلى الثانية عشر للحديث عن مصر وبالتحديد مدينة القاهرة والاسكندرية ورشيد ،بالإضافة إلى الحديث عن أحوال التجار الإنجليز فى مصر ومعاملة الحكومة السيئة لهم [2]. وهناك لوسنيان Lusignan,s الذي كان تاجراً معاصراً لجيمس بروس، خدم على بك الكبير، واستمر ملازماً له حتى وفاته حين ترك الليفانت ورحل إلى انجلترا، وتناول في كتابه وقائع ثورة على بك الكبير، وإن كان من المفروض قراءة كتاباته بحذر لأنه لم يكن دقيقاً في فحص ما سمعه، ثم أنه نشر كتابه بعد عشر سنوات من نهاية الثورة دون أن تكون معه مذكراته الخاصة التي تركها في الشام إبان فراره، ولذا خانته ذاكرته كثيراً في أسماء الأشخاص والبلدان وفي ترتيب الحوادث[3].

ومنهم من قدم بهدف الحج، مثل جوزيف بتس الذي زار مصر عام ١٦٨٠م وهو أول إنجليزي في التاريخ الحديث يزور مكة المكرمة، كما أنه أول رحالة في التاريخ الحديث يصف طريق الحج الغربي من بلاد المغرب مروراً بمصر حتى يصلوا إلى الديار المقدسة. وقد وقع في أسر أحد البحارة الجزائريين فاتخذه عبداً ثم اصطحبه ليحج معه إلى مكة المكرمة وسلك بتس مع سيده طريقاً بحرياً إلى الاسكندرية فرشيد، ثم أبحر في النيل إلى القاهرة، ومنها إلى مكة. وبعد أداء الحج عاد إلى القاهرة وأصيب بالطاعون في الاسكندرية، لكنه شفي في الجزائر. وقد صدرت الترجمة العربية لرحلته بعنوان: رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة[4].

المستكشفون الجغرافيون: ويمكن أن نطلق عليهم أيضاً الرحالة العابرون، لأن مقصدهم كان الاكتشافات الجغرافية في المناطق الأفريقية جنوب شرق مصر والحبشة، وهم

[1] المرجع السابق: ص ١٢٤-١٢٥.

[2] Henry Rooke,Travels To The Coast Of Arabia Felix, And Frome Thence , by The Red Sea And Egypt , To Europe, R.Blamire, London, P75-115.

[3] محمد أنيس : النشاط اللاوروبى، ص ١٢٥-١٢٦.

[4] جوزيف بتس: مرجع سابق ، ص٧-٨.

أيضاً يمثلون اتجاهاً جديداً للنشاط الإنجليزي حول مصر في أواخر القرن الثامن عشر، يسنده ويشجعه نشاط "الجمعية البريطانية لاكتشاف أواسط أفريقية، وهى الجمعية التي تكونت في ٩ يونية ١٧٨٨م برئاسة Lord Rawdon.[١] وقد سافر الرحالة السويسرى "يوهان لودفيج بوركهارت" إلى انجلترا عام ١٨٠٦م ، حيث درس اللغة العربية والعلوم الطبيعية في جامعة كمبردج استعداداً للذهاب في رحلة إلى الشرق وأواسط أفريقيا بتكليف من "الجمعية الأفريقية البريطانية" ووصل القاهرة عام ١٨١٢م، وتمكن من مقابلة محمد علي باشا الذي أعجب به وأمده بالتوصيات اللازمة للقيام برحلة إلى النوبة، ثم غادر مصر عام ١٨١٣م، وكانت له العديد من المؤلفات نشرتها الجمعية الأفريقية البريطانية مثل Travels In Nubia.[٢] وهناك الرحالة الاسكتلندى "جيمس بروس" J.Bruce الذي وصل الاسكندرية في صيف عام ١٧٦٨م، ثم تابع رحلاته في البحر الأحمر والحبشة وعاد إلى مصر، واستغرقت هذه الرحلات أربع سنوات تقريباً (١٧٦٩-١٧٧٣م)، ووضع كتاباً بعنوان: Travels to Discover the Source of the Nile, Edinburgh, 1799.[٣] وهناك جورج وليم براون W.G. Browne وهو من أشهر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر وكتبوا عنها. لقد نزل مصر عام ١٧٩٢م وهو في طريقه لاستكشاف الحبشة، لكنه لم يستطع أن يتقدم أبعد من دارفور، فعاش في مصر ست سنوات درس خلالها اللغة العربية وعادات المصريين وأخلاقهم، ويعتبر براون -دون جميع الرحالة الإنجليز في ذلك الوقت- أصدقهم وأكثرهم أمانة وميلاً إلى الشرقيين[٤].وتناول فى كتابه الحديث عن مصر بالتفصيل فخصص أربعة فصول للحديث عن القاهرة ،وتحدث فى فصل أخر عن الاسكندرية ، وأخر سيوة والقصير ،كما تحدث عن سيناء ، والطريق من الاسكندرية إلى رشيد ،وأفرد فصل تحدث فيه عن الصعيد[٥]. وهناك ريتشارد بوكوك الذي زار مصر عام ١٧٣٧م وألف كتاباً بعنوان "رحلة للشرق وبلاد أخرى". وقد جاء عن طريق الاسكندرية وقصد رشيد لزيارة البطريرك

---

[١] محمد أنيس: مرجع سابق، ص ١٢٦.

[٢] إسلام عاصم عبد الكريم بيومى: مرجع سابق، ص٦٦.

[٣] جون أنتس: مرجع سابق ، ص١٣، محمد أنيس: النشاط الأوروبى، ص ١٢٤.

[٤] رشاد رشدى: مرجع سابق، ص٢٣. محمد أنيس : النشاط الأوروبى ، ص ١٢٣.

[٥] W.G.Browne,Travels in Africa ,Egypt and Syria, from 1792 to 1798, London 1799.

"كوسماس" وتعرَّف إلى كبار المسلمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليك من رهبان الفرنسيسكان، وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الإنجليز، وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى ثم قصد القاهرة، وقضى فيها أياماً لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها، وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلى وآثاره[١].

السياح: وهناك من الإنجليز من جاءوا مصر بهدف القيام برحلات سياحية. وفي هذا الإطار نعثر على العديد من التصاريح التى أعطيت للسياح الإنجليز، للقيام بالسياحة فى مصر[٢].مثل التصريح للخواجة بيلى الإنجليزى ورفقائه بالطواف فى النيل[٣]، وكذلك تصريح مرور للسائح الإنجليزى "سكوت" بالسياحة فى النيل إلى وادى حلفا[٤]. والتصريح للسائح "دوهما" أحد أشراف الإنجليز، وكذلك للخواجا "بلكسوته" والخواجا "ويت" بالتفرج على أقاليم الصعيد إلى وادى حلفا[٥]. والتصريح للبارون "رمبولت" صهر الأميرال "سمث" أميرال الأسطول الإنجليزى، الذى سيحضر وعائلته من الهند إلى القصير للتفرج على اقاليم الصعيد.[٦]وكذلك التصريح الذى حصل عليه القبودان"جيمس فوردون" الإنجليزى بالتفرج على أقاليم الصعيد لغاية سنار [٧]. وايضاً التصريح الذى حصل عليه الخواجا"وسكر" بالسفر إلى سنار لمشاهدة الأقاليم الواقعة

---

[١] عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥ م جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م ، ص ٢١٥.

[٢] فهرس بطاقات الدار: درج ٣٧٢ سياحة ،دفتر ٩ معية تركى ، م٢٠٤،بتاريخ: ١٠ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/ نوفمبر ١٨٢١م."أمر من المعية السنية إلى الحكام والمحافظين، بالتصريح بمرور طائفة السياح الإنجليز وعبورهم من طرفكم عند توجههم إلى الشام" ؛نفسه :م ٤٤٧ ، بتاريخ :٢٢ رجب ١٢٣٧هـ/مارس ١٨٢٢م.

[٣] فهرس بطاقات الدار: درج ٣٧٢ سياحة ،دفتر ٣ معية تركى ، م١٢٦ ،بتاريخ: ١١ محرم ١٢٣٤هـ/اكتوبر ١٨١٨م.

[٤] نفسه : درج ٣٧٢ سياحة ،دفتر ٦ معية تركى ، م١٩١ ،بتاريخ: ٢١ جمادى الأولى ١٢٣٦هـ/فبراير ١٨٢١م؛ "كذلك تصريح مرور للخواجا "بارونت" السائح تابع انجلترا ولخادميه بالسياحة فى النيل لغاية وادى حلفا براً وبحراً" نفسه : م ١٧٨ ، بتاريخ:١٢ جمادى الأولى ١٢٣٦هـ/فبراير ١٨٢١م.

[٥] فهرس بطاقات الدار: درج ٣٧٢، دفتر ٩ معية تركى، م ٢٧٣ ،بتاريخ:١٤ ربيع الأخر ١٢٣٧هـ/ديسمبر ١٨٢١م ؛كذلك التصريح لثلاثة سواح إنجليز بالتفرج على النيل لغاية وادى حلفا" نفسه : م ٣٣٣ ،بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٢٣٧هـ/ يناير ١٨٢٢م.

[٦] نفسه : دفتر ٦ معية تركى ،م ١٥٩ ،بتاريخ: ٢١ ربيع الثانى ١٢٣٦هـ/يناير ١٨٢١م.

[٧] نفسه :دفتر ٩ معية تركى ،م ٥٣٩،بتاريخ:١٧شعبان ١٢٣٧هـ/أبريل ١٨٢٢م.

على طول النيل بالصعيد"[1]. والتصريح للسائح "بورتون الإنجليزى" بالسفر إلى الأقاليم الصعيدية[2]، وكذلك السائح "جون جنين" [3]. وللورد "سنتاسف" من أشراف الإنجليز وربان سفينته برؤية الأهرامات[4]. كذلك التماس قنصل انجلترا، بالتصريح للسائح "لينان ورفقائه الخمسة" بالسياحة لغاية سنار[5]، وكذلك للسائح "لينو الإنجليزى"[6]. وهناك من الإنجليز من قدموا إلى مصر للعبور منها إلى الهند مثل التصريح الذى حصل عليه الخواجا "ماثرور ويندام "الإنجليزى بالسفر، ومعه خادماه إلى الهند عن طريق السويس وجدة "[7]، وكان محمد على يصدر الأوامر إلى حكام الأقاليم ومشايخ العربان، بمساعدة السياح الإنجليز وحمايتهم[8]. مثل الأمر العام الذى أصدره محمد على بشأن مساعدة السائحين الإنجليزيين "جون والفريد سور" الذاهبين إلى جده ومنها إلى الهند[9]. وكذلك أمره إلى شيوخ العربان "بالتوصية بالمستر بلان السائح الإنجليزى ومن معه أثناء تجواله فى نواحى الطور" [10].

وكذلك بعض الالتماسات التي قدمت إلى الإدارة العثمانية فى إستانبول من أجل السياحة فى مصر؛ ومنها الالتماس المقدم من الطبيب الإنجليزي "تشارلز بيرى" Charles Perry إلى الإدارة العثمانية في جماد أول ١١٥١هـ/أغسطس ١٧٣٨م يطلب فيه القيام

---

[1] نفسه :دفتر ١٧ معية تركى ،م ٦٧٠، بتاريخ: ١٢ ربيع الأخر ١٢٣٩هـ/ ديسمبر ١٨٢٣م.

[2] نفسه :دفتر ١٧ معية تركى ،م ٦٦٤، بتاريخ: ٤ شعبان ١٢٣٩هـ/ أبريل ١٨٢٤م.

[3] نفسه :دفتر ٩ معية تركى ،م ١٧٨ ، بتاريخ : ١٨ صفر ١٢٣٧هـ/ اكتوبر ١٨٢١م.

[4] نفسه :دفتر ١٨ معية تركى ، مكاتبة إلى البك الكتخدا بتاريخ :٦ ربيع الثانى ١٢٤٠هـ/نوفمبر ١٨٢٤م.

[5] نفسه : دفتر ٢٠ معية تركى ،م ١٧٩-١٨٠، مكاتبة من المعية إلى البك الكتخدا بتاريخ صفر ١٢٤١هـ/ سبتمبر ١٨٢٥م. وكذلك مكاتبة من المعية إلى حاكم جرجا ، نفسه : م ١٨١.

[6] نفسه :دفتر ١٩ معية تركى ،م ٢٨٨ ، بتاريخ : ١٩ ربيع الثانى ١٢٤١هـ/نوفمبر ١٨٢٥م.

[7] نفسه :دفتر ٩ معية تركى ،م ٦٦٦،بتاريخ:٦ القعدة ١٢٣٧هـ/يوليه ١٨٢٢م.

[8] نفسه :دفتر ٩ معية تركى ،م ٤٤٧،بتاريخ :٢٢ رجب ١٢٣٧هـ/مارس ١٨٢٢م؛ نفسه: م ٢٧٢-٢٧٦، بتاريخ:١٤ ربيع الأخر ١٢٣٧هـ/ديسمبر ١٨٢١م؛ نفسه : دفتر ٢٤ معية تركى ،م ٢٣٤ ، منشور إلى حكام البنادر من قنا إلى القصير بتاريخ ٣٠ رمضان ١٢٤١هـ/ أبريل ١٨٢٥م؛ نفسه : م ٤١٨ ، بتاريخ : ١٥ القعدة ١٢٤١هـ/يونيه ١٨٢٥م، براءة من الجناب العالى باسم "مادن" من حكماء انجلترا مع خادم له بالموافقة على ذهابه لغاية وادى حلفا للتنزه ،ودعوة الحكام والنظار وكافة الموظفين بحمايته ومعاونته.

[9] فهرس بطاقات الدار: درج ٣٧٢، دفتر ٢٥ معية تركى ،م ١١٨، أمر من الجناب العالى بتاريخ : ٢٥ الحجة ١٢٤١هـ/ يوليه ١٨٢٥م.

[10] نفسه : دفتر ١٩ معية تركى ،م ٣٠ ،ص ٥ ، بتاريخ: ٢١ شعبان ١٢٤٠هـ/مارس ١٨٢٥م.

برحلات سياحية نواحى مناطق (القاهرة- يافا- القدس- الشام) والرجاء منحه تصريحاً للمرور من هذه المناطق وحمايته فيها. وهناك التماس قدم من السفير الإنجليزي في أدرنه "الكسندر ستراتون" Alexander Stratton في ٢٣ رمضان ١٢١٧هـ/ديسمبر ١٨٠٢م، طلب فيه الإذن لمرور الإنجليزي Miler Blunter للقيام برحلات استكشافية مع ثلاث مساعدين له في (مصر-آثينا -أزمير- المورة)[1]. وهناك رسالة من السفير الإنجليزي العام "روبرت" Robert في ١٠ جمادى الآخر ١٢٢٥هـ/ يوليه ١٨١٠م تتعلق بطلب تصريح مرور وتسهيل مهمة أحد الإنجليز، وهو أحد بكواتها ويدعى "وليم ماير" William Mayer في القيام برحلة داخل بعض الولايات العربية دون اعتراض من أحد، على أن تكون الرحلة من إستانبول إلى (مصر- الشام- جزر البحر المتوسط- أزمير- البوسنة) ويشمل هذا التصريح خطاب أمان له من إدارات هذه الولايات للحفاظ عليه. كما أن هناك التماساً قدمه سفير انجلترا Mr.Ferris في ٧ ذى الحجة ١٢٣٥هـ/سبتمبر ١٨٢٠م طلب فيه منح أحد بكوات انجلترا وثلاثة مساعدين له، تصريح مرور للقيام برحلات استكشافية داخل أراضى الدولة العثمانية في المناطق (مصر-فلسطين-طرابلس الشام-قبرص-رودس) والرجاء تسهيل مهمته والعمل على حمايته خلال رحلته. هذا بالإضافة إلى التماس من السفير الإنجليزي Strange Ford في ٢٩ محرم ١٢٣٩هـ/سبتمبر ١٨٢٣م لطلب منح تصريح مرور ومساعدة طريق (مصروفات طريق) لأحد بكوات انجلترا، الذي سيقوم برحلات استكشافية في (مصر- الأناضول- الروملى- سوريا)[2].

الرحالة المستقرون: وهؤلاء كانوا إما تجاراً في شركة الليفانت، أو أفراداً في مناصب رسمية كالقناصل أو خدمة تبشيرية، أو بحاثون ومحبون للآثار . ومن هؤلاء الرحالة جون أنتس Antes الذي ولد عام ١٧٤١م من والدين ألمانيين، وقيل إن والده تجنس بالجنسية الإنجليزية. التحق بالبعثة التبشيرية المورافية والتي دعته إلى السفر إلى القاهرة، فوصلها قي عام ١٧٧٠م وأراد أن يلتحق بالرحلة التي كان يعد لها جيمس بروس للتبشير في الحبشة. لكن مشروع التبشير في الحبشة لم ينفذ لعودة بروس نفسه ، فاستقر أنتس في

[1] أحمد سالم: الرحلات الأوربية وتأثيراتها على المنطقة والجزيرة العربية "دراسة من الوثائق العثمانية- الأهداف والنتائج"، د.ت.ط، ص٦.

[2] أحمد سالم: مرجع سابق، ص٧-٨.

مصر، وقام ببعض الدعاية التبشيرية في البهنسا بين الأقباط دون نجاح ظاهر. ثم رحل عن مصر في ٢٦ يناير ١٧٨٢م. وقد فقد أنتس مذكراته أثناء رحلة العودة، ولم يشرع في كتابة مؤلفه عن المصريين إلا عندما بلغ الستين من عمره، أى في عام ١٧٩٩م. وقد وضع كتاباً بعنوان "Observations On The Manners And Customs Of The Egyptians." ترجم للعربية تحت عنوان "مذكرات رحالة عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ١٧٧٠-١٧٨٢"[1]. ومنهم "جورج بلدوين" Baldwin الذي كان تاجراً من تجار شركة الليفانت في قبرص وعكا في الفترة من (١٧٦٠-١٧٦٦م). وفي عام ١٧٧١م خلف جورج بلدوين أخاه "وليم" William في منصب القنصلية الإنجليزية في قبرص. وفي مارس ١٧٧٣م استقال من منصبه، وأخذ يهتم بإحياء التجارة الإنجليزية مع مصر وبمشروع إحياء الطريق البرى عبر مصر. كان عميلاً لشركة الهند الشرقية فيما بين عامى (١٧٧٥-١٧٧٩م)، كما عمل باعتباره قنصل انجلترا العام في القاهرة بين أعوام ١٧٨٦ و١٧٩٥م حين وصله خطاب وزير الخارجية Grenville الذي قرر فصله من القنصلية وإغلاق القنصلية الإنجليزية في القاهرة. لكن بلدوين غادر مصر عام ١٧٩٨م قبيل وصول الاحتلال الفرنسي، حيث وصل البندقية وظل في إيطاليا حتى التحق - وهو في مالطة في ديسمبر ١٨٠٠م- بالحملة الإنجليزية الموجهة إلى مصر بناء على طلب Lord Keith وظل مع الحملة حتى وفاة القائد الإنجليزي Abercromby حين رجع بلدوين إلى لندن[2]. وعلى كل فإن بلدوين من الشخصيات الغامضة التي يختلف المؤرخون في تقديرها وتقدير الدور الذي قام به في النشاط الإنجليزي الخاص بمصر أواخر القرن الثامن عشر. وقد ألف كتاباً بعنوان Narrative of Facts to the Plunder of the English Merchants by the Arabs. نشر هذا الكتيب عام ١٧٨٠ أو ١٧٨١م. وفيه تناول بلدوين بالتفصيل قصة هجوم عرب الصحراء الشرقية على القافلة الإنجليزية بين السويس والقاهرة صيف عام ١٧٧٨م واتهم كارلو روسيتى Carlo Rosetti التاجر البندقي بأنه كان المحرض على هذه المؤامرة.كما كتب بلدوين تقريراً صغيراً عن أحوال تجارة الرقيق الأبيض

[1] جون انتيس: مرجع سابق ، ص ١٦-١٧.

[2] محمد أنيس: مرجع سابق، ص١٢٣.

(المماليك وتجارة العبيد في مصر) بعنوان: .Slave Trade In Egypt . Alexandria 1790 كما ألف كتاباً بعنوان Political Recollections .Relative to Egyp, London 1801 والكتاب فيما يبدو كُتب على عجل، فهو ردىء الأسلوب والتنظيم ، وأغلبه يشمل التقرير الذي قدمه بلدوين "لهنرى دنداس H. Dundas أواخر عام ١٧٨٥م، مضافاً إليه نبذه عن نشاطه في مصر بين أعوام ١٧٩٥ و١٧٩٨م، وعن الحملة الإنجليزية على مصر لإخراج الفرنسيين، ورأي بلدوين في حل المسألة المصرية[1]. وهناك "جون جاردنر ولكنسون" أحد كبار الأثريين. وصل مصر في عام ١٨٢١م وأمضى اثنا عشر عاماً بالقاهرة وشتى مناطق البلاد، واستطاع اكتشاف عدد من مقابر طيبة. هذا بالإضافة إلى الإنجليزي الشهير "ادوارد وليم لين" الذي وصل مصر في عام ١٨٢٥م واستأجر بيتاً بعيداً عن الحي الأوربى باسم منصور أفندي، ولم يقتصر بحثه على الأدب المصري فحسب، بل على كل مظاهر الحياة في مصر إبان عصره[2].

وعند البعض أن الرحالة الإنجليزي كان ينظر إلى الشعوب الأخرى بحذر أن يقرب من أهلها مخافة أن يناله من هذا القرب سوء أو أن يلحقه ما يلّوثه، وإذا عرض لوصف المواقف الشرقية وصفها في سخرية لاذعة وتهكم، كما فعل الرحالة ولسون في عام ١٨٢٣م في وصفه لموكب زفاف بالقاهرة، كما كانوا ينظرون إلى الشرق عامة ومصر خاصة نظرة تعالى وازدراء[3]. وعلى كل فإن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة خاصة في ظل العلاقة بين الاستشراق والعلاقات والمصالح السياسية والاقتصادية.

---

[1] محمد أنيس: مرجع سابق، ص١٢٢، ١٢٣.

[2] ثروت عكاشة: مرجع سابق، ص٢٩٩، ٣٢٤.

[3] المرجع السابق، ص٣٢٠-٣٩٠.

«الشخصية التاريخية ... بين الظالم والمظلوم»

علاء عبد الحميد الباتع

التاريخ مليء بالشخصيات التي قامت بأعمال جليلة، كما يحتفظ بسير الشخصيات التي قامت بسلوكيات مشينة وسيئة، لكن السؤال هنا كيف يتم قياس درجة السلوك الحسن والسلوك السيء لهؤلاء الحكام والقادة والشخصيات التي أثرت في الدول والمجتمعات والأوطان على فترات تاريخية مختلفة، ولو كان السلوك سيء لدى بعض الحكام أو الشخصيات التاريخية فربما يكون هذا هو السلوك المناسب وقتها، وهو ما يجعلنا ندخل في إطار الموضوعية التاريخية بمقاييس عصرها، وليس قياس السلوكيات حسب العصر والمفاهيم التي نعيشها اليوم.

لكن لابد من دراسة الشخصيات من كل جوانبها في إطارها التاريخي الصحيح، وليس سحب الشخصيات إلى عصرنا وبالتالي تكون النتائج مشوشة وغير منهجية لأن ما حدث مثلًا في القرن الأول الميلادي .. أو غيره لا يمكن تكراره اليوم، ذلك لأن الحادثة التاريخية فريدة ولا يمكن تكرارها، ربما تتشابه الظروف ولكن النتائج مختلفة، ولكن يمكن دراسه وتطبيق العلوم الحديثة التي تفيد المنهج التاريخي وبالتالي تكون النتيجة موضوعية حتى لو كانت سيئة.

وبالنسبة للسلوك السيء أو المشين، فهو أيضًا يختلف باختلاف العقائد الدينية والظروف الاجتماعية والتاريخية والثقافية للمجتمعات البشرية، إلا أن في المجمل قامت الأديان السماوية كلها بالبعد عن السلوكيات السيئة وتركها، لكن تختلف درجات الإيمان بها من شخصية لأخرى طبقًا لمبدأ الخير والشر والصواب والخطأ . فما نجده شر ويجب تركه يكون خير ويجب عمله في بيئة أخرى، إلا أنه مع تطور الإنسانية وسعيها لإعلاء القيم التي تسمو بالنفس البشرية بعيدًا عن الشر والحروب والصراعات ... إلخ، نجد هناك القوانين الدولية وغيرها.

ولكي نعرف ما هو السلوك الذي قام به حاكم ما أو شخصية تاريخية، الأمر الذي جعله موضع الجدل بين المتخصصين علينا أن نفهم أن التاريخ هو علم إنساني وسلوك بشري يختلف باختلاف الأشخاص وتوجهاتهم، فأحيانًا يكون الحل لبعض القضايا هو السلوك غير الإنساني والذي يتنافى مع الشرع والدين ولكن حتمية الواقع فرضت ذلك، ومثالنا هنا مذبحة القلعة التي قام بها **محمد علي باشا** (١٨٠٥-١٨٤٨) والي مصر عام ١٨١١، ضد المماليك وبالتالي فالأمر نفسه غير

إنساني وأخلاقي ولكن المثالية الشديدة التي أحاطت بالشخصية والظروف الحتمية لحدوث ذلك جعلت الأمر عاديًا بل وجاءت التفسيرات أنه كان لزامًا أن يحدث هذا خاصة في تلك الظروف التي كانت تمر بها مصر في مطلع القرن التاسع عشر، في النهاية يأتي محمد علي باشا بأنه مؤسس الدولة الحديثة والنهضة المصرية، ولا يكون النظر إلى حادث مذبحة القلعة إلا في إطار خطوة من خطوات الباشا نحو تلك النهضة الحديثة.

وما يتحكم في مجمل أعمال الحاكم أو الشخصية التاريخية هو موقع تلك الأحداث والأعمال التي قام بها في صفحات إنجازاته، لو كان ما قام به من سلوك مشين وسيء بدون سبب كانت الأحكام بأنه شخص ظالم على أغلب الأحيان، وإن كان الفعل الذي قام به يأتي في إطار محدد المعالم كانت الأحكام بأن ما قام به حسن ولا غبار عليه، وهذه الأحكام تختلف باختلاف من يقوم بإصدارها ومنهجه الفكري والفلسفي.

وهنا يجب أن نذكر شخصية **الحجاج بن يوسف الثقفي** (٤٠/٩٥هـ/ ٦٦٠/٧١٤م) الذي يراه البعض ظالمًا ويراه آخرون مظلومًا ولكن هو في النهاية كان في ظروف تاريخية وجغرافية مختلفة بل وفي فترة تشكلت فيها الكثير من الأمور السياسية والاجتماعية في الدولة الأموية، ومع ذلك من يقولون بأن الحجاج الثقفي ظالمًا يسوقون الأدلة على ذلك، ومن يقولون بأنه مظلومًا يذكرون بأنه كان مجرد يد للحاكم أو الخليفة الأموي، وأيضًا لا يجب أن ننسى أن للحجاج دور كبير في الحفاظ على الدولة الإسلامية وهى في طور النشأة وكذلك فتوحاته، وتصديه للفتن، واهتمامه البالغ بالقرآن الكريم، كما أنه أحد أعلام الشخصيات الإسلامية. الشخصية التاريخية تحيط بها الكثير من الأمور فهناك ظروف العصر، هناك الأمور الاجتماعية التي نشأت فيها الشخصية والسلوك النفسي، وهناك وضع البلاد سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وغير ذلك، كلها أمور تحدد سلوكيات الحكام والشخصيات التاريخية، فلا يجب أن يتم تحميل شخصية الحجاج الثقفي كل شيء، وهو مجرد أحد القادة في الدولة الأموية .

التاريخ يُقبل كما هو ويتم تعلمه وتعليمه وفقًا لمنهجيات موضوعية تضع الأمور في نصابها وإطارها التاريخي الصحيح، فلا يجب استدعاء التاريخ بغرض المكايدة السياسية أو لتبني وجهة نظر مختلفة أو بغرض الطعن في التاريخ، مثلًا بالنسبة لسلوكيات **الحاكم بأمر الله الفاطمي** (٣٧٥/٤١١هـ - ٩٨٥/١٠٢١م) من وجهة نظر الشيعة هي سلوكيات حسنة وبالنسبة للسنة

هى عمل غير أخلاقي يتنافى مع الشرع والدين، وبالنسبة للتاريخ هي كلها سلوكيات تحيط بها مجموعة من العوامل النفسية **للحاكم بأمر الله** ومذهبية تبعًا لمعتقده، وسياسية خاصة بأمور الحكم وقتذاك .فما هو المعنى والتفسير بأن يمنع أكل الملوخية أو يمنع خروج النساء أو لبس القباقيب، وما سبب سبه للصحابة، وهدمه لكنيسة القيامة ثم إعادة بنائها وغير ذلك.

يظل محفور في الذاكرة التاريخية للشعوب أعمال بعض الشخصيات التاريخية لأن ما قاموا به من أعمال يجعلهم في مركز الصدارة في ذاكرة البشر، كما يظل محفورًا في ذاكرة أعداءه وهنا مثلًا شخصية **صلاح الدين الأيوبي** **(٥٣٢/٥٨٩هـ - ١١٣٨/١١٩٣م)** هو لدى الكثير محرر القدس من الصليبيين خاصة لدى العالم الإسلامي، وبالتالي هو شخصية نالت احترام العدو والصديق نظرا لما قام به من أعمال تجاه كل طرف من أطراف عصره، ومع ذلك لا ينجو من التهم التي يحاول البعض إلصاقها به وخاصة الشيعة ومن يسير على فكرهم بعيدًا عن المنهج التاريخي الموضوعي، وهو أيضًا رغم ذلك نجد أعداءه قد وضعوه في إطار يجعلنا نحن نفتخر به.

وقد تتعدد الآراء حول الشخصية التاريخية وهذه الآراء قد يأخذ بها بعض الناس تبعًا لظروفهم الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية بعيدًا عن الموضوعية التاريخية، ومن ثم يبدأ الاختلاف غير المنهجي الذي يكون في إطار من العلم وإنما هو اختلاف مذهبي وطبقي ووقتي فقط فنجد البعض يحمل هذه الشخصية أحداث وقضايا تكفي العالم كله، ومثلنا هنا **القائد المصري أحمد عرابي (١٨٤١-١٩١١م)** الذي قاد ما يعرف بالثورة العرابية، والتي ساندها جميع المصريين باختلاف عقائدهم وانتماءاتهم الدينية، وكانت لها مجموعة من المطالب الشعبية، ولكن كانت الظروف الخارجية المحيطة تتجه ناحية مصر وتتحين الفرصة لاقتناصها وفرض السيطرة عليها، بالرغم من أن المسألة داخلية إلا أن الإمبريالية كانت في صعود قوي متمثلة في الدول الكبرى وعلى رأسها بريطانيا العظمى، مع ذلك نجد أن عرابي ورفاقه ومن وراءهم جموع الشعب المصري يطالبون بأشياء كانت مشروعة إلا أن الشأن الداخلي تحول لمسألة دولية تهدد بالاستعمار فبدلاً من حل القضية تكاتفت العوامل وتضافرت جهود الدول الاستعمارية على أن مصر قد يمتد أثر مشاكلها إلى تهديد طرق التجارة والاستعمار، أما بالنسبة لشخصية عرابي فهو مصري أصيل ولكنه تحمل تبعات ما حدث

كله وذلك بسبب أن الإطار الذي ينظر بها للأوضاع وقتها ضيق ولا يطبق المنهجية التاريخية الكاملة، بل لا نتعجب حين نرى أن هناك من يقول أن عرابي هو سبب الاحتلال الإنجليزي لمصر، وهو سبب هزيمة الجيش المصري، وذلك في ظل إغفال موقع شخصية عرابي من الأحداث والتغاضي عن موقف الخديو محمد توفيق، والسلطان العثماني، والضعف الذي أصاب البلاد وقتها، والخيانات التي تعرض لها عرابي رغم انتصاره على الجيش البريطاني، هل يتحمل عرابي وحده كل الأمور، أليس من العدل أن نضع الشخصية في إطارها الصحيح وبشيء من الموضوعية، عرابي الذي قضى في المنفى ٢٥ عامًا، الخديو الذي ترك الأمر لعبة في يد الدول الأجنبية، والسلطان العثماني الذي أصدر مرسوم بعصيان عرابي، وذلك بطلب من الدول الأجنبية، وبالتالي كانت هزيمة عرابي في ظل ما يحدث داخليًا وما يحاك ضده خارجياً مسألة وقت، قد يكون عرابي أخطأ في بعض الأحداث ولكن ما موضع أخطاء عرابي من موقف الخديوي ومن معه، وتتجسد في شخصية عرابي الظالم والمظلوم تاريخيًا، فهو سبب الاحتلال في نظر البعض، وهو حامي حمى الديار المصرية في نظر الكثير.

كل شخص يأخذ بما يتماشى مع ما يراه صحيحًا وتبقى المنهجية التاريخية في مكان بعيد عن التطبيق على الشخصيات وما صاحبها من أحداث وأعمال، وهو ما يجعلنا نرى السلوكيات الإنسانية تُفسر حسب الهوى الشخصي، بدون دراسة أو منهج دقيق.

رغم أن التطور التقني والرقمي قد أفاد التاريخ كثيرًا إلا أن القناعات حول الشخصيات التاريخية وما دار حولها من ملابسات بحاجة إلى الدراسة والاستفادة من ذلك التطور في البحث حول تلك الشخصيات، فالمحتوى المتاح أصبح كثيرًا حول ما ذكرناه من شخصيات تاريخية ولكن الكثير لا يريد القراءة أو الخوض في قضايا ليست من اهتمامه وانما يكتفي بما يتلقاه من معلومات حول تلك الشخصيات من أعمال فنية)أفلام سينمائية – أو دراما تليفزيونية (وهى لا تقدم الشخصيات بشكل منهجي وإنما تطوع التاريخ للاستفادة منه في خدمة النص الأدبي، وهناك من يأخذ معلوماته من السوشيال ميديا في إطار صور أو نصوص مكتوبة او فيديوهات منشورة على منصات رقمية وبالتالي يأخذها فقط بدون تحليل أو دراسة وهو ما يجعل عقل المتلقي عرضة لأي معلومات مشوشة أو غير منهجية.

تذكر **الأستاذة الدكتورة لطيفة محمد سالم**، أستاذ التاريخ الحديث والعاصر في كتابها الذي

يحمل عنوان «**فاروق وسقوط الملكية في مصر**» (١٩٣٦-١٩٥٢)، أن دراسة الشخصيات بصفة عامة هي عملية صعبة وتستلزم جهدًا كبيرًا في العديد من النواحي المحيطة بالشخصية وذلك للأسباب الآتية:

لأنه أحيانًا يتم وضع الشخصية في قالب ضيق محصور وذلك بالتركيز عليها وإغفال العوامل الموضوعية التي أحاطت بها وشكلتها وبلورتها.

إفلاس المنهج التقليدي للدراسات الشخصية، وأنه يجب إيجاد رؤية أوسع ومنهج يساعد على قراءة تاريخ الشخصيات بصورة أعم وأشمل، وليس حصر الشخصية في حدث أو حدثين، والحكم من خلالهم بالسلب أو بالإيجاب على تلك الشخصية وإغفال الباقي .

كما ترى الأستاذة الدكتورة لطيفة سالم، أن منهج البحث التاريخي عند دراسة الشخصيات يُلزم بإتباع خطين أساسين كل منهما مكمل للآخر:

الخط الأول :الالتصاق بالشخصية وتتبع خطواتها وسبر أغوارها والنفاذ لأعماقها وملازمتها ورصد تصرفاتها، وقياس هذه التحركات وإعطاء رؤية صادقة تعبر وتترجم عن جوهرها وحقيقتها، بمعنى معايشتها معايشة كاملة.

الخط الثاني : يمثل قاعدة أساسية وجعامة قوية لا غنى عنها في دراسة الشخصية، وينصب على الإلمام الدقيق بالأحداث الجارية ومكوناتها وأبعادها والملابسات التي التفت حول الشخصية من كل جانب تدفعها وتوجهها وتملي عليها إرادتها، بالتقاء الخطين تكتمل الصورة وتظهر واضحة المعالم ويصبح من اليسير وضعها في الميزان وإصدار الحكم عليها في إطار من المنهجية والموضوعية التاريخية.

وختامًا لا شك أن تاريخ الشخصيات هو جزء من تاريخ الوطن، ومجموع تاريخ الشخصيات يشكل التاريخ القومي، ولكن لابد من السعي وراء الحقيقة وتتبعها ودراسة الشخصية في إطار من الموضوعية الزمنية وعدم إطلاق الأحكام جهلًا، فكل حادث شاركت فيه شخصية تاريخية له مفرداته المرتبطة به والتي تميزه عن غيره من الأحداث، وتحري الدقة في دراسة الشخصيات التاريخية يعطينا المعلومات الصحيحة بعيدًا عن الأهواء والمصالح والحقد والضغينة والتعصب والتجريح، وكذلك بعيدًا عن المحاباة والدفاع عن الشخصية إلى حد الصدام .

ولكن المنهجية والموضوعية التاريخية لو تم تطبيقها بشكل صحيح على كل شخصية سيكون في النهاية هناك أحكام تخضع للمنهج العلمي التاريخي ووضع الشخصية في إطارها الصحيح هو أول الخطوات الصحيحة في دراستها، وتاريخ الشخصيات لا يؤخذ من جانب واحد وإنما يتم رصده من كافة الجوانب المحيطة بالشخصية التاريخية.

الطريق إلى كامب ديفيد .. مسار إجبارى

د.محمد عبد النبي

ظلت سياسة الأردن منذ نشأتها فى ١٩٢١وحتى ثورات الشعوب العربية فى ٢٠١١، والتى أسماها الغرب بثورات الربيع العربى، هى الرغبة الشديدة فى ضم الضفة الغربية إلى الأردن لتوسيع نطاق المملكة، وبالتالى تقسيم فلسطين.

وقد أغضبت هذه السياسة كل الحكومات العربية ، خاصة مصر التى سببت لها حساسية أمنية خاصة بالأمن القومى المصرى. حيث أن سياسة مصر الثابتة هى الحفاظ على فلسطين كاملة كحد استراتيجى شرقى لمصر، وأن أى إجراء لتقسيمها أو استقطاع جزء منها هو إضعاف لهذا الحد وخطر على الأمن القومى المصرى.

وبسبب سياسة الأردن هذه كانت العلاقات المصرية الأردنية حتى ٢٠١١ معقدة وصعبة، ومن أهم أسباب اتجاه السادات لأميركا وعقد معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٩، واهتمام الرئيس مبارك بعقد اتفاقية أوسلو فى ١٩٩٣.

وأصبحت العلاقات المصرية الأردنية بالنسبة لفلسطين كفرسى رهان. الأول؛ مصر، يريد الحفاظ على وحدة فلسطين، والثاني؛ الأردن؛ يريد تقسيم فلسطين واستقطاع الضفة الغربية والقدس الشرقية ولا بأس من غزة. ولذا كان من الضرورى - من وجهة نظر الرئيس السادات - التوصل إلى اتفاق سلام مع إسرائيل وتحديد موقف لإنهاء هذا العبث.

أما السبب الآخر فهو اتجاه السياسة الأميركية فى أوائل الخمسينيات إلى جعل منطقة الشرق الأوسط حائط صد ودفاع ضد الاتحاد السوفييتى، ولأن العائق الوحيد هو مشكلة الوجود الصهيونى فى فلسطين ورفض العرب له. فبدون قبول العرب لهذا الكيان فى المنطقة لا يمكن تأسيس نظام دفاعى ضد الاتحاد السوفييتى والشيوعية. ركزت السياسة الأميركية ابتداء من فترة الخمسينيات من القرن العشرين على فرض السلام بين العرب وإسرائيل.

اتجه التفكير إلى مصر نسبة لقيمتها فى المنطقة وتأثيرها، وكذلك ضغط الوجود الصهيونى على حدودها الشرقية الذى تريد أن تصل إلى حل فيه. فإذا نجحت استراتيجية

استقطاب مصر لحل ثنائى مع إسرائيل فسوف تتشجع باقى الدول العربية وتسلك نفس المسار.

ولذلك تم وضع خطة استراتيجية لمساعدة مصر وتشجيعها تلخصت فى مساعدة مصر فى التوصل إلى اتفاق مع بريطانيا للجلاء عن قاعدة قناة السويس، وفى أثناء المفاوضات للاتفاق على الجلاء بالدعم الأميركى، سوف تكون مصر أكثر انفتاحاً على المساعى الأميركية لفرض السلام مع إسرائيل. فيتم مساعدة مصر فى هذه الفترة اقتصادياً وعسكرياً والتلويح بمساعدات لتنفيذ إنشاء السد العالى. وأثناء هذه الفترة تكون الولايات المتحدة جاهزة بمشروع كامل لفرض السلام، أو على الأقل تقطع شوط كبير منه تستحيل معه العودة إلى الوراء. كل ذلك قبل إتمام الانسحاب البريطانى عن قاعدة قناة السويس.

وقد توصلت مصر وبريطانيا بفضل التأثير الأميركى بالفعل إلى اتفاق للجلاء تم التوقيع عليه فى يوليو ١٩٥٤.

وبعد حرب يونيو ١٩٦٧، صدر القرار رقم ٢٤٢ فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. بعد موافقة مصر والأردن، واضطرت مصر للموافقة بعد أن رأت تخاذل الاتحاد السوفييتى والمجتمع الدولى فى النهاية. وأصبح أمام مصر إما الموافقة على هذا القرار كخطوة استراتيجية يتبعها خطوات أخرى بعد ذلك، أو لا توافق وتخسر كل شىء إلى الأبد.

يهمنا فى هذا القرار بندين. أولهما : ضرورة انسحاب القوات الاسرائيلية من أراض احتلت فى حرب ٥ يونيو ١٩٦٧. مما يعنى اعتراف الأمم المتحدة والدول التى وافقت على القرار بإسرائيل ككيان سياسى، والاعتراف باستيلائه على ٧٨ % من أرض فلسطين التى استولى عليها فى حرب ١٩٤٨.

أما البند الثانى فهو : إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط، وضرورة ضمان الأمن الإقليمى والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة (من بينهم إسرائيل) عن طريق إجراءات من بينها إنشاء مناطق منزوعة السلاح. والمقصود بمناطق منزوعة السلاح هى الحدود المباشرة لفلسطين (جنوب لبنان - مرتفعات الجولان - شبه جزيرة سيناء)، تكون حاجز جغرافى طبيعى بين الدول العربية وإسرائيل، ومن قبلهم الأردن.

وبينما التزمت مصر والأردن بتنفيذ القرار، لم يلتزم حتى الآن الكيان الصهيونى بالانسحاب من الأراض التى استولى عليها فى ٥ يونيو ١٩٦٧.

قبـل نهايـات ١٩٦٩ تقـدمت أميركـا بمشـروع روجرز للتسوية الثنائية بين مصر وإسرائيل فقط وفـتح قنـاة السـويس والبحـر الأحمـر للملاحـة الاسـرائيلية، ورفضـه عبـد الناصـر. فسـعت الحكومة الأميركية إلى توسيع نطاقه بتقديم ورقــة لـلأردن حملـت اسـم " يوسـت "؛ إلـى الملك حسـين، تعهـدت فيهـا بعـودة الأوضاع التى كانت قائمة بالنسبة للأردن قبل ٥ يونيو ١٩٦٧، مـع إجـراء بعـض التعـديلات الطفيفـة على الخطوط المتبادلة على الجانبين، بمعنى توحيد القرى التى قطعتها خطوط الأسلاك الشائكة على الحدود بين الأردن وإسرائيل.

بعـد فشـل مشـروع روجـرز تقـدمت أميركـا بمبادرة روجرز التى تدعو إلى وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر يتم خلالها تنفيذ بنود القرار ٢٤٢ لسـنة ١٩٦٧، فرفضـتها إسـرائيل؛ ولكـن بضـغط السياسـة الأميركيـة اضـطرت إسـرائيل إلـى قبـول المبـادرة. إلا أن كيسـنجر مستشـار الـرئيس الأميركـى للأمـن القـومى قلـب المـوازين مؤكـداً أن سياسـة الولايات المتحدة هـى طـرد الاتحـاد السـوفييتى مـن الشـرق الأوسـط وليسـت إرغـام إسـرائيل علـى الانسحاب.

فـى أوائـل ١٩٧٠، تلقـى الـرئيس جمـال عبـد الناصـر خمـس رسـائل عبـر الوسـائط الدوليـة تطلب منه الموافقة على قبول السلام مع إسرائيل. أولها عـرض الـرئيس اليوجوسـلافى " تيتـو " علـى الـرئيس جمـال عبـد الناصـر رؤيـة " ناحوم جولدمان "؛ رئيس المنظمة الصهيونية العالميـة؛ بـأن إسـرائيل مهيأة لتغيير سياسـتها تجاه مصـر، ويطلـب مـن جمـال عبـد الناصـر أن يعطى لجولدمان شيئاً من التنازل أو التخفيف، يعطيه القدرة على إقناع القيادة فى إسرائيل، واقتـرح مـن أجـل ذلـك ترتيـب لقـاء سـرى بـين جولـدمان وعبـد الناصـر سـواء فـى القـاهرة أو فـى يوجوسـلافيا ليكـون تحـت رعايـة " تيتـو " ليـتمكن مـن تلطيـف الأجـواء وتقريـب وجهـات النظـر. فـرفض الـرئيس جمـال عبـد الناصـر علـى أساس أن أى لقاء سرى سيعلن عنه يوماً ما، وأن فكـرة عقـد لقـاء ثنـائى مـع الاسـرائيليين فكرة مرفوضة.

أمـا الخطـوة الخامسـة فجـاءت مـن الـرئيس الرومـانى نيكـولاى تشاوشيسـكو، الـذى أرسـل وزيـر خارجيتـه فـى مـايو إلـى جمـال عبـد الناصـر برسـالة سـرية مضـمونها : " وجـود مبـادرة مـن جانـب إسـرائيل للسـعى للصـلح مـع مصـر، وأن الأمـر متوقـف علـى مـا يـراه جمـال عبـد الناصـر فكـان رده : " إن الحـل الوحيـد الـذى يسـتطيع الموافقــة عليــه هــو الانســحاب الكامــل، ولا يمكنـه الموافقـة علـى حـل يتـرك القـدس

لإسرائيل... إننى أرغب فى حل سلمى، وأشعر بقدرتى على إقناع الأمة العربية به إذا وجدته محققاً لمصالحها وأمنها. لكنى لست مستعداً للقيام بأى مقامرة... عندما نتكلم عن الانسحاب نعنى ليس فقط من الأراضى المصرية، ولكن من كل الأراضى العربية ".

واستمرت هذه السياسة بين الشد والجذب بين مصر وأميركا وإسرائيل حتى وفاة جمال عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠.

كانت الرسالة التالية من إسرائيل إلى مصر فى يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٠، أى فقط بعد يومين من وفاة الزعيم جمال عبد الناصر، عن طريق رئيس وزراء رومانيا الذى سلمها لعلى صبرى أثناء تشييع الجنازة. وتسلمها منه السادات الذى كان فى ذلك الحين رئيساً مؤقتاً طبقاً للدستور. ملخص الرسالة أن إسرائيل مستعدة لفتح صفحة جديدة مع مصر، وأنها تتمنى أن يحافظ المسئولون الجدد على نفس النهج الذى سلكه جمال عبد الناصر فى الشهور الأخيرة، الرامى إلى إيجاد حل سلمى مناسب للمشكلة.

أقام السادات فى ١٩٧٢ قناة اتصال سرية مع هنرى كيسينجر عن طريق حافظ إسماعيل، مستشار الأمن القومى المصرى، وبعد أسبوعين من بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣ قرر السادات وضع المسألة كلها فى يد هنرى كيسينجر.

بسبب ثغرة الدفرسوار صدر القرار رقم ٣٣٨ فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وكان من أهم بنوده : وقف إطلاق النار بصورة كاملة. و تنفيذ بنود القرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧. و بدء مفاوضات بين الأطراف المعنية بهدف إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط.

وفى لحظة حرجة أرسل كيسينجر إلى الرئيس السادات عن طريق القناة السرية، أنه تلقى رسالة من رئيسة الوزراء الإسرائيلية بأنهم على استعداد للدخول فى مباحثات مع مصر حول كيفية الوصول إلى موقف مشرف للجيش الثالث المصرى، وعلى المصريين اختيار المكان والتوقيت. وهى المحادثات التى عرفت باسم " الكيلو ١٠١ "

كان اللقاء الأول بين السادات وكيسينجر فى ٧ نوفمبر ١٩٧٣، وقد وعد كيسينجر الرئيس السادات بأن أميركا مسئولة بسبب تدخلها فى حرب أكتوبر لصالح إسرائيل حتى تحول دون انتصار مصرى مؤكد، أن تضع كل جهدها فى خدمة السادات لكى يعوض ما فقده من نصر عسكرى، وأن تساعده فى تحقيق السلام الشامل. أيضاً وعده بمشروع مارشال للمنطقة يجعل شعوبها يشعرون بمزايا

السلام على نفس منوال مشروع مارشال فى أوروبا الغربية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

مع هذه الوعود كانت لا تزال الاشتباكات جارية، وأمام هذه الوعود وتحت ضغط الحراك العسكرى قدم السادات فى هذا اللقاء تنازلات كثيرة كانت ضرباً من المستحيلات فى ذلك الوقت. وكانت من الجانب المصرى فقط. منها الموافقة على رفع الحصار البحرى عن باب المندب. واستعداد مصر لقبول حل منفرد مع إسرائيل إذا لم تنجح فى إقناع حلفائها العرب. والتنسيق الكامل مع الولايات المتحدة لتحقيق صلح عربى - إسرائيلى شامل. وإخراج السلاح السوفييتى من معادلة القوة فى المنطقة. وفتح قناة السويس للملاحة الدولية ولأن هذه التنازلات أصبحت خطراً على حياته، طلب السادات من أميركا أن تتحمل مسئولية حماية أمنه فى مصر على المستويين الشخصى والعام.

فى ٢٥ مارس ١٩٧٥ تم اغتيال الملك السعودى فيصل ، ولم يتم التوصل إلى فك ارتباط ثان على الجبهة المصرية، وبدأ الرئيس السادات يفقد أعصابه ويزداد قلقه من قيادات الجيش التى ملت هذا الوضع المخزى، فتضاعفت مخاوفه من خشيته من الاغتيال ومن فقده لأهم حليف له فى المنطقة.

فى أول يونيو تقابل السادات مع الرئيس الأميركى الجديد وقتها، جيرالد فورد؛ فى سالزبرج، عاد الرئيس السادات من هذا اللقاء محبطاً، فقد وجد نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه، وأصبح مطالب بمزيد من التنازلات إذا كان يريد التوصل إلى اتفاق ثان لفك الارتباط لتحريك الأمور، وإلا فسوف يتجمد كل شىء بعد كل التنازلات التى قدمها.

ففى هذا اللقاء قال له فورد أنه غير خبير بأزمة الشرق الأوسط وأنه يفضل تركها لهنرى كيسينجر الذى يعرف كل شىء عنها. وطلب من السادات أن يبذل جهداً أكبر فى تفهم المصاعب التى تواجهها حكومة رابين.

فى يناير ١٩٧٦ حمل، الجنرال أحمد الدليمى، المستشار العسكرى الخاص لملك المغرب، ورئيس المخابرات المغربية، رسالة من الملك الحسن إلى الرئيس السادات آملاً أن تفتح هذه الرسالة الأبواب الأميركية المغلقة، مفادها أنه تم لقاء بين الملك الحسن ورئيس الوزراء الإسرائيلى؛ اسحاق رابين، وأن رابين طلب من الملك أن ينقل رسالة منه إلى الرئيس السادات ملخصها أن عملية السلام بين مصر وإسرائيل لم يعد من السهل الرجوع فيها، وأنه يرغب فى إجراء مباشر ثنائى أكثر

جرأة بين مصر وإسرائيل وتكون شروطه مقبولة للرأى العام الإسرائيلى ليطمئن لبدء التعامل المباشر بين الحكومتين.

كان من المقرر زيارة الرئيس السوفييتى بريجنيف لمصر فى أوائل ١٩٧٦ ولكن الرئيس السوفييتى ألغاها، فقرر السادات فى ١٤ مارس إلغاء معاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفييتى. ولذلك عندما حدثت أحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ التى هزت الرئيس السادات بعنف، فإن أول من اتجه فكره ناحية الجهة المدبرة كان الاتحاد السوفييتى. وكانت حافزاً قوياً فى تصميم السادات على اتجاهه إلى أميركا.

فى زيارة السادات لأميركا فى ابريل من نفس العام كان ملخص كلام كارتر له أنه مُصِر على تحقيق السلام فى الشرق الأوسط، ولكنه لا يستطيع الضغط على إسرائيل، ولذا فمن المهم أن يكون الاتصال بين مصر وإسرائيل مباشر، وأنه يأمل أن يقوم الرئيس السادات فى وقت قريب بهذه الخطوة الجريئة التى ستكون مفترق طرق فى تسوية الأزمة. لأن رئيس الوزراء الإسرائيلى لديه أطماع لضم أراضى عربية، وشجعه على أن يكون ذلك فى مؤتمر جنيف ويكون العرب كلهم فى وفد واحد ترأسه مصر، يتضمن منظمة التحرير الفلسطينية إذا وافقت على القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨.

فى أغسطس قدم الرئيس السادات إلى سايروس فانس وزير الخارجية الأميركى أثناء زيارته للقاهرة، موافقة منظمة التحرير على القرارين. ولكن بعد كل هذه التنازلات من مصر ومن منظمة التحرير، رفضت إسرائيل موافقة منظمة التحرير معتبرة إياها منظمة إرهابية.

بعد هذا الموقف من الحكومة الإسرائيلية تقابل موشيه ديان وزير الخارجية مباشرة فى العقبة مع الملك حسين، فى هذا اللقاء قال الملك حسين لموشيه ديان أنه مستعد لعقد اتفاق ثنائى منفرد مع إسرائيل ضارباً الحائط بالموقف العربى الموحد وقتها، ولكن لكى يقبل ذلك لابد من ضم الضفة الغربية والقدس الشرقية وغزة للأردن، حتى يستطيع مواجهة خصومه، وأولهم منظمة التحرير الفلسطينية، فطبعاً رفض ديان هذا العرض.

فحضر فانس إلى القاهرة، و قدم له الرئيس السادات مشروع اتفاق سلام بين مصر وإسرائيل ليعرضه على الرئيس كارتر، وفى نفس الوقت تلقى الرئيس السادات رسائل من تشاوشيسكو، والملك الحسن، والشاه محمد رضا بهلوى، كلها رسائل من بيجين للتوسط لدى السادات لعقد لقاء مباشر بين الطرفين.

تحت إلحاح الملك الحسن، وافق السادات على إجراء هذا اللقاء بشرط السرية التامة، وفى فكره أن الرئيس الأميركى لن يفعل شىء لصالح مصر، وأن المشكلة لا زالت معلقة؛ فاتفاقات فك الارتباط وضع مؤقت يمنع الحرب ولكنه لا يحقق السلام. وأن مصر فى حاجة إلى حل مقبول يفتح الباب لحل الأزمة الاقتصادية عن طريق المساعدات الأميركية. وبالفعل تم عقد هذا اللقاء فى المغرب بين موشيه ديان وحسن التهامى.

فى نهايات أكتوبر ١٩٧٧ حث كارتر على الإسراع فى خطوات عقد مؤتمر جنيف. ولأن السادات لم يكن راضياً عن فكرة عقد مؤتمر جنيف الذى تصر عليه أميركا، وتنوى إشراك الاتحاد السوفييتى، والدول العربية. فهو لا يطيق الاتحاد السوفييتى، ولا مزايدات الحكام العرب على القضية الفسطينية ومشكلة الشرق الأوسط. أخذ الرئيس السادات يردد فى محافله أن الأمور فى حاجة إلى عمل درامى، لأن الأميركيين ليس لديهم خيال سياسى.

وأعلن لإسماعيل فهمى، وزير الخارجية، عن عزمه عقد لقاء مباشر بينه وبين بيجين، فأصيب وزير الخارجية المصرى؛ بحالة من الذعر كانت واضحة جداً عليه، واقترح عقده فى واشنطن ولكن السادات رفض، فعدل إسماعيل فهمى مكان الاجتماع المقترح ليكون فى القدس مدينة السلام، فأعجب السادات بالفكرة وأرسل يستشير فيها كارتر، وحتى موعد خطاب السادات فى مجلس الشعب يوم ٧ نوفمبر لم يصل أى رد. ولكن فى اللحظات الأخيرة جاء الرد بالرفض بناء على حسابات سياسية وأمنية إسرائيلية.

وفى اجتماع المكتب السياسى للحزب الوطنى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٧، ذكر الرئيس السادات ما حدث بالمغرب من نتائج لقاء حسن التهامى وديان، بأن إسرائيل مستعدة للانسحاب الفورى من سيناء، ثم التفاوض بعد ذلك فى المسائل الأخرى متضمناً بقية الأراضى العربية المحتلة مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة طبقاً لمشروع روجرز. وأنه الآن واثق من النجاح. وأثنى بأنه متفق مع كيسينجر فى أن العامل النفسى حاجز أساسى فى هذه المشكلة، فلو تم تخطى هذا الحاجز لصالح أمن المواطن الإسرائيلى فستكون إسرائيل مستعدة للسلام.

فى خطابه فى الكنيسيت؛ قال الرئيس السادات أن مصر تريد انسحاباً اسرائيلياً كاملاً من كل الأراضى العربية التى احتلتها فى ١٩٦٧ كبداية لحل المشكلة الفلسطينية.

وفى كلمته؛ رد بيجين بأنه لا يقدم أى أحد

شىء مجاناً، فسقطت كلمة بيجين على الوفد المصرى كسقوط صخرة من جبل عال، وبدأ السادات فى أن يفقد سيطرته على أعصابه، وفكر فى إعلان فشل مبادرته فى مؤتمر صحفى ولكنه تراجع تحت تأثير فكرة أنه بذلك سوف يضيع مجهوداته السابقة سدى.

وفى الفترة من ٥ إلى ١٧ سبتمبر تم عقد لقاء ثلاثى يجمع الرئيس الأميركى بالرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى فى كامب ديفيد، وهو منتجع رئاسى فى منطقة نائية، كانت إقامة الوفد المصرى بما فيه الرئيس السادات شبه إقامة جبرية، فعندما شعر الرئيس كارتر بأن الرئيس السادات على وشك الانسحاب معلناً فشل المؤتمر، ذهب إليه فى مقر إقامته، وبجدية قاتلة، فى حديث ديبلوماسى مشحون بالغضب، استهلك ربع الساعة، وقوفاً، وقال له مهدداً " إننى أريد أن أكلمك صراحة.. إنك تستطيع أن تنسحب من المؤتمر، لكن ذلك سوف يعنى نهاية العلاقات بين الولايات المتحدة وبين مصر.. إن ذلك سوف يضع نهاية لكل جهودنا من أجل السلام... إن ذلك سوف يعنى أيضاً نهاية شىء أعتز به وهى الصداقة بينى وبينك ". مما يعنى أنه إن لم يتم التوصل إلى اتفاق فسوف يتم القضاء على الوفد المصرى كله، أو على الرئيس السادات فقط فى هذه المنطقة النائية. مما دفع بالرئيس السادات إلى الرضوخ واستكمال المسار.

انتهى المؤتمر بصدور وثيقتان أساسيتان. سميت الأولى " إطار السلام فى الشرق الأوسط "، وسميت الثانية " إطار لإبرام معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل "

كان القرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ هو مرجعية هذه الوثائق . وبالتالى نفس النتائج من حيث الاعتراف بالكيان الصهيونى وإنشاء مناطق منزوعة السلاح والمعروفة ضمنياً.

نصت الاتفاقية الثانية على انسحاب إسرائيل من شبه جزيرة سيناء على مرحلتين.. تنتهى فى خلال ٣ سنوات من تاريخ توقيع وثائق كامب ديفيد.

تم توقيع معاهدة السلام فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، وبعد شهر واحد، فى ٢٥ أبريل ١٩٧٩ تم التصديق على المعاهدة، وبعد انتهاء ٣ سنوات تم رفع العلم المصرى على سيناء فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢.

من المهم هنا التذكير ولفت الانتباه إلى أنه لولا موافقة مصر على القرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ ما كانت مصر تسلمت سيناء تحت أى بند، حتى على الرغم من حرب أكتوبر.

وعلى الرغم من استلام مصر لسيناء، إلا إنها

عملياً لا تـزال منطقـة منزوعـة السـلاح كحـاجز جغرافــى بــين الكيــان الصــهيونى والشــعب المصـرى. وأن سياســة مصـر تجـاه فلسـطين ظلـت ثابتـة فـى الفتـرة مـن ثـورة يوليـو ١٩٥٢ حتـى ثـورة ينـاير ٢٠١١ وهـى الحصـول علـى أى شـىء مؤقتاً أفضل من فقـد كـل شـىء إلـى الأبد.

فقـد وضـح ذلـك فـى قبـول مصـر للقـرار ٢٤٢ رغـم إجحافـه، وعقـد معاهـدة السـلام، ودعـم مصـر لاتفاقيـة أوسـلو علـى الـرغم مـن أنهـا تعطـى الفلسـطينيين ٢,٥ % فقـط مـن أرض فلسطين الكلية.



التحديات المصيرية التي واجهتها الدولة العثمانية في مراحل تكوينها الحضاري:

قراءة في تفسير أرنولد توينبي

The crucial challenges faced by the Ottoman State in the stages of its civilizational formation:

A Reading in Arnold Toynbee's Interpretation

د. رحماني فاطمة الزهراء

D. Rahmani Fatma zohra

جامعة الجزائر ٠٢ /الجزائر

Algiers 2 university Abou el Kacem Saadallah / Algeria

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهمية التفسير الذي قدّمه المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي عن طبيعة التحديات التي واجهت الدولة العثمانية وتحكمت في مصيرها، بناء على نظريته المشهورة التحدي والاستجابة التي وضعها أساسا من أجل دراسة نشوء الحضارات وتقدمها. بالإضافة إلى محاولة الإجابة عن الإشكالية المتمثلة في مدى تفاعل الدولة العثمانية مع تلك التحديات والاستجابة لها، معتمدين في ذلك على المنهج التاريخي التحليلي الذي يقوم على جمع المعلومات حول الظاهرة التاريخية ومناقشتها وتحليلها، ومن ثم استخلاص النتائج.

كلمات مفتاحية : الدولة العثمانية، أرنولد توينبي، التحديات، الاستجابة.

Abstract:

This study aimed to highlight the importance of the explanation given by the English historian Arnold Toynbee about the nature of the challenges faced by the Ottoman Empire and its destiny, based on his famous theory of challenge and response, which he developed mainly in order to study the emergence and progress of civilizations. In addition to trying to answer the problem of the extent to which the Ottoman Empire interacts with and responds to these challenges, relying on the historical analytical approach based on collecting, discussing and analyzing information about the historical phenomenon, and then drawing conclusions.

Keywords: The Ottoman Empire; Arnold Toynbee; Challenges; The Response.

مقدمة

تشكل التحديات على الدوام اختبارا حقيقيا للإنسان، فهي تساعده على استكشاف نقاط الضعف والخلل في أفعاله فإذا ما استجاب لها بطريقة إيجابية فإنّ نجاحه سيكون أمرا محتوما، أما إذا كانت استجابته سلبية فحتما سيكون مصيره الفشل وكذلك الحال بالنسبة لأي حضارة فإنّ مصيرها يتقرر بحسب استجاباتها لتلك التحديات التي تعترض طريقها في مراحل تطورها، فإذا استطاعت تجاوزها فإنّها ستنمو وتزدهر، وقد تستمر إلى زمن طويل، وإذا عجزت عن تجاوزها فإنّها تتفكك وتندثر.

كانت هذه الفكرة محور تفسيرات المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبيArnold Toynbee لتاريخ العالم وحضاراته المتعاقبة، حيث سعى في دراساته التاريخية إلى تتبع الحضارات القديمة والحديثة والمعاصرة، وتصنيفها وتقصي مراحل تطورها والقوانين التي تحكمها من خلال اعتماده على نظرية التحدي والاستجابة ولعلّ الدولة العثمانية إحدى تلك الحضارات التي خصّها توينبي بالدراسة، انطلاقا من الفترة الزمنية الطويلة التي تواجدت بها من جهة؛ والمساحة الجغرافية الشاسعة التي تربعت عليها، والتي جعلتها تحكم شعوب ومللا متعدّدة ومتنوعة من جهة أخرى.

علاوة على ذلك؛ فإنّ الدولة العثمانية خلال مسارها التاريخي عرفت جملة من التحديات الداخلية والخارجية التي تحكمت في مصيرها سواء أكان ذلك في مرحلة النشأة أو في مرحلة الارتقاء والنضوج، أو حتى في مرحلة الانحطاط والانهيار. وبناء على ذلك تتمحور الإشكالية الأساسية لهذه الدراسة فيما يلي:كيف يفسّر أرنولد توينبي تفاعل الدولة العثمانية مع التحديات التي واجهتها؟ هل رضخت واستسلمت لها فكان مصيرها الفشل أم أنّها استطاعت مجابهتها وتجاوزها فكان النجاح مآلها؟ وإلى أي مدى ساهمت نظرية التحدي والاستجابة عند أرنولد توينبي في تقييمه للتطور التاريخي للدولة العثمانية؟

ومن أجل تحقيق الهدف العام من الدراسة اعتمدنا المنهج التاريخي لتوضيح التحديات التي اعترضت طريق الدولة العثمانية خلال مراحل تطورها الحضاري. إضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على جمع المعلومات والأفكار وتحليلها ومناقشتها ومن ثم استخلاص النتائج، وذلك عند تقصي تأثيرات وانعكاسات تلك التحديات على الدولة العثمانية، وتعامل هذه الأخيرة معها.

معتمدين في ذلك على بعض مصادر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي.

كما تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربعة أقسام، يتناول القسم الأول منها لمحة عامة عن أرنولد توينبي، بينما يتطرق القسم الثاني إلى تحدي البيئة الجغرافية وأثره في قيام الدولة العثمانية، أما القسم الثالث فيتحدث عن النكبات والضغوط ودورها في توسعات الدولة العثمانية. وبالنسبة للقسم الرابع فيعالج قضية تأثير المدنية الغربية على حركة الإصلاح في الدولة العثمانية.

لمحة عامة عن أرنولد توينبي Arnold Toynbee :

ولد أرنولد جوزيف توينبي في مدينة وينشتر بإنجلترا سنة ١٨٨٩م، درس بجامعة اكسفورد وتخرج منها سنة ١٩١١م، اهتم بدراسة الكلاسيكية اليونانية والاغريقية. عمل أستاذا بجامعة اكسفورد في الفترة ١٩١٢-١٩١٥م، ثم انتقل للعمل في وزارة الخارجية حتى عام ١٩١٩م، لينتقل للعمل بعدها في جامعة لندن في الفترة من ١٩١٩-١٩٢٤م كأستاذ للتاريخ واللغات والآداب البيزنطية الحديثة، وفي سنة ١٩٢٥م تم تعيينه باحثا ومديرا للدراسات الحضارية بالمعهد الملكي للشؤون الدولية حتى تقاعد سنة ١٩٥٥م (حطاب، ١٩٧٤م: ٢٨٩-٣١٠).

شهد توينبي تطورات العالم خلال القرنين ١٩ و٢٠م وعاشها بكل نتائجها، فقد كانت الثورة الصناعية قد بلغت أوجها واتسعت الأطماع الاستعمارية في البلاد العربية. كما عانى توينبي من نتائج الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م) وما نجم عنها من آثار سياسية واقتصادية واجتماعية سيئة على العالم، وما تركته الحروب بين المعسكرين السوفياتي والأمريكي.

من جهة أخرى؛ تأثر توينبي بالعديد من مفكري الإسلام ولعلّ أبرزهم عبد الرحمن ابن خلدون في تفسيره لأطوار الدولة، ولكنّه رأى أن يوسع دائرة النظر من الدولة إلى الحضارات وبدأ يدرس الحضارات البشرية (سلطان، ٢٠٠٥م، ص٥١) فأصدر حوالي ٥٠ مؤلفا تاريخيا أبرزها (شبل، د. ت: ٦-٧): **دراسة في التاريخ**: وهو يقع في ١٢ مجلدا صدرت ما بين ١٩٣٤-١٩٥٤م).

وقد عرّف عن أرنولد توينبي تفرده في مجال الفكر التاريخي وفلسفته، إلى جانب تفرده عن أغلب المؤرخين في عصره في كونه يقف في طليعة المفكرين الغربيين القلائل الذين عارضوا فكرة المركزية الأوروبية، والفكرة الاخرى التي تقول بتفوق العرق الأبيض. كما

كان يجل الاسلام وحضارته، فضلا عن مناهضته للصهيونية ومناصرته للقضية الفلسطينية (حسن، (١٩٧٩م: ٩-٢٠).

أما أبرز ما اشتهر به توينبي هو **نظرية التحدي والاستجابة**، حيث يرى أنّ نشوء الحضارات وأسباب بعثها إنّما تقوم أساسا على عمليات التحدي الطبيعية والبشرية التي تدفع للاستجابة والتحرك الخلاق سعيا للإقلاع الحضاري. أي أنّ الإنسان في طريقه لبناء الحضارات يواجه مجموعة من التحديات، فيتعامل معها إما باستجابات ناجحة تؤدي إلى التغلب عليها والوصول الى تحقيق النهضة المنشودة وصولا للحضارة، أو إلى استجابات فاشلة لا تؤدي إلى تحقيق النهضة والحضارة (سلطان، ٢٠٠٥م: ٥٣).

تواجه هذه التحديات في نظر توينبي كل المجتمعات بلا استثناء، والفارق الوحيد يكمن في درجة الاستجابات. وفي نفس الوقت؛ تكمن في مستويات تلك التحديات. فإذا كان التحدي قاسيا فإنّه سيكون أكبر من قدرة المجتمع؛ وبالتالي لا يمكن للإنسان أن يطور من آليات التغلب عليه. وإذا كان تحدي ضعيف؛ فإنّه غير مستفز للإنسان ليطور ذاته، وبالتالي يظل الإنسان على حاله من غير تقدم. أما إذا كان تحدي خلاق؛ فإنّه بطبيعة الحال يستفز طاقات الإنسان، فيدفعهم إلى تطوير آليات التغلب (سلطان، ٢٠٠٥م: ٥٦-٥٧). ويؤكد توينبي أنّ العلاقة بين مستوى التحديات ومستوى الاستجابات علاقة طردية أي أنّه كلما ازدادت التحديات صعوبة كلما تصاعدت قوة الاستجابات حتى تصل بأصحابها إلى ما يسمى بالوسيلة الذهبية.

وفي ذات السياق؛ صنّف أرنولد توينبي الدولة العثمانية من ضمن الدول العالمية (الجميل، ٢٠١٥م: ٧٧)، إذ دامت قرونا عدة بدءا من نهايات القرن ١٣م، وبلغت ذروة مجدها في أواسط القرن ١٦م، ثم انهارت في نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م. وخلال تلك الحقب الطويلة واكب تاريخها عهود إمبراطوريات ودول ومجتمعات في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وشهدت تحولات تاريخية من العصور الوسطى المتأخرة إلى امتداد التاريخ الحديث حتى فاتحة التاريخ المعاصر في بدايات القرن ٢٠م. خصوصا في عهود أقوى حكامها من محمد الثاني الذي فتح القسطنطينية في عام ١٤٥٣م وسليم الأول الذي غزا مصر والشام وأدخل معظم البلدان العربية إلى ملكه وصولا إلى حفيده سليمان القانوني الذي كان الأب الحقيقي لقوانين الدولة في أواخر القرن ١٦م)الجميل، ٢٠١٥م: ٧٥).

لكن الدولة العثمانية اعتبرت متوقفة عن النمو حضاريا عند توينبي عندما ضعفت قوة العثمانيين وفقدوا قدرتهم على المحافظة على ما وصلوا إليه، ورغم أنّهم حاولوا مرة بعد أخرى إعادة الماضي إلى ما كان عليه، إلاّ أنّه شيئا فشيئا أخذت حضارتهم تجهد وتتحول إلى حضارة متحجرة، ومرجع ذلك في نظر توينبي هو تلك التحديات المصيرية التي واجهت الدولة العثمانية في مراحل تطورها الحضاري (مؤنس، ١٩٧٨م: ٢١٧).

تحدي البيئة الجغرافية ودوره في بناء الدولة العثمانية

شكلت البيئة الجغرافية التي نمت فيها الدولة العثمانية في نظر توينبي تحدّيا كبيرا لها، ذلك لأنّها تواجدت في منطقة غير المنطقة التي تنتمي إليها. حيث نشأت في الاناضول بعد أن لجأت إليها جماعة تركمانية يتزعمها أرطغرل من وسط آسيا، وذلك نتيجة للغزو المغولي الذي اجتاح حدود المجتمع الإيراني الشمالية. ولم تكن منطقة الاناضول خالية بل كانت تتواجد بها العديد من الإمارات التركمانية والاسلامية والبيزنطية، إلى جانب السلطنة السلجوقية التي كانت تعتبر أقوى القوى منذ القرن ١١م (توينبي، ٢٠١١م، ج ١: ١٨٨). وعندما انهارت هذه الأخيرة خلال القرن ١٣م كان العثمانيون أحد ورثتها، حيث حصلت على قطعة من الارض على حافة الهضبة الأناضولية الشمالية الغربية للاستقرار بها. لكن ذلك في نظر توينبي لم يكن سوى فضلات الملك السلجوقي تحصل عليها العثمانيون لكونهم آخر الوافدين، مع مجيئهم إبان ظروف متواضعة (توينبي، ٢٠١١م: ١٨٨). أضف إلى ذلك؛ أنّ قطعة الأرض التي حصل عليها العثمانيون للاستقرار، كانت محاذية للأراضي التي ما فتئت الإمبراطورية البيزنطية تحتفظ بها على شواطئ بحر مرمرة الآسيوية، (وهو موقع مكشوف اصطلح تسميته بـ: سلطان أونو (توينبي، ٢٠١١م: ١٨٨).

رغم التحدي الذي فرضته البيئة الجديدة للدولة العثمانية، إلاّ أنّها كانت عوامل محفزة ومسهلة، إذ وفرت فرصا وإمكانيات للعثمانيين. ويقول توينبي أنّ استجابة العثمانيين لهذا التحدي ظهر في البداية من خلال منح اسم لتلك الجماعة التي لجأت إلى منطقة الأناضول بقيادة شخص يدعى أرطغرل، والتي (لا اسم لها: شذرة لا يؤبه لها من الحطام البشري) (توينبي، ٢٠١١م: ١٨٨)، واستقرت بقطعة الأرض التي منحها لهم السلطان السلجوقي. فقد استطاع عثمان الأول ابن أرطغرل من تشكيل الإمارة

العثمانية والتي تسمت باسمه.

من جهة أخرى؛ كان التحدي الجغرافي عاملا أساسيا في توسع الدولة العثمانية وبالتالي انتقالها من مستوى الجماعة إلى إمارة بكيانها السياسي وحدودها الجغرافية. حيث أخذ العثمانيون في توسيع حدودهم على حساب جيرانهم. وهنا يبين توينبي أنّ عملية التوسع العثماني قد اتخذت اتجاهين: آسيا الصغرى والبلقان وذلك على حساب الدولة البيزنطية والإمارات التركمانية وريثة الدولة السلجوقية المتهاوية والممالك البلقانية. إذ تم في ظل إمارة عثمان ثم ابنه مراد الأول فتح أهم المدن البيزنطية مثل: مدينة بروصة البيزنطية ما بين (١٣١٧ - ١٣٢٦م)، وكذلك مدينة إزنيق في سنة ١٣٣١م، وإزمير سنة ١٣٣٧م. ليتمكن العثمانيون في غضون ثلاثين عام من وضع أقدامهم على الشاطئ الأوروبي للدردنيل وفي أوروبا أين صنعوا مستقبلهم. بل إنّهم قبل نهاية القرن ١٤م، غزوا العديد من الجماعات التركية التي كانت متواجدة في الأناضول مثل القرمانيين، وفي نفس الوقت تمكنوا من إخضاع الصرب واليونانيين والبلغاريين (توينبي، ٢٠١١م: ١٨٩).

ونتيجة للتوسعات العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان، فإنّ الدولة العثمانية أصبحت تضم العديد من الشعوب والأجناس والأعراق التركمانية والإسلامية والبيزنطية وغيرها. الأمر الذي أوجد نوعا جديدا من التحديات تمثل في كيفية إخضاع هذه الشعوب، (خاصة وأنّ فرض سلطان حضارة غريبة على مجتمع برّمته لهو أصعب واجب أو عبء قد يجابه الغازي البدوي) (توينبي، ٢٠١٤م: ٣٢١).

وقد تطلب تحقيق هذا العمل الجريء - في نظر توينبي - من عثمان وخلفائه إلى سليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) إظهار أسمى ما يحوز عليه البدوي من قوى وملكات اجتماعية (توينبي، ٢٠١٤م: ٣٢١). ولكي يتمكن العثمانيون من السيطرة على هذه الجماعات المتنوعة والمختلفة، لجئوا إلى ابتكار نظام يقوم على تدريب عبيد مساعدين لهم في استتاب نظام الحكم العثماني وإخضاع الشعوب، أطلق عليه توينبي اسم نظام الرّق العثماني (توينبي، ٢٠١١م: ٣١٩).

يقوم نظام الرّق العثماني في نظر توينبي على عنصرين أساسيين: هما الجيش العثماني والموظفون الإداريون، فقد شكل كلّ منهما أداة طيعة في يد السلاطين العثمانيين. أما فيما يخص الجيش، فيرى توينبي أنّ الدولة العثمانية في بداية نشأتها لم تكن تملك

جيشا، بل كان لديها فرق من الفرسان الإقطاعيين ينفق عليها من واردات الإقطاعيات التي لا تورث. ثم بدأ العثمانيون يفكرون في إيجاد جيش للدولة، فلجأوا إلى تشكيله إما عن طريق شرائهم أو أخذهم من أسرى الحرب. لكن مع أواخر القرن ١٤م أخذ العثمانيون في تشكيل الجيش العثماني عن طريق نظام الدفشرمة وهو أخذ الغلمان من الصرب والكرواتيين والألبان، وتدريبهم على فنون القتال وتعليمهم الإسلام وعلومه (توينبي، ٢٠٠٤م: ٥٦٠).

كان الجزء الأكبر من هؤلاء الغلمان يستخدمون في الجيش، وقد عرّفوا باسم يني تشاري (ومنها الإنكشارية بالكلمة العربية). أما الجزء المتبقي فكان يخضع لنظام تعليمي محكم (توينبي، ٢٠١٤م: ٢٩٢)، وذلك من أجل أن يتم اختيارهم من قبل السلطان كموظفين ومدبرين لسلطنته. الأمر الذي جعل المناصب الإدارية حكرا على الأرّقاء المسيحيين بدل أبناء النبلاء العثمانيين المسلمين، وهذا النظام بكامله بناء على توينبي كان أحد عوامل نجاح العثمانيين (توينبي، ٢٠١٤م: ٣٢٠).

بناء على ما تقدّم؛ يعتبر توينبي أنّ اتخاذ العثمانيين لنظام الرّق قد كان سببا في بقاء الدولة العثمانية زمنا طويلا. (كما أنّ هذا النظام كان أقرب شيء في الحياة الواقعية الذي يمكن أن تتحقق به مثالية جمهورية أفلاطون) (توينبي، ٢٠١١م: ٢٩٨). لكن بالمقابل؛ اندثر هذا النظام وكان سببا في انحلال الدولة العثمانية، وذلك نتيجة لافتراض العثمانيين وجود طبيعة حيوانية في البشر عوضا عن طبيعتهم البشرية قادهم إلى طريق الانحلال (توينبي، ٢٠١١م:٣٠٥). (فقد فرّق نظام الرّق العثماني الناس المتجانسين تجانسا طبيعيا إلى طوائف بشرية تعامل كما لو أنها تنتسب إلى انواع مختلفة من الحيوانات، ولأنّ السكان الخاضعون للعثمانيين فقدوا نصف آدميتهم بسبب معاملة أسيادهم كقطيع) (توينبي، ٢٠١١م: ٣٠٤). وبذلك كان نظام الحكم العثماني في نظر توينبي يتكون من ثلاثة عناصر الراعي وهو السلطان، الماشية وهي الشعوب التي خضعت للدولة العثمانية، وكلب الحراسة وهو الجيش العثماني.

من زاوية أخرى؛ يعزو توينبي اندثار نظام الرّق العثماني إلى سياسة التسامح التي انتهجها السلاطين العثمانيين في تطبيق القوانين الأصلية على الوظائف العامة. ففي أواخر القرن ١٦م وبالتحديد في عهد كل من

سليمان القانوني (حكم ١٥٢٠ - ١٥٦٦م) وسليم الثاني ومراد الثالث (حكم ١٥٧٤ - ١٥٩٥م)، فتحت أبواب القبول في كتائب الإنكشارية لأبناء جنود الإنكشارية، ولجميع المسلمين الاحرار عدا الزنوج بعد ان كان ذلك غير مسموح به من قبل. الأمر الذي أدى إلى ازدياد عدد الإنكشارية، حيث ارتفع من ١٢ . ٠٠٠ جندي إلى ١٠١ .٦٠٠ جندي بين سنتي ١٥٦٦ و١٥٩٨م (توينبي، ٢٠٠٤م: ٦٠٨).

مع هذا التضخم لم يعد في مقدور الدولة دفع مرتبات هؤلاء الجنود، فتحولت الإنكشارية من قوة محاربة فعالة وداعمة للسلطة العثمانية إلى فئة مدنية مشاغبة، عملت على تخريب الدولة العثمانية. وقد عبّر توينبي عن ذلك بقوله: (ولا بدع أن ترتد كلاب الحراسة البشرية هؤلاء في منتصف القرن ١٧م إلى طبيعتها، فإذا بها تنكفئ إلى ذئاب تنهب ماشية السلطان البشرية عوضا عن توليها حراستها وحفظ النظام بينها) (توينبي، ٢٠١٤م: ٢٩٧).

ومن هنا؛ يعتقد توينبي أنّ النظام العثماني ظل سليما عندما كان يستمد أتباعه الجدد من مختلف مصادر التوريد غير المسلمة بوساطة الأسر في الحرب والشراء من سوق الرقيق أو الانضواء الإرادي في الصفوف، ومن داخل الإمبراطورية عن طريق جمع الأطفال دوريا بطريقة القرعة (توينبي، ٢٠١١م: ٢٩٢).

بالإضافة إلى النظام التعليمي الذي كان يخضع له المجندون والقائم على الاختيار والتخصص في كل مرحلة، فضلا عن النظام العقابي الصارم. ويشير توينبي في هذا الصدد إلى نقطة مهمة جدّا ألاّ وهي تعمد العثمانيين لاستثارة الطموح لدى كل طفل ينخرط في سلك أسرة رقيق السلطان العثماني، بأنّه قد يصبح وزيرا أكبر في يوم من الأيام (توينبي، ٢٠١٤م: ٢٩٢).

٣. النكبات والضغوط ودورها في تقوية الدولة العثمانية:

يعتبر توينبي تحدي النكبات من التحديات الجديرة بالاعتبار، لأنها قد تدفع الشعب المنكوب بالهزيمة والدمار إلى استعادة عافيته بعد فترة. وهذا ما حدث بالتحديد مع العثمانيين بعد هزيمتهم على يد تيمورلنك في معركة انقرة سنة ١٤٠٢م، إذ كادت أن تتصدع الدولة العثمانية بعد هذه المعركة. فبالإضافة إلى الهزيمة التي حطمت القوة العثمانية وهيبتها، شهدت الدولة صراعا حادا بين الإخوة الأمراء على الحكم، دام لأكثر من عقد كامل من السنوات ١٤٠٢ - ١٤١٣م، وهي

الفترة التي يسميها توينبي" بفترة الدرقة)"الجميل، ١٩٩٧م: ٥٥). لكن بالمقابل؛ كانت تلك النكبة سببا في اعتلاء السلطان محمد الأول العرش ليحكم الدولة للفترة ١٤١٣ - ١٤٢١م بعد أن اعترف بسلطته، فقد أعاد تجميع الأملاك الأوروبية والأسيوية تحت حكمه (توينبي، ٢٠٠٤م: ٥٥٦). كما كانت سببا في مواصلة الفتوحات العثمانية في أوروبا التي توجت بفتح القسطنطينية أخر معقل مسيحي للإمبراطورية الرومانية.

وتعدّ الضغوطات هي الأخرى - في نظر توينبي - إحدى أهم التحديات التي واجهت الدولة العثمانية، لا سيما الضغط الصفوي الذي برز في الفترة الممتدة ما بين ١٥١١ - ١٥١٤م. وذلك عندما ظهر الشاه إسماعيل الشيعي الذي أخذ في التوسع على حساب الأراضي العثمانية والسيطرة عليها ونشر المذهب الشيعي على حساب المذهب السني. وربما وجد إسماعيل شاه في خصمه السلطان العثماني بايزيد الثاني المتسامح اللين ما شجعه على تحطيم الجمود الذي ران على السياسة العثمانية تجاه حدودها الشرقية (النبراوي وآخرون، ١٩٨٣م: ١٣٠ - ١٣١).

لكن العثمانيين سرعان ما استجابوا لهذا التحدي وأخذوا في مواجهتهم، وذلك عندما ظهر السلطان سليم الاول الذي شكلّ مصدر خوف لإسماعيل الشاه (توينبي، ٢٠١١م: ٥٥٦). حيث وجد السلطان الجديد أن سياسة الدولة العثمانية التقليدية التي درجت على المهادنة في آسيا لم تعد تتلاءم مع ظهور خطر الصفويين وتهديدهم للحدود الآسيوية للدولة العثمانية بخططهم القائمة على التمهيد للغزو المسلح بنشرهم دعاية دينية وسياسة معادية (النبراوي وآخرون، ١٩٨٣م: ١٣٣).

وكان وقوع الحرب بين الدولتين الصفوية والعثمانية أمرا محتما ولا يمكن تلافيه، وذلك ما حدث بالفعل في عام ١٥١٤م حيث التقى الجيشان الصفوي والعثماني عند جالديران فكان النصر حليف العثمانيين (النبراوي وآخرون، ١٩٨٣م: ١٣٣). وكسر الفرس إلى حد أنّهم كانوا (الى سنة ١٥٥٥م) لا يزالون يحسون بالضربة، واحتل العثمانيون ديار بكر (١٥١٦م) والعراق (١٥٣٤م) (توينبي، ٢٠١١م: ٥٥٦). وكان بإمكان السلطان سليم الأول متابعة السير شرقا، لكن ذلك لم يحدث نتيجة لعصيان الجيش الإنكشاري عن مواصلة الغزو في الميدان الآسيوي (توينبي، ٢٠١١م: ٥٥٦). وفي هذا الشأن يفسّر توينبي سبب عصيان الجيش بأنه (كان أوروبيا قلبا وقالبا ومن العسير عليه أن يستوطن أرضا آسيوية، فهو

عندما اتجه صوب الشرق، وراء الحدود القديمة للمجتمع الأرثوذكسي المسيحي في الاناضول فإضافة إلى صعوبة اختراق الهضبة الإيرانية وسياسة الأرض المحروقة التي اتبعها الشاه الصفوي بعد انسحابه شعر بأنه غريب تماما عن تلك البلاد) (عمر، د. ت، ص ٧٠)، لهذا ضغطت الإنكشارية على السلطان سليم الاول للانسحاب إلى المعاقل الشتوية في الأناضول الوسطى. وأثناء عودة الجيش العثماني استولى سليم الاول على المدن الواقعة على طريقه وكان على رأسها إمارة البستان وذي القادر وهي المناطق التي كانت تفصل بين الدولة العثمانية ودولة المماليك شرقي وغربي الفرات، فأصبحت الدولة العثمانية بحدودها الجديدة في مواجهة دولة المماليك (غربي، ٢٠٠٧م: ٥٨).

لم يحسم الصراع العثماني - الصفوي بعد معركة جالديران، فقد كان الموقف العسكري كما يشير توينبي مائعا راكدا إذ لم يؤد إلى انهيار الدولتين؛ بل اتضح لهما أن سقوط احداهما سقوطا مباشرا أمر يتعذر لذا لابد من اللجوء الى وسيلة جديدة، ألا وهي محاولة إحدى القوتين الكبيرتين قلب ميزان القوى لصالحها بنقل الصراع الى خارج إيران أو الاناضول، وان يجد هذا الصراع لنفسه مجالا في المناطق الواقعة بينهما ولم تكن تلك المناطق سوى الأقطار العربية (أحمد، ٢٠٠٥م: ٢٥).

وبالتالي يعتقد توينبي أنّ التوسع العثماني في الأقطار العربية ماهو إلاّ مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بقصد السيطرة على منطقة الشرق الأدنى (أحمد، ٢٠٠٥م: ٢١). وهذا معناه أن السلطان سليم الأول كان مدفوعا نحو فتح بلاد الشام بعوامل سياسية تجاه الدولة الصفوية، أي ليمنع وصولها إلى البلاد العربية وليضع حدا انتشار المذهب الشيعي خارج الحدود الإيرانية (غربي، ٢٠٠٧م، ص ٥٩).

وبتوجه العثمانيين نحو العالم العربي، اصطدم هؤلاء بطرف منازع جديد ألاّ وهو المماليك الذين كانوا يحكمون مصر وسوريا. ويفهم من كلام توينبي أنّ هؤلاء المماليك لم يمثلوا خطرا كبيرا على الدولة العثمانية مثل الصفويين، الأمر الذي جعل العثمانيين يسمحون لأولئك المماليك بالإبقاء على كيانهم كما كانوا من قبل بنفس الأساليب من التدريب وبالاستمرار على تكثير صفوفهم من نفس مصادر الإمدادات للرّق. لكنّ بالمقابل؛ يشير توينبي إلى أنّ سياسة التسامح هذه قد أتاحت الفرصة للمماليك

بتولي زمام الأمور وذلك بعد تدهور قوة العثمانيين، فأصبح السلطان العثماني في القرن ١٨م في الواقع سجينا رسميا عند المماليك (توينبي، ٢٠١٤م: ٣٢١).

ويبقى النزاع العثماني - المملوكي في نظر أرنولد توينبي مستمرا إلى غاية أواخر القرن ١٨م وفي مطلع القرن ١٩م، وذلك بعد ظهور الخطر الاوروبي الذي أوجد مسألة شغلت العقول وهي هل سيعود التراث العثماني في مصر إلى المماليك أو أنّه سيصير إلى بعض الدول الاوروبية - فرنسا النابوليونية أو إنجلترا. ولكن الواقع أنّ كلا هذين الاحتمالين قد قضت عليهما عبقرية مسلم ألباني مغامر وهو محمد علي باشا (توينبي، ٢٠١٤م: ٣٢١).

لكن في المقابل؛ يعترف توينبي بأنّ الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة في التاريخ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية. كما أنّ جميع الأقوام الناطقة باللغة العربية اجتمعت تحت راية واحدة. ويسترسل قائلا: إن أيا من الدول الأوروبية الاستعمارية التي اخذت مكان الدولة العثمانية سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستقرة كما أدارتها الدولة العثمانية، فهذه الدول عندما استولت على تلك الاقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة، على الرغم من أن استيلائها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى. ويضيف توينبي أن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت غير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا، وإن الدولة العثمانية هي الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية (أورتونا، ١٩٨٨م: ٠٩).

تأثير المدنية الغربية على الدولة العثمانية:

لاحظ توينبي أنّه عندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وازدهارها، لم تكن تواجه أي مشكلة في صراعها مع الغرب الاوروبي. إذ كانت الطرف المسيطر والمتفوق والمنتصر، بينما كان الغرب الطرف المدافع في وجه الهجوم العثماني سواء على مستوى الجبهة البحرية القديمة في البحر الأبيض المتوسط، أو الجبهة البرية الجديدة في حوض الدانوب. وحتى بعد فشل محاصرة العثمانيين لفيينا سنة ١٦٨٣م، لم يبدر أي هجوم معاكس غربي على الدولة العثمانية، واكتفى الغرب بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية (توينبي، د. ت: ص ٢٥).

ويفسّر توينبي هذه الخطة الدفاعية بأنّها لم

تكن سوى استراتيجية من قبل الغرب اتخذها من أجل السيطرة على المحيط والعالم الإسلامي (الخوري، ١٩٥٦م: ٧٢). ففي الوقت الذي استولى فيه العثمانيون على الموانئ الجنوبية في شبه جزيرة القرم سنة ١٤٧٥م وقبلت دولة التتار هناك سلطة العثمانيين، استولى امبراطور روسيا ايفان الرابع (الرهيب) على قازان (١٥٥٢م) واسترخان (١٥٥٦م)، وبذلك فصل بين العثمانيين وخانات ازبك (ما وراء النهر). وفي الوقت الذي فتح فيه العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، سقطت غرناطة في الأندلس سنة ١٤٩٢م على يد الاتحاد المسيحي القشتالي الأراغوني. ولمّا استولى العثمانيون فيما بين ١٥١٦ - ١٥١٧م على مصر وقضوا على دولة المماليك، سيطر البرتغاليون بين ١٤٩٨م و١٥١٥م على القيادة البحرية للمحيط الهندي، وبذلك لم يستطع العثمانيون - كما فشل المماليك من قبل - في انتزاع القوة البحرية من أيدي البرتغاليين، مع أنهم كانوا يرتكزون إلى الخطوط الداخلية في حروبهم (توينبي، ٢٠١١م: ٥٦١).

زيادة على ذلك؛ في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تتوسع في فتوحاتها، كان الغرب يعمل على تطوير نفسه والتقدم في جميع مجالات الحياة. الأمر الذي أدى في الأخير إلى انقلاب موازين القوى لصالحه، كما أصبح يتوجب على الدولة العثمانية مواجهة المدنية الغربية، خصوصا بعد أن تداعت قوتها وتوالت هزائمها على الساحة الأوروبية. فراحت تقلّد أوروبا عسكريا، على اعتبار ان انتصار الغرب على بقية العالم كان عسكريا أصلا. فكانت أول محاولة للعثمانيين في أيام السلطان سليم الثالث (حكم ١٧٨٨ - ١٨٠٨م) ثم في عهد السلطان محمود الثاني (حكم ١٨٠٨ - ١٨٣٩م)، كما ظهرت محاولات إصلاحية تبناها ولاة الأقاليم التابعة للدولة العثمانية مثل محمد علي باشا في مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) وباي تونس (١٨٤٠م وما بعدها) (توينبي، ٢٠٠٤م: ٦٢٠).

ومع أنّ هذه المحاولات كانت ناجحة إلى حد ما، غير أنّها لم تكن علاجا على الإطلاق من وجهة نظر توينبي؛ لأنّها اقتصرت على المجال العسكري دون المجالات الأخرى. وبالتالي لم يدرك العثمانيون أنّ التفوق الغربي على بقية العالم لم يكن في استخدامه للأسلحة الحديثة والتدريب الغربي، كما لم يكن في التكنولوجيا المدنية التي تزود المعدات العسكرية، وإنّما كان يكمن في الأخذ في الاعتبار كل مقومات الفكر والروح في

المجتمع الغربي (شلبي، ٢٠٠٠م: ٨٥). ذلك لأنّ (فن الحرب في الغرب ما هو في الواقع إلا أحد وجوه طريقة الحياة الغربية. وأي مجتمع غريب يرغب في تعلم هذا الفن دون أن يحاول تبني طريقة العيش نفسها يكتب له الفشل حتما. وعلى العكس إذا نجح أي ضابط آخر غير غربي، في السمو بحياته إلى مستوى حياة الضابط الغربي، فذلك لن يتم بقراءة الكتب العسكرية والقيام بالتدريبات التابعة لذلك بل باعتناقه مبادئ الحضارة الغربية) (توينبي، د. ت: ٣٠).

زيادة على ذلك؛ فإنّه لم يكن في هذه المرحلة لدى أقوى أنصار التغريب عزما اتجاه الحضارة الغربية، إلا ميل محدود لهذه الحضارة الغربية. حيث كانوا يرغبون فقط في تناول الجرعة الضرورية من الثقافة الغربية للإبقاء على حياة رجل أوروبا المريض، والدفاع عنه ضد الدول الغربية كالنمسا أو ضد دول في طريق التغريب مثل روسيا؛ في مقابل الحفاظ على الركائز الاسلامية التقليدية التي استندت عليها الدولة العثمانية. ومن هذا المنطلق ظن أولئك الأنصار أنّ بإمكانهم جعل الدولة العثمانية تصمد أمام القوى الغربية لمجرد ارتداء الجنود العثمانيين الزي العسكري الغربي واستخدامهم الأسلحة الغربية، وبمجرد تدريب الضباط الأتراك بالتدريب الغربي، الأمر الذي تسبب في إجهاض جميع المحاولات الاصلاحية التي تبنتها الدولة العثمانية (شلبي، ٢٠٠٠م: ٨٥).

ويواصل توينبي في تقييمه للإصلاحات العثمانية وتعاملها مع المدنية الغربية، فيرى أنّه كان حريا بالعثمانيين أن يسيروا على خطى الروس منذ عهد بطرس الاكبر عندما اتجهوا نحو تغريب أنفسهم (السلاح، ١٩٧١م: ٤٠٥)، فبعد أن أدركوا أنّه لكفالة النجاح للسياسة التغريبية عليهم تطبيقها لا على الجانب العسكري وحده، ولكن على جميع مرافق الحياة (توينبي، ٢٠١١م: ٣١٣). بالإضافة إلى أنّ الروس قد دافعوا عن أنفسهم ضد الغرب باستخدام أسلحته وتكتيكه ومؤسساته وايديولوجياته (توينبي، د. ت: ٢٤). بينما كان على العثمانيين إما أن يدفعوا ثمن ما ارتكبوه من خطأ حين أخذوا أقل جرعة من دواء الحضارة الغربية ويتركوا أنفسهم في طريق الانحدار، وإما أن ان ينقذوا أنفسهم من الانهيار بالتحول إلى النظام الغربي بكل عواطفهم وعقولهم وروحهم وقوتهم (شلبي، ٢٠٠٠م: ٨٥).

من جهة أخرى؛ يعزو توينبي عدم جدوى اقتباس العثمانيين للمدنية الغربية إلى المسار

الصعب الذي كان عليهم مواجهته. إذ كان لابد من التخلص من الجيش القديم من أجل تشكيل جيش جديد يخضع لتدريبات وقوانين وأساليب أوروبية. فهاهو السلطان محمود الثاني قد قضى على الجيش الإنكشاري في سنة ١٨٢٦م، وكذلك فعل محمد علي باشا في مصر حينما قضى على المماليك المصريين سنة ١٨١١م. وبفضل الجيش الجديد أثبت الجيش المصري جدارة في أعماله العسكرية سواء كان ذلك لحساب الدولة (في نجد واليونان) أو ضدها (في سوريا)، وكذلك أثبت الجيش العثماني مقدرته في الحرب التركية - الروسية (١٨٢٨ - ١٨٢٩م) (توينبي، ٢٠٠٤م: ٦٢٠).

كما لم يكن كافيا - في نظر توينبي - على السلاطين العثمانيين وولاتهم في الأقاليم العربية استقدام عدد من المستشارين والمدربين الغربيين للقيام بالعمل، بل كان عليهم إنشاء فرق من المدربين محليين كي يتولوا المهمة التي أسندت للأوروبيين. وإن استطاع السلاطين إيجاد جماعة من اليونان العثمانيين كانوا حلقة الوصل المناسبة، فإنّ والي مصر محمد علي باشا لم يتمكن من ذلك إلاّ بعد أن أرسل من أبناء البلاد طلابا الى الغرب ليتعلموا. لكن هؤلاء الذين تعلموا في الغرب كانوا يعيشون في عالمين، والعيش في عالمين تصحبه محنة (توينبي، ٢٠٠٤م: ٦٢٠)، (فتحوّلت عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية إلى فساد إبان حكم خلفاء محمد علي باشا، وأظهرت في مجملها أنّها "هجين غربي إسلامي"، يضم على السواء طائفة من أسوء مظاهر الحضارة الأصلية والحضارة المقلّدة) (توينبي، ٢٠١١م: ٣١٤).

ظلت الدولة العثمانية - في تقدير توينبي - لفترة طويلة تدبّر أمرها باقتباس الفن الحربي عن الغرب فقط، لكن سرعان ما تبنت المؤسسات البرلمانية والدستورية الغربية. وقد اعتبر توينبي هذا الاقتباس من الحسنات الثمينة التي يستطيع الغرب أن يقدمها إلى العالم (توينبي، د. ت: ٣٣)، ويعود الفضل في ذلك إلى أولئك الضباط في الدولة العثمانية الذين تعلموا في أوروبا وأتقنوا اللغات الاجنبية وقرأوا المؤلفات العسكرية الغربية، فكانوا الوحيدين الذين في إمكانهم الإبقاء على الاحتكاك الفكري مع الغرب، ليجدوا أنفسهم بعد سنة ١٩٠٨م قد أصبحوا وفد الطليعة في الطريق التحريرية الجديدة في تركيا (توينبي، د. ت: ٣١).

وقد كان أبرز أولئك الضباط الذين تسربت إلى عقولهم الأفكار الغربية أثناء دراستهم

العسكرية في أوروبا أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني مصطفى كمال أتاتورك. حيث أدرك هذا الأخير أن أنصاف الحلول في التغريب التي كانت نتائجها دائما وخيمة على بلده تهدد الآن بالقضاء التام خاصة بعد أن أصبحت الدولة العثمانية في الحضيض وأرغمت على أن تقاسم حليفتها ألمانيا مصيرها الاسود بعد الحرب العالمية الاولى، فأظهر عزما أكيدا وإرادة حديدية لإقناع مواطنيه بأنّ عليهم أن يتبعوه، وكانت طريقته تكمن في فرض طريقة العيش الغربية على الاتراك (توينبي، د. ت: ٣٢).

وبين سنتي ١٩٢٠ و١٩٣٠م وضع مصطفى كمال أتاتورك ونفذ منهجا، ربما كان أكثر ثورية من أي برنامج آخر تم تنفيذه بإصرار في بلد ما في حقبة قصيرة كهذه. فقد تم تحرير المرأة، وفصل الدين عن الدولة، واستبدال الأبجدية العربية بالأبجدية اللاتينية خلال تلك الفترة. وهنا يرى توينبي أنّ هذه الثورة لو لم تكن على يد ديكتاتوري مثل مصطفى كمال أتاتورك لأخفقت في الوصول إلى ما وصلت إليه من نتائج (توينبي، د. ت: ٣٢).

وفي تقييم توينبي لتوجه مصطفى كمال أتاتورك التغريبي الكامل وبدون تحفظ لهو توجه إيجابي وبناء، ودليل على أن هذا الصنف من القادة هم رجال دولة، وأنّ اختيارهم هذا كان انتصارا على الميول الطبيعية والتي كانت يمكن أن تعكس استجابة سلبية تجاه ما تمثله الحضارة القوية من أخطار وأن تشبهه في ذلك استجابة السلحفاة التي تنسحب وتنكمش على غطائها العظمي، أو النعامة التي تخبئ رأسها في الرّمال (شلبي، ٢٠٠٠م: ٨٦). وفي نفس الوقت، يعترف توينبي أن سياسة محاربة حضارة غربية وعدوانية بأسلحتها الخاصة سوف تثير شكوكا عميقة لدى العقول المحافظة والتي سوف تتهم رجلا مثل أتاتورك بأنّه في سبيل الدفاع عن الحصن وتقوية دفاعاته فإنّه في الواقع يبيعه، بينما كان الرد الصحيح لدى هذه العقول المحافظة على تطفل الحضارة الغربية هو التمسك بما طالبنا به الله الذي سوف يمنحنا من قوته الإلهية ما ندافع ضد أعدائنا الكفار غير المؤمنين (شلبي، ٢٠٠٠م: ٨٧).

الخاتمة:

حظي موضوع التطور الحضاري للدولة العثمانية باهتمام كبير من قبل العديد من المؤرخين الأوروبيين خاصة في مجال الدراسات التاريخية. واعتبر الكثير منهم أنّ هذا التطور قد مرّ بثلاث مراحل: النشأة والنمو، التطور والارتقاء، الانهيار والسقوط. إلا أنّ المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي ذهب إلى أبعد من ذلك، من خلال محاولة تفسيره للظروف والعوامل التي ساهمت في عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى. حيث اعتبر أنّ التحديات الجغرافية والنكبات والضغوط فضلا عن الغزو الفكري من أهم العوامل التي تحكمت في مصير الدولة العثمانية فحولتها من مجرد إمارة عثمانية إلى دولة عالمية ثم حصرتها في قوقعة التحجر.

ومن خلال ما تقدم نستنتج ما يلي:

١ . ينتمي المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي إلى المدرسة الاستشراقية المعتدلة التي تتميز بنوع من الحيادية، والبعد عن التعصب العرقي. ويظهر ذلك بشكل جليّ عندما تحدث عن توسعات الدولة العثمانية ونظام حكمها اللذين ساهما في الاخذ بها نحو العالمية، وكذلك عندما عالج طبيعة الصراع العثماني الصفوي وانعكاساته على الطرفين من جهة؛ وعلى العالم الإسلامي من جهة أخرى. لكن ذلك لا يعني أنّ توينبي لم ينساق في بعض الأحيان وراء نزعته الغربية التي اتسم بها المستشرقون عموما، وذلك حينما دعا إلى أخذ الدولة العثمانية عن حضارة الغرب قلبا وقالبا. بالإضافة إلى مدحه لمصطفى كمال أتاتورك عندما دفع بتركيا إلى التغريب وقطع الصلة مع الماضي وتراثها الديني.

٢ . اتخذ توينبي التحدي والاستجابة نمطا يفسر انتقال الدولة العثمانية من حال إلى حال، فبفضل التحديات الجغرافية والبشرية التي استجابت لها هذه الدولة بشكل إيجابي، اتسع مجالها وطال مداها في التقدم والقوة حتى مدت رواقها على بقاع واسعة، وابتلعت حضارات صغيرة كثيرة وتحولت بذلك إلى دولة واسعة أو دولة عالمية. ولكن في المقابل؛ لم تكن استجابتها في مستوى التحديات المفروضة ولذلك فشلت وتحولت إلى حضارة متحجرة، وهذا ما كان سبيلا لنشوء دولة عالمية أخرى مكانها أفادت من تراثها.

٣ . يعترف توينبي بأنّ المجتمع العثماني استطاع الانتقال من مستوى شعب رعوي وجماعات مهاجرة إلى مستوى

أرقى وأكثر استقرارا، غير أنّه تعامل مع هذا المجتمع وكأنّه عبارة عن كائنات لها حياتها الخاصة يجري عليها ما يجري على الأحياء من ولادة ونمو وشيخوخة وموت. ليس هذا وحسب؛ بل يحدد توينبي طبيعة العلاقة بين الدولة العثمانية ورعاياها خاصة غير المسلمين في نظام الرّق والعبودية. وهذا الكلام لا يتفق مع الطبيعة البشرية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، فضلا عن تناقضه مع الأسس التي ارتكزت عليها الدولة العثمانية والمتمثلة في مبادئ الشريعة الإسلامية الحقة التي حددت بدورها العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

٤ . أخذت التحديات التي تعرّضت لها الدولة العثمانية أشكالا عديدة؛ فمنها تحديات جغرافية ومنها تحديات بشرية بل وحتى تحديات فكرية، وكان النّجاح في مواجهة تحد معين يفضي إلى تحد من نوع آخر. وفي نفس الوقت كان يضعف الدولة، ذلك لأنّ كل تحد يأتي يكون أكبر مما سبقه وأشد خطورة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

توينبي، أرنولد. (٢٠٠٤م). تاريخ البشرية. نقله إلى العربية: نقولا زيادة. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.

توينبي، أرنولد. (٢٠١٤م). بحث في التاريخ، ترجمة وتعليق: طه باقر، (ج ١، ط ١). دون بلد النشر: الوراق للنشر.

توينبي، أرنولد. مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال، (ج ١ و٢ و٣). القاهرة: المركز القومي للترجمة.

توينبي، أرنولد. (دون سنة نشر). العالم والغرب، ترجمة: هاجر وسعيد الغز. دون بلد نشر: دون دار النشر.

ثانيا: المراجع:

أحمد، ابراهيم خليل. (٢٠٠٥م). تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦ - ١٩١٦م. الموصل: دار ابن الأثير.

أوزتونا، يلماز. (١٩٨٨م). تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري. (المجلد ١). اسطنبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل بتركيا.

الجميل، سيار. (١٩٩٧م). تكوين العرب الحديث. عمان: دار الشروق.

الجميل، سيار. العثمنة الجديدة القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك، (ط ١). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

حسين، محمد توفيق. (١٩٧٩م). أرنولد توينبي المدافع عن العرب في الغرب. مجلة المؤرخ العربي. (ع ٠٨). ص ٠٩ - ٢٠.

حطاب، صدقي عبد الله. (١٩٧٤م). أرنولد توينبي. مجلة عالم الفكر. المجلد ٠٥، (ع ٠١). ص ٢٨٩ - ٣١٠.

خوري، منح. (١٩٥٦م). نقد التفسير أرنولد توينبي للحضارة الاسلامية. رسالة ماجستير. الجامعة الأمريكية، بيروت.

السلاح، هاشم يحي. (١٩٧١م). المفصل في فلسفة التاريخ دراسة تحليلية في فلسفة التاريخ التأملية والنقدية. بيروت: دار الكتب العلمية.

سلطان، جاسم محمد. فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ. (ط ١). المنصورة: أم القرى.

شبل، فؤاد محمد. (دون سنة نشر). دراسة للتاريخ لأرنولد توينبي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شلبي، أمين. (٢٠٠٠م). نظرات في أرنولد توينبي. القاهرة: دار قباء.

عمر، عبد العزيز عمر. (دون سنة نشر). تاريخ المشرق العربي ١٥١٦ - ١٩٦٦م. بيروت: دار النهضة العربية.

غربي، الغالي. (٢٠٠٧م). دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي ١٢٨٨ - ١٩١٦م. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

مؤنس، حسين. (١٩٧٨م). الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. سلسلة عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

النبراوي، فتيحة وآخرون. قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر. (ط ١). الاسكندرية: منشأة المعارف.

إشكالية النهضة والتقدم في فكر الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٧-١٩٤٦م

The problem of renaissance and progress in the thought of Shakib Arslan 1867-1946

نادية طرشون

أستاذ التعليم العالي

جامعة يحي فارس – المدية – الجزائر

أمينة مولوة

طالبة دكتوراه – ل م د

جامعة يحي فارس – المدية - الجزائر

الملخص:

تهدف هذه الدراسة لإبراز ملامح فكر شكيب أرسلان وجهوده الإصلاحية الهادفة إلى تحقيق مشروع نهضوي حضاري يعيد للأمة العربية والإسلامية اعتبارها ومكانتها بين الأمم، وقد جاء هذا الطرح في ظل الانحطاط والتراجع الذي عرفه العرب والمسلمون مع نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠م، والذي قابله التفوق الذي عرفه العالم الغربي فكرياً وحضارياُ.

الكلمات المفتاحية: شكيب أرسلان، الفكر الإصلاحي، النهضة العربية، التقدم، التخلف.

Abstract:

The aim of this study is to highlight the ideas of Shakib Arslan and his reform efforts which aimed at achieving a civilizational renaissance project that will restore to the Arab and Islamic nation its status amongst nations. His project coincided with the decline and decadence of Arabs and Muslims in the late 19th and early 20th century along with the excellence of the western world in thought and civilisation.

Keywords:

Shakib Arslan, Reformist thought, Arab renaissance, Progress, Underdevelopment.

مقدمة

يعتبر "**شكيب أرسلان**" أحد أهم الشخصيات التي رسمت الطريق الفكري للنهضة العربية، فإلى جانب نشاطه السياسي ومقاومته للاستعمار الأجنبي تبنى العديد من القضايا الفكرية التي شغلت بال المفكرين ورجال الإصلاح في العالمين العربي والإسلامي منذ نهاية القرن ١٩م وبداية القرن ٢٠م بحيث هالهم الوضع المتردي الذي آلت إليه بلادهم، خاصة مع أفول نجم الدولة العثمانية وانهيارها وتهافت الدول الأوروبية على اقتسام أراضيها وتفكيك أوصالها.

ولعّلنا نجد من أهم القضايا الفكرية التي تطرق إليها قضية الانحطاط الذي عرفه العرب والمسلمون بعد أن كانوا أرقى الشعوب وأكثرهم تقدماً، ملاحظين اتساع الهوة بينهم والغرب الأوروبي الذي عرف تطوراً وازدهاراً في شتى الميادين مما أدى لاختلال موازين القوى بين الطرفين، لذلك أصبح من الضروري إيجاد حلول لهذا الوضع والنهوض فكرياً لمواجهة الهجمة الاستعمارية وإعادة أمجادهم الأولى.

بناء على ما سبق ذكره تهدف هذه الدراسة لمعالجة الجانب الفكري في شخصية "**شكيب أرسلان**" من خلال طرحه لإشكالية التخلف، ومحاولته تقصي أسباب التخلف ومن ثمة الوصول إلى تحديد الدواء المؤدي إلى العلاج وصناعة النهضة ومسايرة الركب الحضاري في مختلف أنحاء العالم.

وعليه نطرح الإشكالية التالية: ما هي المنطلقات الفكرية في مشروع النهضة العربية عند"**شكيب أرسلان**"؟ ما هي الأسباب التي أدت إلى تخلف العرب والمسلمين وتراجعهم من بين الأمم؟ كيف يمكن الخروج من بوتقة الجهل والانحطاط؟ وما هي الوسائل المؤدية إلى النهضة؟ وإلى أي مدى ساهمت كتاباته في تنوير القارئ حول هذه القضية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية تطرقنا في: البداية إلى السيرة الذاتية لـ"**شكيب أرسلان**"، ثم أشرنا إلى مختلف العوامل والمصادر التي ساهمت في تكوين شخصيته الفكرية، لنتطرق بعدها إلى إشكالية النهضة عند "**شكيب أرسلان**" ومما جاء فيها: سؤال النهضة لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ مفهوم النهضة العربية، شروطها، ومظاهرها، وأخيراً خاتمة تضم أهم الاستنتاجات المتوصل إليها بعد الاطلاع على مختلف المصادر والمراجع التي تطرقت للموضوع.

١. السيرة الذاتية لشكيب أرسلان(١٨٦٩-١٩٤٦م)

ولد "**شكيب أرسلان**" في قرية الشويفات بتاريخ الـ٢٥ ديسمبر ١٨٦٩م الموافق لـ الأول من شهر رمضان المبارك ١٢٨٦هـ (بطي، ١٩٤٧م، صفحة ٥٦٧)، وهو ينتمي لعائلة درزية عريقة لها باعٌ في الفكر والسياسة (صغيري، ١٤٣٦-١٤٣٧هـ/٢٠١٥-٢٠١٦م، صفحة ١٠٤).

تعلم مبادئ القراءة والكتابة منذ سن الخامسة ثم حفظ جانباً من القرآن الكريم، بعد ذلك التحق بمدرسة الأمريكان أين درس الجغرافيا والحساب واللغة الانجليزية (الشرباصي، صفحة ٧٧)، وفي عام ١٨٧٩م دخل مدرسة الحكمة في بيروت لإتقان اللغة العربية والفرنسية والتركية، وتكوّن على يد نخبة من الأساتذة على رأسهم"**الشيخ عبد الله البستاني (١٨٥٤-١٩٣٠م)**" الذي كان يباهي به (عمايرة، ٢٠٠٦م، صفحة ٢٠).

زيادة على ذلك نبغّ "**شكيب أرسلان**" في نظم الشعر وكتابة النثر والخطابة منذ سن الرابعة عشر حتى أصبح من أرباب الفصاحة واللسان رغم حداثة سنه، وكانت أولى منشوراته في جريدة الجنة، ثم أصدر سنة ١٨٨٧م كتابه الأول "ديوان باكورة" الذي ضمّ فيه أشعاره (أرسلان، ٢٠٠٨م، صفحة ٤٣).

انتقل شكيب أرسلان إلى المدرسة السلطانية أين تلقى فيها دروساً في الأحكام العدلية على يد "**الشيخ محمد عبده١٨٤٩-١٩٠٥م)**" الذي كان له دور كبير في صقل شخصيته الفكرية، فقد اتخذه مثلاً أعلى ورأى في أدبه وسيرته ودعوته للإصلاح وعمله لخير المسلمين طريقا يسلكها وشعارا يرمي إليه ونهجا يسير فيه، حتى غدا يقلده في خطاه وآثاره ومقالاته (الدهان، صفحة ٦٨).

دخل "**شكيب أرسلان**" حياة الوظيفة في سن مبكرة بحيث تقلد عدة مناصب حكومية كان أولها إدارة مديرية الشويفات سنة ١٨٨٧م لكنه سرعان ما استقال نتيجةً لقلة خبرته (عمايرة، ٢٠٠٦م، صفحة ١٦)، وفضّل الارتحال واكتساب معارف جديدة فكانت وجهته الأولى إلى مصر سنة ١٨٩٠م (أرسلان، شوقي أو صداقة أربعين سنة، صفحة ٠٤)، أين التقى بمجموعة من نوابغ السياسة والأدب أبرزهم: "الشيخ محمد عبده"، "**سعد زغلول١٨٥٩-١٩٢٧م)**"، "**الشيخ علي يوسف ١٨٦٣-١٩١٣م)**" صاحب المؤيد و"**محمود سامي البارودي (١٨٣٩-١٩٠٤م)**" وغيرهم (أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، صفحة ١٤).

وكانت باريس من الوجهات التي قصدها

لطلب العلاج وهناك تعرف على أمير الشعراء "أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢)"وانعقدت بينهما صداقة قوية، ثم انتقل إلى اسطنبول أين التقى بـ "السيد جمال الدين الأفغاني(١٨٣٨-١٨٩٧م)" فتبادلا عدة أفكار من بينها قضية الاستعمار الأوروبي على العالم الإسلامي وقد أعجب الأفغاني بالشاب وأشاد به، ثم عاد إلى بيروت وقد أفاد كل الإفادة من سفراته وبذلك تعمقت ثقافته واتسعت معارفه ونضج فكره.

تقلد "**شكيب أرسلان**" مناصب في الدولة العثمانية من بينها قائمقام الشوف عام ١٩٠٢م إلا أنه لم يبقى في منصبه طويلاً بسبب سوء الإدارة المحلية، ثم عمل كنائب عن حوران في مجلس المبعوثان واستمر فيه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، إلى جانب هذه الوظائف نشط "**شكيب أرسلان**" خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٤إلى ١٩٤٦م في عدة مجالات سياسية وثقافية تخص القضايا العربية والانتداب الفرنسي والانجليزي على سورية وفلسطين، ومن بين تلك النشاطات مشاركته في المؤتمر السوري الفلسطيني المنعقد في جنيف سنة ١٩٢١م بالإضافة إلى مؤتمرات دولية أخرى (الرويس، ٢٠١٤م، الصفحات ١٦-١٧).

وفي عام ١٩٢٩م أدى فريضة الحج وأقام مدة في الطائف، وبعد سنة اتجه إلى لوزان ومنها إلى باريس ثم إسبانيا وختم جولته بالمغرب الأقصى (أرسلان، سيرة ذاتية، ٢٠٠٨م، صفحة ١٣)، وفي نفس العام أي ١٩٣٠م قام بتأسيس مجلة " **الأمة العربية La Nation Arabe**" التي استمرت في الصدور حتى سنة ١٩٣٤م.

وباعتبار أن الترحال يشكل جزءاً لا يتجزأ من شخصيته قام برحلة إلى أوروبا الشرقية عام ١٩٣٢م (دراوي، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، صفحة ٤٧) زار خلالها بودابست،بلغراد والبوسنة أين اطلع على أحوال المسلمين في المنطقة، بعدها اتجه إلى سورية سنة ١٩٣٧م وألقى محاضرات على أبنائها لكن زيارته لم تدم طويلا (عمايرة، ٢٠٠٦م، صفحة ٢٦)، وتجدر الإشارة بأن قد تم تعيينه رئيسا للمجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٣٩م غير أن السلطات الفرنسية رفضت منحه تأشيرة الدخول ومنعته من ممارسة عمله رئيسا للمجمع (أرسلان، سيرة ذاتية، ٢٠٠٨م، صفحة ١٤).

عاد "**شكيب أرسلان**" إلى لبنان في ٣٠ أكتوبر ١٩٤٦م بعد أن نالت استقلالها وهناك تهافتت عليه الجموع من مختلف الأصقاع للاجتماع به والاستفادة من خبراته و تجاربه، إلا

أن المرض كان قد نال منه (عمايرة، ٢٠٠٦م، صفحة ٢٨) فقد فارق الحياة يوم ٠٩ ديسمبر ١٩٤٦م في بيته ببيروت على إثر نوبة قلبية أصابته أربعة أيام متتالية رغم محاولات الأطباء لتحسين وضعه الصحي (أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، صفحة ١٩)، مخلفاً وراءه إنتاجا غزيرا ومهما تتشرف به الأمة العربية والإسلامية، بحيث كانت له كتابات عدة في العشرات من المجلات والجرائد فضلاً عن المئات من البحوث والمقالات وآلاف الرسائل والخطب (بغداد، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، صفحة ١٨٢).

وقد اتسم أسلوبه بالفصاحة وقوة البيان، فصنع بذلك الاستثناء وغدا يعرف بين أقرانه بـ " **أمير البيان**" وهي تسمية أطلقها عليه "**السيد محمد رشيد رضا**(١٨٦٥-١٩٣٩م)" صاحب المنار لأنه جمع بين إمارتين: إمارة النسب وإمارة البيان كما عُرف بذلك لبلاغة أسلوبه وكثرة مؤلفاته (أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، صفحة ١٥).

٢. مصادر الفكر الأرسلاني

لقد ساهمت عدة عوامل متفاعلة في نحت معالم الفكر الأرسلاني وتشكيل مقوماته وتحديد اتجاهاته أهمها المناخ العائلي الذي ترعرع فيه، فقد ساهمت العائلية الأرسلانية في تهيئة "**شكيب أرسلان**" علمياً وثقافياً وذلك بتوفير الجو الملائم لتحصيل شتى أنواع العلوم والمعارف والإقبال عليها، زيادة على ذلك كان للأجواء الثقافية والحركية التي عرفتها مدينة بيروت وتنوع نشاطها الفكري في الثلث الأخير من القرن١٩م؛ إذ كانت تعج برواد العلم وجهابذة الأدب والشعر وفطالح اللغة، الأمر الذي أتاح فرصة إقامة مجالس العلم ومنتديات الأدب والشعر ومناظرات الفقه واللغة، وبذلك أصبحت مقصداً لطلاب العلم من مختلف الأمصار والأصقاع على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم، كل هذا يضاف إلى ما تزخر به من مدارس ومعاهد علم وكليات، وحركية إعلامية خصبة جسدتها الصحف والمجلات المتنوعة التي كانت تنقل الحركية العلمية والأدبية بما تفرزه من إبداعات عبر صفحاتها (بوشوشة، شكيب أرسلان مفكرا و سياسيا، ١٩٨٤م، صفحة ١٨).

كما كان لرحلاته وأسفاره بين الشرق والغرب دورٌ بارز في صقل شخصيته الفكرية سواء كانت تدخل في إطار مهمات رسمية أو سياحية، فقد أفاد منها كل الإفادة بحيث تعمقت ثقافته واتسعت معارفه ونضج فكره، من خلال الاطلاع على المخطوطات العربية النفيسة التي تؤلف ثروة الأمة العربية الأدبية،

العلمية والحضارية، فاستفاد منها وسعى لإفادة قومه من خلال تحقيقها والتعريف بها وتقيمتها بإضافته للحواشي، والتعاليق، وشروح مبهماتها وغوامضها (بوشوشة، شكيب أرسلان مفكرا و سياسيا، ١٩٨٤م، الصفحات ٢٠-٢١).

بالإضافة إلى ما سبق ذكره لعبت عوامل أخرى دوراً في تكوين "**شكيب أرسلان**" الفكري منها اعتكافه على قراءة المصادر العربية والأجنبية القديمة والحديثة، بحيث ساهمت " **المصادر العربية**" في إثراء رصيده وبلورة معالم فكره وتحديد اتجاه وأبعاده، فقد اغترف من مصادر "**التراث العربي الإسلامي**" على تنوعها في اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع والفقه، وتأثر بأساليب أصحابها فأقبل على مطالعة رسائل "**أبي إسحاق الصابي (ت٣٨٤هـ)**"، وآثار "**عبد الله ابن المقفع (ت١٤٢هـ)**"، وكتابات "**أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)**"، وموسوعة "**أبي الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)**" وغيرها، بالإضافة "**المصادر التراثية التاريخية**" على غرار كتابات "**ابن خلدون** (١٣٣٢-١٤٠٦م)"، و"**شمس الدين ابن طولون**(١٤٧٥-١٥٤٦م)"و "**النجم الغزي** (١٥٧٠-١٦٥١م)" وغيرهم (بوشوشة، شكيب أرسلان مفكرا و سياسيا، ١٩٨٤م، الصفحات ٢٢-٢٦).

زيادة على ذلك اطلع شكيب أرسلان على معالم الفكر العربي الحديث واتصل بأعلامه وربط علاقات صداقة متينة مع رواد النهضة والإصلاح أمثال: "**جمال الدين الأفغاني**" و"**الإمام محمد عبده**" و"**السيد محمد رشيد رضا**" وغيرهم كما أقبل على متابعة الصحف والمجلات العربية التي كانت تزخر بمقالات ثرية متنوعة في الأدب والشعر والتاريخ والإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي، كما انكب على مطالعة كتابات معاصريه من المفكرين والأدباء والشعراء واللغويين والمؤرخين على غرار كتابات "**أحمد فارس الشدياق** (١٨٠٤-١٨٨٧م)"، وأشعار "**محمود سامي بارودي**" و"**أحمد شوقي**" وغيرهم (بوشوشة، شكيب أرسلان مفكرا و سياسيا، ١٩٨٤م، الصفحات ٢٧-٢٩)

بالإضافة إلى اطلاعه على مصادر الثقافات الغربية المعاصرة ومما ساعده على ذلك اتقانه للغات الأجنبية على غرار اللغة الفرنسية، الانجليزية، التركية والألمانية، ومكنته زياراته إلى مختلف البلدان من مطالعة الكثير مما جادت به أنامل المفكرين والأدباء الغربيين، وأكثر ما تأثر به كتابات الفرنسيين القدامى والمحدثون فقرأ لـ: "فولتير Voltaire(١٦٩٤-١٧٧٨م)"و "لويس راسين Louis Racine

"(1692-1763)" و"بلزاك Balzac -1850) 1799) " و" أناتول فرانس Anatole France (1863-1921) " وغيرهم، ولم يكتف بذلك بل قام بترجمة العديد من الأعمال كرواية "وقائع آخر بني سراج" لشاتوبريان Chateaubriand (1768-1848) ".

زيادة على ذلك اطلع على أشعار الألماني " يوهان غوته Johann Wolfgang Von Goethe (1749-1832) "، كما بادر بترجمة كتاب "غزوات العرب في سويسرة" للمؤرخ "فرديناند كيللرFerdinand Keller (1842-1922)"، ولم يقتصر "شكيب أرسلان" على هذه الأعمال فقط بل سعى لإنشاء أواصر صداقات عديدة مع أعلام الفكر الغربي مثل الهولندي الأصل الأمريكي المولد والنشأة " الدكتور كرنيليوس فانديك Cornelius Van Alen Van Dyck -1895) 1818) "(بوشوشة، شكيب أرسلان مفكرا و سياسيا، ١٩٨٤م، الصفحات ٢٩-٣٠-٣١).

٣.إشكالية النهضة عند شكيب أرسلان

شهد العالم الإسلامي مع نهاية القرن ١٩م انحطاطاً شمل مختلف الميادين وعلى إثره ظهرت الحاجة الماسة إلى إصلاحات جذرية تشمل كافة شؤون الدولة العثمانية، فقد تنبه عدد من المفكرين العرب والمسلمين لضرورة البحث عن تشريعات ونظم جديدة تضمن النهضة والارتقاء محاولين بذلك التكيف مع ما يحدث في أوروبا من تقدم وازدهار وبدأت تُطرح في مجالسهم قضية أسباب التخلف العربي والاسلامي وسبل تحقيق نهضة شاملة، ولعّل شكيب أرسلان من أهم المفكرين الذين تبنوا هذه القضية وتعمق فيها ويظهر ذلك جلياً في كتاباته المتعددة (الحكيم، ٢٠١٠م، صفحة ١٢٠-١٢١).

١,٣. سؤال النهضة " لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟

لقد حاول "**شكيب أرسلان**" الإجابة عن هذا السؤال في كتابه الذي نال شهرة واسعة "**لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟**" الصادر عام ١٩٣٠م، وتعود خلفيات صدوره حسب "**الشيخ محمد رشيد**" إلى رسالة تلقاها من تلميذه "**الشيخ محمد بسيوني عمران**" إمام مهراجا جزيرة سمبسبورنيو التابعة لجزيرة جاوة الإندونيسية، يقترح فيها على " **أمير البيان شكيب أرسلان**" أن يكتب للمنار مقالة حول أسباب ضعف المسلمين في ذلك العصر وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة، وقد أُرخت هذه الرسالة بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٣٤٨ه، وبذلك أصبح سؤاله

خطاباً للنهضة العربية والإسلامية، وقد صاغ من خلاله إشكالية الإصلاح السياسي والحضاري في العالمين العربي والإسلامي (الميلاد، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، صفحة ١٢).

أشار "**شكيب أرسلان**" في البداية إلى أسباب تقدم المسلمين في العصور السابقة والتي أرجعها كلها إلى العمل بالدين الإسلامي الذي بفضله تقدم العرب وبلغت فتوحاتهم أقاصي الأرض، فإذا كان الإسلام لا يزال موجودا فأين الخلل اليوم؟

لقد أصبح السبب الذي استقام به المسلمون في الماضي مفقودا اليوم، وإن بقي منه شيء فهو كباقي الوشم في ظاهر اليد واعتبر أن المسلمين اليوم ليسوا بمسلمين حقيقيين كما أنهم لا يفقهون ولا يطبقون من دينهم سوى المظاهر بينما جوهر الدين متروك دونما تنفيذ عملي، وقد أدى تخليهم عن تعاليم دينهم إلى فساد أخلاقهم، وهنا نلاحظ مدى تأثره بأفكار "**جمال الدين الأفغاني**" الذي يرى بأن المسلمين ما صاروا أمة إلا بحسن فهمهم لدينهم وما ضعفوا إلا بانحرافهم وابتعادهم عنه، وعليهم اليوم أن يفهموا دينهم فهماً صحيحاً وأن يعيشوا وفقا لتعاليمه (طهاري، ١٩٩٩م، الصفحات ٢٣-٢٤).

زيادةً على ذلك أصيب المسلمون بمرض فقدان الثقة بالنفس والجبن والخوف بعد أن كانوا أكثر الأمم شجاعة وإقداماً، ويُعد اليأس والقنوط والاعتقاد بأن الأوروبيين أعلى مرتبة منهم ومكانة من أسباب تقهقرهم خاصة بعد الهزائم المتتالية التي منوا بها، ونسوا بأنه لا يجوز أن يدخل اليأس في قلب المؤمن، إضافة إلى خيانة بعض المسلمين لأوطانهم وتواطئهم مع الأجانب مخافة بطشهم (أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، صفحة ٨٠).

ويعد جور الحكام واستبدادهم وفساد أخلاقهم من أهم أسباب ركود المسلمين وتخلفهم، وذلك لقيامهم بمحاربة كل فكر تنويري تيقنا منهم بأن العلم يعني العدالة الاجتماعية أما الجهل فيسهل عليهم ارتكاب المظالم، وهنا يتفق "**شكيب أرسلان**" مع "**عبد الرحمن الكواكبي** (١٨٥٥-١٩٠٢م)" الذي يرى بأن الاستبداد يناقض العلم لأن المستبد يحاول إقصاء العلماء المستنيرين وإلغاء دورهم في تطوير المجتمع وتنوير الوعي، وبذلك فإن الاستبداد والعلم في حرب متواصلة وغالباً ما يّحسم الصراع لصالح الحكام المستبدين (الحميدي، ٢٠١١م، الصفحات ١٣٧-١٣٨) فقويت بذلك شوكتهم بتواطؤ فئة

من العلماء الرجعيين الذين سيطروا على مجال التعليم واكتفوا بالعلوم الدينية.

علاوة على ذلك أدى الجمود الفكري والتقوقع على الذات ونبذ العلوم الدنيوية الحديثة إلى حرمان العرب والمسلمين من ثمرات العلوم وإنتاجها وانصبت جهود العلماء الجامدين على تكرار الحقائق بلغة تقليدية صُممت لحجب وقائع الحياة من عقل المؤمن، مبررين حالة الانحطاط التي يتخبط فيها المجتمع على أنها قضاء الله وقدره مما حبب الكسل للكثير من العرب والمسلمين (الجدعان، ١٩٨٨م، صفحة ٤٥٠)، بالإضافة إلى سبب آخر لا يقل أهمية عمّا سبق يتمثل في التدخل الأوروبي في شؤون المسلمين خاصة في المشرق العربي عن طريق استغلالهم لمسألة الأقليات ودعمهم للحركات الانفصالية التي ساهمت فيما بعد بتسهيل سقوط الدولة العثمانية (يحي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، صفحة ٨٣).

٢,٣. مفهوم النهضة العربية عند شكيب أرسلان

يشير "**شكيب أرسلان**" في كتاباته إلى النهضة العربية بعبارة "**النهضة العربية الشرقية**" ويقصد هنا مصر وسورية والعراق وتركيا في الشرق الأوسط تمييزاً عن نهضات الشرق الأقصى كنهضة اليابان،والصين، وإيران، وبلاد الأفغان والهند في الشرق الأوسط (أرسلان، مقالات للمستقبل، أبحاث، خطب، وذكريات شخصية، ٢٠١٠م، الصفحات ٣١-٣٢)، ويرى بأن الشعوب تنهض بالعلم فإن وجدت "**النهضة العلمية**" جاءت سائر النهضات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية آخذة بعضها برقاب بعض والنهضة التي لا يكون عمادها العلم ما هي إلا ساعة وتضمحل (أرسلان، النهضة العربية في العصر الحاضر، صفحة ١٥).

ويعيد بوادرها إلى عهد "**محمد علي باشا** (١٧٦٩-١٨٤٩م)" معتبرا أنه أول من لحّظ الخطر المحدق بالشرق من جراء جموده على أساليب العمران القديمة، ولم يقتصر تأثير حركته النهضوية على مصر فحسب بل طالت تبعاتها إلى بلاد الشام أيام الحكم المصري ١٨٣١-١٨٤٠م، وبقيت فيها آثار الانتباه وولدت لدى سكانها نزعةً تجديدية وأخذ مفكروها ينشدون أسباب المدنية لدى الغرب (أرسلان، النهضة العربية في العصر الحاضر، صفحة ١٥).

٣,٣.شروط النهضة عند شكيب أرسلان

لقد حدد "**شكيب أرسلان**" شروطا متعددة للنهضة العربية لو أُخذت بعين الاعتبار لساعدت العرب والمسلمين على تحقيق نهضة سليمة ومتوازنة من بينها:

أخذ العبرة من الماضي أي العصر

الذهبي للحضارة الإسلامية أيام كان العرب والمسلمون متفوقين في مختلف المجالات،كما يجب عليهم الخروج من قوقعة الجهل والتخلف عن طريق اقتحام غمار العلوم بتلقي العلوم العصرية التي تفتح لهم المجال للبناء والعمران (أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، صفحة ١٢٠).

زيادة على ذلك نجده يحدد آليات لتحقيق التقدم من بينها الاقتباس من العلوم الغربية وهنا أظهر أيما إعجاب بالتجربة اليابانية التي نقلت اليابان من حياة العصور البدائية إلى أزهى معالم الرقي والحضارة مع احتفاظه بعاداته وتقاليده، بالمقابل تأسف للأفكار التي تروجتها فئة من ضعاف النفوس الذين أخذوا يبررون عجزهم وفشلهم بالغرب المتفوق (عمايرة، ٢٠٠٦م، صفحة ١٨٨).

كما أكد على ضرورة التحلي بالإرادة وروح التضحية لأن الشعوب لن تتقدم إلا إذا شعرت بالثقة وتحلت بالجرأة والتضحية، عن طريق بذل الجهد للنهوض بالأمم لأن الجرأة هي التي تسمح للإنسان لأن يدرك حقوقه ولا يتأتى له ذلك إلا بالعلم، فالأصل في الرقي هو إرادة الرقي والطريق ممهد لمن أراد ذلك ويعطي مثال "**محمد علي باشا**" الذي كان أُمياً لكنه تمكن من بناء مصر الحديثة.

علاوة على ذلك حثّ "**شكيب أرسلان**"على ضرورة الموازنة بين العقيدة والعلوم منتقدا آراء العلمانيين القائلة بأن السبيل إلى التقدم والرقي يبدأ بترك العقائد والأديان، متسائلا عن سبب تقدم اليابان السريع والمذهل وكيف أنها أصبحت أمة عصرية يضرب بها المثل ولا يقال عنها رجعية، وبالتالي فإن اتهام العرب والمسلمين بالرجعية حكم لا يستدل إلى أي دليل منطقي أو علمي وبالنسبة له فإن التمسك بالخصوصيات ومنها العقيدة لن يشكل عائقا أمام التدرج في سلم الرقي والتقدم (فايد، ١٤٣٠-١٤٣١ه/٢٠٠٩-٢٠١٠م، صفحة ٣٧٢).

٣,٤. مظاهر النهضة العربية

لقد اتخذت النهضة العربية عدة مظاهر بالنسبة لـ: "**شكيب أرسلان**" وهي كالتالي:

أولاً:النهضة العلمية

أثنى " **شكيب أرسلان** " على النهضة العلمية وشدد عليها معتبرا أنها القاعدة الأساسية التي تبنى عليها باقي النهضات بشرط أن تكون العلوم العصرية ركيزتها الأساسية، ولا بد أن "**محمد علي باشا**" قد ساهم بقسط وافر في النهضة العلمية باعتبار أن مشروعه النهضوي أخذّ منحيين هما: نشر المعرفة وتوفير القوة، كما أنه لم يرى حرجاً

في الاستفادة من علوم الغرب بحيث أرسل بعثات طلابية إلى أوروبا لتحقيق غايته المنشودة واتخذ من الأزهر معينا لتكوين الرجال وبذلك يكون قد هيأ موردا لوسائل العلم والعرفان وأنشأ المدارس العالية متمثلة في كلية الطب والهندسة، وبذلك اعتبرت مصر نواة يقظة الشرق العربي (شريف وآخرون، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، صفحة ٣٦).

فضلا عن ذلك لعبت الإرساليات التبشيرية دوراً هاماً في بلورة النهضة العلمية بعد أن وجدت قبولاً لما تقدمه من علوم ومعارف في بلاد الشام وهو ما ساهم في نشر روافد الحضارة الأوروبية، فأنشئت المدارس والجمعيات والكليات بمختلف مستوياتها أشهرها: مدرستي عين ورقة وعين طورة (ملكاوي، ٢٠١٣م، صفحة ٧٢٨)، الكلية السورية الإنجيلية ١٨٦٦م، الجمعية السورية ١٨٤٧م، جمعية الآداب والعلوم التي أسسها "**بطرس البستاني** (١٨١٩-١٨٨٣م)" وغيرها، ولما لاحظت الحكومة العثمانية هذا التطور افتتحت المكاتب الرشدية والإعدادية التي تخرج منها المحامون والأطباء وحتى الضباط في كل من العراق وسورية واليمن ومنهم من واصل دراسته في العاصمة اسطنبول (أرسلان، النهضة العربية في العصر الحاضر، صفحة ١٦).

كما عرفت النهضة العلمية انتشار الصحف والجرائد بشكل واسع فقد بلغ عددها سنة ١٨٩٢م حوالي أربعة عشرة جريدة منها المسيحية والإسلامية و ما اختص في السياسة والعلوم أشهرها:مرآة أحوال ١٨٥٥م، السلطنة ١٨٥٧م، ثمرات فنون ١٨٧٥م وغيرها، كما نشطت حركة الطباعة والنشر التي ساهمت في ازدهار حركة الترجمة، وتأليف العديد من دوائر المعارف والكتب اللغوية والأدبية (معاليقي، صفحة ٨٤)، ما أدى لازدياد حركة الوعي لدى العرب وتخرج العديد من الأساتذة والمحامين، والمهندسين والخبراء الزراعيين الذين ينافسون الأوروبيين أنفسهم (أرسلان، مقالات للمستقبل، أبحاث، خطب، وذكريات شخصية، ٢٠١٠م، صفحة ٣٩).

ثانياً: النهضة الاقتصادية

حاول "شكيب أرسلان" تقديم اقتراحات بخصوص إصلاح المنظومة الزراعية من أيام الدولة العثمانية، ورأى بأنها ترتكز حول ثلاثة أمور: إدخال الآلة الزراعية الأوروبية مثل آلة الحصاد والفلاحة، إلغاء ضريبة الأعشار على المزارعين، وإصلاح أحوال المأمورين والموظفين، وبعد الحرب العالمية الأولى ارتقت الزراعة في كل من مصر والشام والعراق وكانت مصر الرائدة في هذا المجال.

أما عن الميدان الصناعي فيرى بأنه متدهور مقارنة بالزراعة وذلك بسبب عجز الأهالي عن مضارعة الأوروبيين وعدم ألفتهم ببناء المصانع بحيث كانت صناعتهم لا تزال موروثة تعتمد على اليد العاملة وهو ما نجده في الصناعات الحريرية والقطنية في كل من دمشق، وحمص، وحلب، وجبل لبنان، كما أن الصناعة في مصر والعراق ضعفت بمزاحمة أوروبا لها في ميدان النسيج، لكن اللبنانيين تفوقوا في صناعة الحرير إلى درجة أن كانت تصدر منتجاتها إلى أوروبا (أرسلان، مقالات للمستقبل، أبحاث، خطب، وذكريات شخصية، ٢٠١٠م، صفحة ٤٢).

وكانت التجارة من اختصاص السوريين لأنها ممر القوافل وملتقى التجار من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب وهم أقوم الناس عليها لكن بعد الحرب العالمية شهدت تقهقرا وتراجعاً مستمرين.

ثالثا: النهضة السياسية

نالت النهضة السياسية نصيبها من اهتمامات"**شكيب أرسلان**" وذلك لأهميتها في خدمة المصالح الوطنية العامة للشعب خاصة بعد انتشار فكرة الاستقلال الوطني بين كافة الطبقات الاجتماعية سواء في بلاد الشام، مصر أو العراق، أما بالنسبة للبنانيين فقد كانت أشبه بإيماضات برق من بعيد أو خيالات بين المنام واليقظة.

زيادةً على ذلك انتشرت النزعة الوطنية في أنفس المشارقة دون غيرهم فالنازع الدين لم يعد مسيطرا عليهم بل حلت محله الأفكار الوطنية التي تهدف لنيل استقلال كل قطر بنفسه وإدارة أموره بيده إلى أن كادت تكون هذه المبادئ مُتبناة من الجميع وإن شذّ عنها القلائل الذين ناهضوا مبدأ الاستقلال وأيدوا الإشراف الأوروبي على شؤونهم إلى أجل غير مسمى (أرسلان، مقالات للمستقبل، أبحاث، خطب، وذكريات شخصية، ٢٠١٠م، صفحة ٤٥).

وبهذا نجد أن "**شكيب أرسلان**" قد اجتهد وقدم شروط ينبغي على المسلم والعربي إتباعها حتى يصل إلى الهدف المنشود مركزا على أهمية الدين والتمسك به في عملية النهضة وهذا باعتباره من رواد الإصلاح الإسلامي كما شدد على ضرورة الانفتاح على العلوم الغربية متحديا بذلك العلمانيين المشككين بقدرة العرب والمسلمين على مسايرة الركب الحضاري والسعي للوصول إلى مصاف الدول المتطورة.

لكن حماسته الزائدة جعلته يغفل على أن أوروبا الاستعمارية لن تسمح للعرب

بمجاراتها وتتنازل وتمنحهم أسرار تقدمها وعلومها بتلك السهولة وهي التي كانت دائما تحاول نهب خيرات العرب وسببا مباشرا فيما وصلوا إليه من تخلف وركود.

خاتمة

بناءا على ما سبق ذكره نجد بأن "**شكيب أرسلان**" واحد من المفكرين العرب الذين رسموا الطريق الفكري للنهضة العربية وذلك من خلال طرحه لمشروع إصلاحي نهضوي أظهر فيه تميزا منقطع النظير بحيث انشغل بقضية التخلف والانحطاط الذي عانت منه الشعوب العربية والإسلامية في مختلف جوانب الحياة وهي حالة لا تتناسب مع ماضيهم العريق.

علاوة على ذلك ساهمت عدة عوامل في تكوين شخصيته الفكرية وهي تتمثل في البيئة العائلية التي ترعرع فيها، مناخ بيروت الثقافي الذي احتك بأجوائه، ورحلاته المتعددة عبر مختلف البلدان الشرقية والغربية، بالإضافة إلى قراءاته المتنوعة للمصادر العربية والأجنبية القديمة منها والحديثة ما ساهم في اكتسابه لمعارف واسعة، ولا ننسى علاقاته الوطيدة بأعلام الفكر والثقافة عبر مختلف أنحاء العالم، وهو ما أدى إلى توسعة خاطره وأثرى ثقافته، وبذلك اكتسب فكره سمة التفرد بين أبناء عصره.

كما نجده في طروحاته الفكرية ومنهجه الإصلاحي متأثراً بأستاذيه "**جمال الدين الأفغاني**" و "**محمد عبده**" خاصة فيما يتعلق بقضية تخلف المسلمين وانحطاطه، ويظهر ذلك جلياً من خلال تبنيه لمشروع الجامعة الإسلامية وتأكيده على ضرورة الاحتكاك بالغرب والاستفادة من علومه فيما ينفع العرب والمسلمين.

زيادة على ذلك لا يزال السؤال النهضوي الذي طرحه: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ يتردد على امتداد هذا القرن ٢٠م ولا يزال يبحث عن إجابة شافية إلى يومنا هذا حتى يومنا هذا، وتشير العديد من الدراسات لضرورة هذا السؤال لأنه جاء من رجل له وزنه وأثره في حركة النهضة والإصلاح اجتهد في تحديد أسباب التخلف الذي عرفته الأمة العربية والإسلامية وتشخيص أدوائه، وتلمس أصول النهضة وشروطها، وأهم مظاهرها وقد لاقت أفكار "**شكيب أرسلان**" رواجاً واهتماماً في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: قائمة المصادر

أرسلان شكيب. (٢٠٠٨م). سيرة ذاتية. لبنان: الدار التقدمية.

أرسلان شكيب. (٢٠١٠م). مقالات للمستقبل، أبحاث، خطب، وذكريات شخصية. لبنان: الدار التقدمية.

أرسلان شكيب. النهضة العربية في العصر الحاضر (ط١). ٢٠٠٨م: الدار التقدمية.

أرسلان شكيب. شوقي أو صداقة أربعين سنة. أضواء السلف.

أرسلان شكيب. لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم؟ (ط٢). بيروت، لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة.

ثانياً: قائمة المراجع

بطي روفائيل. (١٩٤٧م). شكيب أرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦م. مجلة الكتاب.

بوشوشة بن جمعة. (١٩٨٤م). شكيب أرسلان مفكرا وسياسيا. أطروحة لنيل شهادة التعمق في البحث، الجامعة التونسية.

الجدعان فهمي. (١٩٨٨م). أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث. دار الشروق.

الحكيم يوسف. (٢٠١٠م). جدلية الفكر و العمل عند الأمير شكيب أرسلان (دراسة تاريخية فكرية نقدية) (ط١). الشوف، لبنان: الدار التقدمية.

الحميدي سعد تامر. (٢٠١١م). الصراع بين القوميتين العربية و التركية وأثره في انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين (ط ١). الدوحة: مطابع ريندة الحديثة.

دراوي محمد. (٢٠٠٧-٢٠٠٨م). الجزائر والجامعة الاسلامية ١٨٧٦-١٩٢٤م. جامعة الجزائر.

الدهان سامي. الأمير شكيب أرسلان حياته و آثاره (ط٢). مصر: دار المعارف.

الرويس قاسم بن خلف. (٢٠١٤م). سوانح أفكار لأمير البيان شكيب أرسلان مع موجز من سيرته. بيروت، لبنان: جداول للنشر و التوزيع.

الشرباصي أحمد. شكيب أرسلان داعية العروبة والاسلام. المؤسسة العامة للتأليف والترجمة و الطباعة والنشر.

شريف محمد بديع وآخرون. (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م). دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (الإصدار ط ٢). بيروت: دار إقرأ.

صغيري منير. (١٤٣٦-١٤٣٧هـ/٢٠١٥-٢٠١٦م). آراء أقطاب الجامعة الاسلامية وصداها في بلدان المغرب العربي جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - رشيد رضا - شكيب أرسلان نماذج. جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.

طهاري محمد. (١٩٩٩م). مفهوم الاصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده (الإصدار

ط٣). برج الكيفان، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع.
عمايرة محمد سالم أحمد. (٢٠٠٠م). شكيب أرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦م، دراسة في فكره السياسي. الجامعة الأردنية.
فايد بشير. (١٤٣٠-١٤٣١هـ/٢٠٠٩-٢٠١٠م). قضايا العرب و المسلمين في آثار الشيخ البشير الابراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخية وفكرية مقارنة. قسنطينة، جامعة منتوري.
الكتاني عبد الرحيم، بغداد عبد العزيز. (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م). المفيد في تراجم الشعراء و الأدباء و العلماء و الفقهاء. الدار البيضاء: دار الثقافة.
معاليقي منذر. معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية. بيروت، لبنان: دار إقرأ.
الميلاد زكي. (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م). سؤال النهضة لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم؟. مجلة الكلمة.
هياجنة إيمان، ملكاوي حنان سليمان. (٢٠١٣م). التبشير الفرنسي الكاثوليكي في ولاية الأناضول في القرن التاسع عشر (النشاط التعليمي نموذجا). مجلة دراسات العلوم الاجتماعية.
يحي ندى أبو رسلان. (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م). "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الأمير شكيب أرسلان جهاده السياسي والفكري. مجلة الانسان المعاصر.

تضامن حركة الشهيد عز الدين القسّام مع القضية المغربية واستلهامه تجربة الثورة الريفية في مقاومة الاستعمار (١٩٢١-١٩٣٥)

عبد الإله المنصوري
(مؤسسة محمد عابد الجابري للفكر والثقافة)

استُشهد القائد الفلسطيني عز الدين القسام قبل ٨٦ سنة، وبالضبط يوم ٢٠ نونبر ١٩٣٥. وشكلت حادثة استشهاده لحظة فارقة في النضال الوطني الفلسطيني والعربي بشكل عام، ذلك أنها شكّلت تمهيدا لقيام الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩) التي كانت بداية لظهور الكيان التمثيلي للشعب الفلسطيني الذي سيأخذ أشكالا مختلفة، بدءا بـ"العُصبة القسامية "التي شكّلها واستمر وجودها بعد استشهاده حيث قادت الثورة الكبرى، مرورا بتشكيل" اللجنة العربية العليا في فلسطين "بقيادة مفتي القدس أمين الحسيني، وانتهاء بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية مطلع الستينات من القرن الماضي.

تكمن أهمية سيرة هذا القائد أنه كان صاحب رؤية ثاقبة واجه عبْرها ثلاثة أنواع من الاستعمار؛ الفرنسي في سوريا، والإيطالي في ليبيا، ثم البريطاني/الصهيوني المزدوج في فلسطين المحتلة، وأخرج المظاهرات تضامنا مع الثورة الليبية التي قادها عمر المختار، مثلما قاد تظاهرات تضامنية مع الشعب المغربي الذي كان يواجه عدوان الاستعماريْن الإسباني والفرنسي، خاصة في مرحلة انتقاله إلى فلسطين، قبل أن يستلهم نموذج حرب التحرير الشعبية من تجربة المجاهد محمد عبد الكريم الخطابي.

النشأة والتكوين:

وُلد عز الدين القسام في بلدة" جبلة "القريبة من مدينة اللاذقية على الساحل السوري من أسرة نزح جده (مصطفى) من العراق، ليتلقى تعليمه في الأزهر بمصر حيث تأثر بأستاذه محمد عبده ودعوته التجديدية، وكذا الإرث التنويري لأستاذه جمال الدين الأفغاني .كان ذلك سنة ١٨٩٦، ليعود إلى بلدته أواخر سنة ١٩٠٦ حاملا لشهادة العالِمية، حيث فتحت أمامه مرحلة الأزهر آفاقاً جديدة؛ ففي الأزهر كان القسام وزميله الأديب عز الدين التنوخي

يُداومان على دروس الشيخ محمد عبده، ومن خلال هذه الدروس تعرفا على الشيخ رشيد رضا وغيره من أقطاب الإصلاح بمصر، فتأثر بهم حيث كان في بلدته جبلة لا يعرف غير مذهب أبيه وطريقته الصوفية القادرية.

وقبل العودة لسوريا ليخوض حربا طاحنة في مواجهة الاستعمار الفرنسي، أخذت بُعديْن اثنين؛ بُعْدٌ فكري تنويري واجه فيه نظام الباكوات والأفندية الإقطاعي الموروث عن تقاليد الهيمنة العثمانية، مُدافعا باستماتة عن المساواة وعن حقوق الفقراء والعمال والفلاحين المهضومة، وداعيا لمحاربة الأمية والجهل والخرافة في صفوف النساء والرجال . وبُعدٌ كفاحي مُسلح لطرد قوات الاحتلال الفرنسي من الشام، حيث كان يجمع الناس في خطبه التي يلقيها في جامع "المنصوري "ببلدته.

مباشرة العمل السياسي والتعبوي:

لم يستسغ عز الدين القسام تقسيم القوى الاستعمارية للعالم العربي، حيث غزا الإيطاليون ليبيا وسيطروا على طرابلس سنة ١٩١١، فقاد مظاهرات تأييد للثورة الليبية، قبل أن يقرر بعد أكثر من محاولة، جمْع المتطوعين والمساعدات والتوجه نحو ليبيا لدعم المقاومة فيها بقيادة الشهيد عمر المختار التي استمرت حوالي ٢٠ سنة، حيث كان ضمن عدد من المتطوعين العرب، نذكر منهم الأديب المعروف شكيب أرسلان، قبل العودة إلى سوريا ليستثمر خبرته التي اكتسبها هناك في المقاومة .

"كان اجتياح طرابلس الليبية حدثا مهما في عمل القسام المبكر وفي الشحنات الإيديولوجية التي أسهمت في تشكيل عالمه، ولم تكن ردة فعله محصورة بما هو متوقع من رجل دين محلي ...إنما امتدت لتكون ردة فعل عالم ما زالت نظرته لعالم الإسلام ودوره تتسع بشكل كبير، فنادى بالجهاد وجمع التبرعات لدعم جهود الحرب . " حيث قام باحتضان المتطوعين وتدريبهم وانتظروا طويلا في ميناء الإسكندرونة، ولما لم يسمح لهم بالانتقال إلى طرابلس الغرب، جمع رفاقه والأموال المتبرع بها وعاد إلى جبلة ليصرفها على أماكن للتعليم ومحاربة الأمية...

ولكن انتظارهم طال، بعد أن أمضوا في الإسكندرونة أزيد من أربعين يوما، فرجع المجاهدون إلى مدنهم وقراهم، وبنوا مدرسة بمال التبرعات لتعليم الأميين .وتؤكد رواية أخرى أن عز الدين القسام صمم على لقاء المجاهدين في ليبيا، وأن ينقل إليهم ما

استطاع جمعه من معونات مادية، وأنه انتقل سرا إلى الأرض الليبية، والتقى المجاهد عمر المختار .وهي رواية نقلها عبد الوهاب زيتون، أحد أبناء بلدته" جبلة..."

وبعد احتلال الأسطول الفرنسي مدينة اللاذقية والساحل السوري في أكتوبر ١٩١٨ خرج القسام إلى الشوارع يقود مناضلي بلدته وجميع مدن الساحل .كما أنه كان أول من حمل السلاح في وجهها، وقاد ثورة في منطقة جبل صهيون.

لكن قوة الجيش الاستعماري لم تترك له مجالا، خاصة بعد تكبيده خسارة فادحة للجيش الفرنسي في معركة" بانيا "حين قاد القسام هجوما على حاميتها ليقتل ١٧٠ جنديا فرنسيا في مارس ١٩٢٠ .وبعد هزيمة السوريين في معركة ميسلون الشهيرة (٢٤ يوليوز ١٩٢٠)، اتخذ عز الدين القسام قرارا بمغادرة سوريا المحتلة إلى فلسطين، بعد صدور حكم بالإعدام بحقه من قبل محكمة فرنسية عسكرية .كانت الخطوة الأولى هي التوجه سرا إلى بيروت، حيث كان رفيق دربه عز الدين التنوخي جاهزا لتزويده بوثائق سفر .

قرر القسام الانتقال بعدها إلى دمشق، ومنها قرر اللجوء إلى حيفا في فلسطين ليواصل فيها مشواره التنويري والتعبوي، مُدرسا أحيانا ومأذونا شرعيا أحيانا أخرى يحرض الناس على الثورة على الاستعمار أينما كان وتحرير الأرض والإنسان.

اختيار القسام مدينة حيفا:

بعد جولة له في مدن وقرى فلسطين، بحثا عن مكان ملائم لبناء استراتيجيته الثورية، قرر الشهيد عز الدين القسام أن تكون مدينة حيفا مستقرا له لبناء حركته التنويرية والكفاحية لمواجهة تحدي الاحتلال البريطاني لفلسطين ومخاطر الهجرة الصهيونية التي أخذت شكلا استيطانيا طاردا للشعب الفلسطيني من أرضه .باعتبار أن مدينة حيفا كانت ملتقى للتجارة، وكذا ملاذا للعمال والفلاحين المطرودين من أرضهم بسبب سرقتها منهم بالقوة من طرف المستعمرين الصهاينة بحماية بريطانية صارمة .وكان تنظيمه للعمال والفلاحين سابقا للإعلان عن تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني رسميا سنة ١٩٢٣، مما يشير إلى الوعي التاريخي الذي كان يملكه.

وهو ما أكده محمد عزة دروزة الذي يعتبر أحد تلامذة الشهيد القسام في" العُصبة القسامية"، قائلا: »كانت حيفا مركزاً هاماً من مراكز العمال العرب، الذين كان كثير منهم من مُشرّدي مُزارعي القرى التي بيعت لليهود

المستعمِرين وأُجْلوا عنها ... وكان لهؤلاء العمال حَيّ خاص مساكنه من التنك والخشب، فأخذ يظهر من هذه الطبقة رجال جهاد منذ سنة ١٩٣٠م حيث أخذت تقع غزوات جهادية على المستوطنين ومستعمراتهم في قضاء حيفا، فُهمَ فيما بعد أنها من جمعيات أو حلقات جهادية ..سريّة مُحكمة التشكيل."

وبعد حصول" عمال حيفا على تصريح في آذار ١٩٢٥ (بعد عام من الانتظار) لتأسيس جمعية العمال العربية الفلسطينية في حيفا، بناء على قانون الجمعيات العثماني .شجع القسام ووجّه ودعم هذه المجموعة الرائدة من عمال حيفا، التي غيرت جهودها مشهد الحركة العمالية الفلسطينية كلية وللأبد . وفي صياغته للبيان الأول لجبهة العمال العربية، دعا القسام العمال الفلسطينيين إلى الانضمام للجمعية والعمل بانسجام."

وعقب مرور ثلاث سنوات كان عدد الحلقات العسكرية التي استطاع القسام تكوينها يربو على اثنتي عشرة حلقة، كل واحدة من خمسة أفراد منفصلة عن الأخرى، أغلبهم من عمال البناء والسكك الحديدية والميناء والباعة المتجولين .ليزيد عدد أفراد الخلية في أوائل الثلاثينات ليصبح تسعة أفراد، بعد إخضاعهم لدورات تكوين وتدريب مكثفة، فكرية وعسكرية .حيث كانت طريقة عملهم تقوم على مبدإ حرب العصابات الذي استلهمه القسام من تجربة القائد محمد عبد الكريم الخطابي.

دور القسام الكبير في حركة التضامن مع ثورة الخطابي:

بالرغم من أن الشهيد القسام كان سباقا في تجربته المقاومة في مرحلته السورية على تجربة الخطابي، فقد كان لثورة القائد المجاهد محمد عبد الكريم الخطابي شمال المغرب تأثيرا واضحا عليه، خاصة بعد وصول خبر انتصارات الخطابي على المستعمرين الإسبان (ستة أشهر بعد انطلاق حركته الثورية بحكم غياب أدوات الاتصال)، وخاصة بعد الصدى الكبير الذي خلّفته معركة أنوال التي وصل صداها إلى المشرق العربي، حيث قاد القسام مظاهرات التضامن مع الثورة وجمع لها الأموال والمساعدات .وقد استمر هذا التضامن مع ثورة محمد عبد الكريم الخطابي شمال المغرب والتي عُرفت باسم" ثورة الريف "طيلة سنوات اشتعالها، قبل أن يتآمر عليها التحالف الاستعماري الفرنسي الإسباني بمساعدة فيلق من المرتزقة يقوده المارشال محمد أمزيان .وقد كان لثورة الخطابي هذا

الصدى في فلسطين الذي وصل إلى الشعر حيث صاغ الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان نشيد الثورة الريفية الشهير" في ثنايا العجاج " الذي اتخذه القائد الخطابي نشيدا رسميا للجمهورية الثورية الوليدة:

في ثنايا العجاجْ والتحامِ السيوفْ

بينما الجوُّ داجْ والمنايا تطوف

يتهادى نسيـمْ فيه أزكى سلامْ

نحو» عبد الكريمْ «الأميرِ الهمام

ريفُنا غابُنا نحن فيه الأسودْ

ريفُنا نحميه

****

كلُّنـــــا يُعجبُ، بفتى المغربِ

كلُّنـــــا يُطَرَبُ، لانتصار الأبي

أين جيشُ العِدا إن دعا للجهادْ؟

أصبحوا أعبُدا بالسيوف الحِداد

ريفُنا غابُنا، نحن فيه الأسودْ

ريفُنا نحميه

****

طالما استعبدوا وأذلّوا الرقابْ

أيها الأيّدُ جاء يومُ الحساب

فليذوقوا الزُّعافْ بالظُّبا والأَسَلْ

ولْنُعَلِّ الهتافْ للأمير البطل

ريفُنا غابُنا نحن فيه الأسودْ

ريفُنا نحميه.

وقد عاد تأثير الخطابي قويا بمناسبة تنظيم مؤتمر القدس الأول يوم ٧ دجنبر ١٩٣١، الذي كان بدعوة من مفتي القدس الحاج أمين الحسيني والزعيم الوطني المغاربي عبد العزيز الثعالبي (حضره ١٥٣ مدعوا ضمنهم شخصيتان من المغرب هما محمد بنونة والمكي الناصري)، حيث كان على رأس الشخصيات المدعوة، لولا أن الاستعمار الفرنسي منعه من الحضور بحكم خضوعه للإقامة الجبرية في جزيرة لاريونيون (La Réunion).

وكان حضور شخصيتين من مدينة تطوان لهذا المؤتمر الإسلامي الكبير وحضور الهم الفلسطيني شمالي المغرب، راجع إلى وجود تعاطف كبير مع تلك القضية هناك، الأمر الذي يفسر التحاق أفراد البعثة التطوانية للدراسة بمدرسة النجاح بنابلس سنة ١٩٢٨ . وكانت فلسطين لا تزال حينها ترزح تحت الاحتلال البريطاني .وهكذا شكلت القضية الفلسطينية محور اهتمام المغاربة منذ ذلك الحين .وأصبح العمل لنصرة فلسطين من أوجب الواجبات، وأصبح ارتباط المغاربة بالقضية الفلسطينية ارتباطا عميقا، وطدته معايشة المغاربة للقضية من خلال متابعة تاريخها والإسهام فيها، وأصبحت القضية

الفلسطينية قضية المغاربة بالدرجة الأولى، حاضرة في الوجدان المغربي، مثلما كانت فعاليات التضامن معها حاضرة في كل المناسبات.

وبعد صدور الظهير الاستعماري المعروف باسم الظهير البربري يوم ١٦ ماي ١٩٣٠ وانطلاق احتجاجات عليه في المغرب، كان لتلك الاحتجاجات صدى في فلسطين المحتلة لعب فيها الشهيد القسام دورا بارزا، خاصة مع وجود وفد من الشباب المغاربة في نابلس قدموا شهادات مثيرة عن التعاطف الفلسطيني مع محنة الشعب المغربي في مواجهة الاستعمار ومخططاته للسيطرة على البلد ومقدراته .وقد كان دور عز الدين القسام حاسما في تلك الاحتجاجات بحكم قدراته الخطابية الكبيرة والمؤثرة من جهة، وباعتبار قيادته لحركة منظمة في أهم المدن الفلسطينية حينها، عُرفت فيما بعد باسم "العُصبة القسّامية"، التي سيكون لها دور كبير ومؤثر في المشهد الفلسطيني بشكل عام.

"العُصبة القسامية "وارتباط بعض رموزها بالزعيم عبد الكريم الخطابي:

يذهب الكاتب والمؤرخ الفلسطيني بشير موسى نافع إلى وجود تأثير واضح للخطابي واستراتيجيته التحريرية على التجربة النضالية للشهيد عز الدين القسام، حيث" استحضر القسام تجربة سوريا في المقاومة ضد الفرنسيين قبل عقد من الزمن، في محاولة لإيجاد روابط مع داعمي الثورة الذين تم تجنيدهم ما بين القرويين .وإذا ما تم اعتماد خيار الثورة المسلحة .فإن القرى الشمالية هي التي ستكون قادرة على توفير المأوى ضد قوات الإمبراطورية البريطانية .لم تمر الأحداث في الجانب الآخر من العالم العربي مرور الكرام، فقد أسس القائد المسلم عبد الكريم الخطابي ثورة ذات صدى واضح ضد الإسبان، انطلقت من الريف المغربي ما بين سنوات (١٩٢٤ و١٩٢٧). ربما كانت قدرة الخطابي على تحرير أجزاء من الريف والنجاة من الهجمات الإسبانية لعدة سنوات نموذجا حيا يمكن اقتفاؤه في فلسطين."

لقد كان القسام نتاج هذه البيئة التي صنعت نموذجا جذابا في التحرير، حيث" يظهر تبني القسام للكفاح المسلح في سوريا وفلسطين، تماما مثل عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي، الطبيعة المعقدة والمتطورة لحركة الإصلاح العربي الإسلامي .لقد طور طلاب مدرسة الإصلاح العربي الإسلامي رؤية أكثر ثورية للظرف العربي بعد المصائب وخيبات

الأمل التي أعقبت الحرب العالمية الأولى . وذلك رغم اهتمامهم المبدئي بعالم الأفكار والبحث عن التغيير الاجتماعي والتعليمي."

وبعد تمادي العصابات الصهيونية في الوصول إلى فلسطين والسيطرة على الأرض فيها والاعتداء على أهلها أسس عز الدين القسام" العُصبة القسامية "التي ستقوم بدور كبير في مواجهة الاستعمار الانجليزي وعصابات المستوطنين الصهاينة .وهي التنظيم الذي كان يضم عربا (مسيحيين ومسلمين) بمذاهبهم المختلفة، يقاومون الغزو الصهيوني والاستعمار البريطاني، مثلما تتصدى الآن الكنائس العربية في فلسطين لحملة منع الآذان في المساجد الفلسطينية . وهو تنظيم بناه الشهيد القسام على أساس تجربة حرب العصابات الشعبية التي وضع أسسها الزعيم الخطابي.

ولما استوى تنظيمه العسكري على عُوده قرر الشهيد القسام بدء العمل المسلح لمواجهة الاستعمار وإسقاطه (كان قد باع منزله لكي يشتري بثمنه سلاحا لمقاومة الاستعمار)، لتبدأ صدامات كبيرة مع قوات الاحتلال البريطاني والعصابات الصهيونية التي تتقاطر على البلاد، حتى ارتقى شهيدا يوم ٢٠ نونبر ١٩٣٥ في أحراش" يَعْبُد "قرب مدينة جنين .وقد كان لاستشهاده أثرا بالغا في اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى التي استمرت ٣ سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩) وشكلت أساسا لبناء هيكل قيادي للكيان الفلسطيني يحمل لواء مقاومة الاستعمار، وكانت نقطة تحول كبيرة في مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية بعد ذلك .فقد حدد القسام مسؤوليات القادة من بعده، ووزع عليهم مناطق فلسطين، وتأخر امتداد الثورة بعد وفاة القسام بسبب مقتل عدد من القياديين في الجماعة أو اعتقالهم، وخلال الشهور الخمسة (بين وفاة القسام في ٢٠\١١\١٩٣٥م وبين إعلان متابعة الجهاد في أبريل سنة ١٩٣٦م) قام أتباع القسام بدراسة خطة عمل شاملة لاستمرار الثورة حتى تتحقق أهدافها، وقاموا بالانتشار في الجبال، وتنظيم الجماعات السرية في أنحاء فلسطين، وخصوصاً في الشمال، كما قام المثقفون من أتباع القسام بتحريض الشعب على المقاومة وعدم الاستسلام.

"وبعد استشهاده نجده حاضرا عند كل التيارات والأحزاب الوطنية والقومية والدينية: "فهناك من رأى في القسام إسلامه، وهناك من رآى نضاله، وهناك من رآى ماركسيته، وهناك من رآى القسام عضو ا في الحزب العربي، وهناك من رآه في حزب الاستقلال."

غير أن المثير في الأمر أن الارتباط بالتجربة الثورية للزعيم الخطابي لم ينته باستشهاد القائد عز الدين القسام، بل استمر مع الأطر التي نشأت في أحضان تجربة" العُصبة القسامية "وأجوائها النضالية، وهو ما يمكن تلمسه في ثلاثة نماذج على سبيل المثال لا الحصر:

الحاج أمين الحسيني: مفتي القدس والزعيم الفلسطيني الذي برزت شخصيته عقب استشهاد عز الدين القسام، حيث كان من أبرز قادة الثورة الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) التي انبثقت عنها" اللجنة العربية العليا "التي انتخبته رئيسا لها، وهو الذي سبق له دعوة الأمير الخطابي لحضور مؤتمر القدس الأول أواخر ١٩٣١ .كان أول عمل قام به هو زيارة الخطابي في القاهرة، بعد نجاح مجموعة من الشباب العرب في تمكين الخطابي من التحرر من الأسر والنزول بمصر، في عملية شارك فيها عدد من شباب الحركة الوطنية المغاربة وكذا من المناضلين العرب المستقرين بالقاهرة.

وبحلول يوم ٢٩ نونبر ١٩٤٧ كان أمين الحسيني ببيت الزعيم الخطابي بالقاهرة يطلب منه إعلان الجهاد لتحرير فلسطين باعتبار مكانته وتجربته .وهو ما قام به الأمير في خطاب شهير، مُرفِقا نداءه بابتعاث كتائب من المتطوعين العرب من المشرق والمغرب يقود إحداها الضابط المقرب منه العقيد الهاشمي الطود، خريج أكاديمية بغداد العسكرية وقائد الكتيبة ١٣ الشهيرة .وقد بلغ عدد المتطوعين من المغرب العربي فقط كما أكد ذلك علال الفاسي، خمسة آلاف متطوع وصل غالبيتهم إلى فلسطين بفعل نداء الزعيم الخطابي .وهي كتلة المتطوعين التي سيعمل الخطابي فيما بعد، على جعلها أساسا لبناء جيش تحرير المغرب العربي الذراع العسكري لـ"لجنة تحرير المغرب العربي "التي أعلن عنها في القاهرة يوم ٥ يناير ١٩٤٨ .وقد بقي مفتي القدس على علاقة وطيدة بالخطابي طيلة مُقامه بالقاهرة يأخذ برأيه ويستشيره في كل ما يتعلق بفلسطين.

أحمد الشقيري: كان أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد قرار الرئيس جمال عبد الناصر تأسيسها في قمة القاهرة ١٩٦٤، وكان ثالث ثلاثة من الذين صاغوا البيان الذي تضمّن اللاءات الثلاث في القمة العربية بالخرطوم بعد هزيمة ٦٧ (إضافة لشفيق الحوت وسعيد السبع). كان ضمن نشطاء "العصبة القسامية، وبحكم امتهانه للمحاماة، اشتهر بدفاعه عن المعتقلين من أبناء العُصبة عقب الحملة التي تعرضوا لها من

طرف قوات الاحتلال البريطاني بعد استشهاد عز الدين القسام، وكان من أبرز نشطاء الثورة الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩). حافظ على قُربه من الزعيم عبد الكريم الخطابي في القاهرة، أثناء توليه مهمة الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية .وأثناء شغله منصبا في الأمم المتحدة ركز جهوده على الدفاع عن القضية الفلسطينية وقضية تحرير المغرب العربي حيث كان ينسق مع المناضل المغربي المهدي بنونة الذي كان قد تعرف عليه أثناء دراسته بمدرسة النجاح في نابلس ضمن بعثة من الشباب المغاربة يبلغ عددهم ١٤ شابا.

سعيد السبع: مدير دائرة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير الفلسطينية وأحد مؤسسيها البارزين .أبوه هو الحاج" نمر السبع " رئيس بلدية قلقيلية المعروف بتمويله لحركة عز الدين القسام، بحيث شكل اعتقاله بعد استشهاد القسام صدمة له وهو ابن التاسعة من عمره .بدأ عضوا في حزب البعث العربي الاشتراكي واستقال منه عقب الخلاف الناشب داخله في المؤتمر الثالث (١٩٥٩) حول العلاقة بالثورة المصرية .ليغادر لاجئا سياسيا إلى القاهرة إذ كان رفيقا لصدام حسين ومجموعة من اللاجئين العرب، حيث تعرف على كثير من قادة التحرر العربي هناك، وفي مقدمتهم محمد عبد الكريم الخطابي الذي كان السبع يسمع ببطولاته وهو طفل صغير في حواريي قلقيلية .وقد كان كثير الزيارات لبيت الخطابي في القاهرة .حكى لي ابنه نضال قصة طريفة نقلها له والده سعيد، أثناء مرافقته تشييع جثمان الزعيم محمد عبد الكريم الخطابي، حيث عبر له أحد الأعضاء في حركة الضباط الأحرار الأردنيين عن إعجابه بالمقبرة التي سيُدفن فيها الأمير الخطابي، وكانت مُرتبة بشكل مبهر .وبعد أسبوع توفي هذا الضابط فأبلغ سعيد السبع الوزير كمال الدين حسين بما سمعه من ذاك الضابط، فنقل كلامه للرئيس جمال عبد الناصر، فأصدر قرارا بدفنه إلى جوار الزعيم الخطابي.

وبعد سنوات من وفاة الخطابي كانت مفاجأة سعيد السبع كبيرة حين استمع لجواب الزعيم الصيني ماو تسي تونغ أثناء استقباله لوفد فلسطيني في العاصمة بيجين سنة ١٩٧١، حين سؤاله عن استراتيجية عملية ينصح بها الفلسطينيين الذين يخوضون ثورتهم التحريرية في ظروف قاسية، فأجاب: »رفاقي الأعزاء، جئتم تريدون أن أحدثكم عن حرب التحرير الشعبية، في حين أنه يوجد في تاريخكم القريب عبد الكريم الخطابي الذي هو أحد المصادر الأساسية التي منها تعلمت حرب

التحرير الشعبية .«حيث خلف محمد عبد الكريم الخطابي تراثا مليئا بالدروس والتجارب؛ حرب العصابات وتنظيم الجيش الشعبي القادر على خوض أطول المعارك بالاعتماد على التمرين الذاتي داخل بيئة حاضنة...

أوجه التشابه بين التجربتين مغربا ومشرقا:

يشترك كل من الخطابي والقسام في عدد من الخصائص المشتركة التي أطرت شخصيتهما وتجربتهما الإصلاحية على مستويات مختلفة؛ فالرجلان مصلحان وتكوينهما الثقافي والفكري كان متشابها (تلقى الخطابي تعليمه في القرويين، في حين تلقاه القسام في الأزهر) قبل أن ينطلقا في مشروعهما الإصلاحي؛ فقد مارس الرجلان الإمامة وباشرا دعوتهما الإصلاحية التي بدأت بمنحى ثقافي إصلاحي في مواجهة الجهل والخرافة والتخلف، وانتهت سياسية وعسكرية في مواجهة الاستعمار والغزو الأجنبي .لذا دعا الخطابي إلى تعلم العلوم قائلا: "تقدموا إلى العلم لأنه كما سبق، هو منار المدنية والتقدم والنجاح ."في الوقت الذي فصل القسام هدفه في حديث له مع رفيقه محمد الحنفي قائلا: "نريد العمل لصحوة الناس، وتهييئهم للعمل، فإلى متى نظل نائمين ." لازمت مسألة الإصلاح فكر الرجلين في جميع أشواط حركتهما قبل وبعد الثورة ضد المستعمر، لهذا ستكون شخصيتهما الإصلاحية حاضرة بقوة بعد ثورتهما على المستعمر، وهذا ما سيظهر جليا في جوانب من شخصيتهما القيادية العسكرية .

على المستوى التعليمي:

عمل الخطابي على إبراز أهمية العلم والعلماء مبينا عناية خلفاء الدولة الإسلامية بالمشرق العربي بالعلم والعلماء .وبالرغم بأن الظروف لم تساعد الخطابي على العمل على هذا الجانب بشكل واضح، فإنه عمل على محاولة استقطاب مدرسين للقيام بمهمة التدريس حيث وضع هذا المشروع لدى الحكومة الريفية، وأعلن في رسالة له إلى السيد الحسن بن عبد العزيز القادر (مدير جريدة لسان الدين بالجزائر، بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٤١هـ.) أن من يصلح لهذه المهمة يمكنه القدوم إلى أجدير، وذلك بمخابرة إدارة جريدة لسان الدين.

في المقابل عمل القسام في مرحلته الأولى على إنشاء المدارس التي تعلم الكبار، وشارك في النهضة التعليمية لتعليم الصغار، كما أنشأ المدارس وحول مسجدا إلى مدرسة استقطبت الناس من كل بقاع بلدته" جَبلة ."

على المستوى الاجتماعي:

كان هناك تشابه واضح على هذا المستوى، حيث عمل الرجلان على استباق مشروعهما التحريري بالقيام بعملية واسعة لمحاربة بعض مظاهر الخرافة والجهل التي كانت سائدة حينها في بيئتهما، خاصة ما تعلق منها بزيارة الأضرحة وتبني اعتقادات لاعقلانية ترتبط بالأولياء والمشايخ معتبران أن الإصلاح الاجتماعي والعقائدي ونشر العلم والمعرفة، هو المدخل السليم لإعادة صياغة الأمة على أسس جديدة حتى تتمكن من النهوض وتحرير نفسها من الاستعمار.

على المستوى العسكري:

لم يكن كل من الخطابي والقسام مصلحان اجتماعيان فقط، بل تطور مشروعهما الإصلاحي والفكري إلى مشروع سياسي وعسكري لمواجهة الاحتلال الأجنبي في بلدهما (الإسباني-الفرنسي في بلاد المغرب، والبريطاني-الصهيوني في بلاد الشام). وقد تميزا أساسا باستخدام تكتيك حرب العصابات الذي كان معروفا من قبل، لكن الخطابي أعطاه أبعادا أكبر وأشمل، ليرتبط اسمه بهذا التكتيك أكثر مما ارتبط بغيره في الفترة المعاصرة.

وفي العمل الهام الذي قام به الباحث والأسير" محمد ناجي صبحة "حول حرب العصابات في فلسطين أفرد فصولا تطبيقية ومقارنة حول أشكال هذه المقاومة والتكتيك الحربي من المقاومة الشعبية، وعمليات إطلاق النار، وعمليات التفجير، وعمليات الاختطاف، والاغتيالات، وحرب الأنفاق، ثم الصواريخ، كما أعطى نماذج وتطبيقات قسّامية من قبيل التنظيم، والتسليح، والاستخبارات والإعلام والتخفي والتمويه والعمل بوسائل الاتصال الآمنة ...

وفي هذا السياق تظهر أوجه التشابه الوثيق بين الحرب الريفية ضد المستعمر الإسباني-الفرنسي وثورة القسام ضد المحتل البريطاني-الصهيوني، وما يجعل هذا واضحا هو تبني الحركتين لحرب العصابات، حيث التشابه بين التجربتين على مستوى اعتماد الكر والفر، وتبني منطق المباغتة والمفاجأة والخديعة فيها، وتجنب المواجهة المباشرة، وتوسيع دائرة الضرب، والبعد عن النمطية والتطوير الدائم للعمليات ...

استراتيجية تبادل التضامن في إطار وحدة المعركة مع الاستعمار والامبريالية:

لم تكن حركة التضامن التي قاد عبرها الشهيد عز الدين القسام الشعب الفلسطيني، من أجل إسناد المغرب وثورته

التحريرية التي قادها الزعيم الخطابي انطلاقا من شمال المغرب، عملية معزولة عن فعل تضامني مماثل قام به المغاربة تجاه قضية اعتبروها مركزية منذ وقت مبكر من الزمن؛ إذ بالرغم من حالة الاستعمار والحصار التي كان يعيشها المغاربة نهاية العشرينات والثلاثينات والأربعينات من القرن الماضي فإنهم لم يَعدِموا أدوات لتجسيد التضامن مع الشعب الفلسطيني، عبر الاعتصام في المساجد أو الخروج في المظاهرات أو البيانات والمراسلات أو جمع التبرعات المالية والعينية لإسناد جُهد الصمود والمقاومة هناك . ويمكن استقراء ذلك في الشهادات والوثائق التي ترجع إلى تلك المرحلة؛ يمكن أن نستحضر منها على سبيل المثال لا الحصر، تلك الرحلة التي تحدث عنها الراحل المهدي بنونة لشابين فلسطينيين في أنحاء مختلفة من منطقة الشمال وجمعهم مبلغا كبيرا من المال لصالح الشعب الفلسطيني، لم يستطيعوا أن يجدوا مقابله لدى البنك المركزي الإسباني في تطوان المحتلة حينها.

وكان" الذي عمق الوعي الريفي بقضية فلسطين، تردد المصلحين من رواد القومية العربية على تطوان عاصمة الريف (شمالي المغرب) المحتل، أمثال الأمير شكيب أرسلان رائد القومية العربية الذي كان يتردد على مدينة تطوان لتفقد أحوال أبناء الريف، والأديب أمين الريحاني وكتابه المشهور "المغرب الأقصى "الذي هو رحلة قام بها إلى مختلف مناطق الريف .كما أن توجه أبناء الريف إلى المشرق للدرس والطلب، عمق وعي أبناء الريف لدى عودتهم.

إن الشاب محمد المكي الناصري الذي كان طالبا بمصر مثّل المغرب في أول مؤتمر دولي بالقدس (١٩٣١) لنصرة الفلسطينيين، واستغل الفرصة ليطلق صرخة ضد الاستعماريْن الفرنسي والإسباني .كما أن رحلات الطلبة إلى المشرق زادت من تعميق الوعي بالقضية الفلسطينية HYPERLINK " file:///C:/Users/mansouria/Desktop/"١٧.docx.

كل ذلك أسنده استفادة الشهيد عز الدين القسام من الاستراتيجية القتالية التي وضع أُسسها محمد عبد الكريم الخطابي، الذي كان قد جعل من قضية فلسطين أولوية له سواء أثناء خوضه لحربه التحريرية ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي في العشرينات من القرن الماضي، أو بعد تحرره من الأَسْر الفرنسي وإقامته في القاهرة يوجه حركات التحرر العربي وينسق بين أطرافها مشرقا ومغربا.

إنها استراتيجية تبادل التضامن بين أطراف يمثلون ضحية واحدة لنفس الظاهرة، إنها الظاهرة الاستعمارية؛ تلك التي كان يقول عنها محمد عبد الكريم الخطابي" أنها ستنحسر كلما حقق شعب من الشعوب حُلمه في الحرية"، وفي أي مكان تعرض فيه الاستعمار لضربة من الضربات إلا وينعكس صداها إيجابيا في مكان آخر يخوض الشعب فيه نفس المعركة.

لذا كان هناك فهم مشترك لهذه المعادلة بين الشهيد عز الدين القسام والزعيم محمد عبد الكريم الخطابي؛ معركة التصدي للاستعمار وتحقيق الحرية والكرامة واحدة مهما اختلفت أسماؤه أو البلدان التي يوجد فيها، لذا ترك القائدان اسمَيْهما منقوشا في ضمير الأمة والإنسانية .

خاتمة:

لقد كان لتجربة الإصلاح الثوري التي قادها محمد عبد الكريم الخطابي في المغرب العربي، أثر بارز على نظيرتها التي قادها عز الدين القسام في المشرق العربي، رغم الاختلاف الواضح في السياقات منطلقا ومنتهى .حيث يبدو أننا أمام قائدين تبادلا التأثير والتأثر بدرجات متفاوتة، وشكلت تجربتهما كذلك حقلا خصبا استلهمته تجارب وأجيال متعاقبة في العالم العربي وعبر العالم .وهو الأمر الذي جعل من اسميهما دائما الحضور في أدبيات التيارات الفكرية والسياسية المختلفة في الوطن العربي وعبر العالم.

المراجع بالعربية:

الكتب:

بنونة أبو بكر، اهتمام الحركة الوطنية بشمال المغرب بالقضية الفلسطينية انطلاقا من سنة ١٩٢٩، الطبعة الأولى، مطبعة الخليج العربي، تطوان، تاريخ النشر ٢٠١٠.

التازي عبد الهادي، أوقاف المغاربة في القدس وثيقة تاريخية سياسية قانونية، منشورات وزارة الثقافة، المطبعة دار المناهل- الرباط، الطبعة الثالثة ٢٠١٥.

الخفش حسني صالح، مذكرات حول تاريخ الحركة العربية الفلسطينية، بيروت .مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٣.

دروزة محمد عزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، تاريخ النشر ١٩٩٢، الناشر: دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع.

الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، أيار (مايو) ٢٠٠٢، ج ٦.

شراب محمد حسن، عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين، الطبعة الأولى، دار القلم دمشق، ٢٠٠٠.

صبحة محمد ناجي، حرب العصابات بين النظرية العلمية والتطبيق الفلسطيني، مؤسسة فلسطين للثقافة، دمشق، سوريا، ٢٠١١.

العارف عارف الباشا، نكبة فلسطين والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢، الجزء السادس بعنوان: سجل الخلود ..أسماء الشهداء الذين استشهدوا في معارك بفلسطين ١٩٤٧-١٩٥٢، طبعة بدون تاريخ.

الكيالي عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العاشرة، بيروت، لبنان، الفصل السابع: ما قبل العاصفة ١٩٣٠-١٩٣٥.

مارديني زهير، ألف يوم مع الحاج أمين، بيروت، دار الفرقان، ١٩٧٧.

المودن عبد الحميد ومغربي عبد الرحمن محمد، (تنسيق وجمع) الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية-الفلسطينية، (كتاب جماعي)، الجزء الأول، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، ٢٠١٨.

نويهض الحوت بيان، الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين، بيروت دار الاستقلال، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

المقالات:

جريدة تلغراف الريف، بتاريخ: ٢٢ مارس ١٩١١، عدد:٢٧٨٥).

جريدة تلغراف الريف، بتاريخ: ٠٦ أكتوبر ١٩١٢، عدد: ٣٣٤٤).

علي حسين خلف،" تجربة الشيخ عز الدين القسام: مدرسة جامع الاستقلال"، شؤون فلسطينية، العدد ١٢٦ (١٩٨٢).

الغديري مصطفى،" الوعي الريفي بمأساة فلسطين"، مجلة الملتقى، العدد ٣٣، أبريل ٢٠١٥.

الغديري مصطفى، وعي قبائل المنطقة الخليفية في المغرب بمأساة فلسطين، أُسطور للدراسات التاريخية، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، الدوحة، العدد ٢، تموز/يوليو ٢٠١٥.

نافع بشير موسى، الشيخ عز الدين القسام: مصلح وقائد ثورة"، حوليات القدس، العدد ١٤، خريف - شتاء ٢٠١٢.

المراجع باللغات الأجنبية:

الكتب:

Amilcar Cabral, resistance and decolonization, translated by Dan Wood, Rowman & Lttlefield, USA, 2016.

المقالات:

Souflles, Israel :mission imperialiste en afrique, n 19, 1970.

ثورة العشرين في مذكرات زعماء الثورة ورجالها «الأسباب والنتائج» - نقد وإعادة بناء -

م .د .حيدر علي خلف جودة العكيلي
العراق
وزارة التربية /مديرية تربية ذي قار

الملخص

بعد أن أسفرت التسويات السياسية عقب الحرب العالمية الأولى عن فرض الانتداب البريطاني على العراق، صار ذلك القرار مخيباً لآمال العراقيين، وبرهاناً على حنث بريطانيا، بعهودها التي سبق وان قطعتها للعراق بالحرية والاستقلال، وكذلك تصريحات دول الحلفاء الآخرين بإعطاء الشعوب حق تقرير المصير .

لذا كان لانتهاء تلك الحرب، ووضوح موقف بريطانيا الا مبالي بآمال العرب بالسيادة، أنْ قامت بعض الحركات المعارضة للبريطانيين في المناطق القريبة من العراق، فضلاً عن دور المثقفين العراقيين في تهيئة الاذهان للتحرر والمطالبة بالاستقلال، إلى جانب تأييد رجال الدين وزعماء القبائل للشعور المعادي لبريطانيا، فضلاً عن أسباب أخرى، إرتأى الشعب العراقي أنه لا مناص من استعمال القوة كمحاولة أخيرة لحمل بريطانيا على تغيير موقفها تجاه آمال العراقيين في الحصول على السيادة والاستقلال، لذا كانت النتيجة اندلاع الثورة العراقية الكبرى في عام ١٩٢٠.

الكلمات المفتاحية: العراق ، مذكرات، ثورة

The Twentieth Revolution in the Memoirs of the Revolutionary Leaders and Men "Causes and Consequences"

- Criticize and Reconstruct -

Abstract

After the political settlements after the First World War resulted in the imposition of the British Mandate on Iraq, this decision became disappointing for the Iraqis, and a demonstration of Britain's perjury, with its previous promises to Iraq of freedom and independence, as well as statements by other allies countries to give peoples the right to self-determination.

Therefore, the end of that war and the clarity of Britain's position except for the Arab hopes for sovereignty, that some movements opposed to the British in the areas close to Iraq, as well as the role of Iraqi intellectuals in preparing minds for liberation and demanding independence, in addition to the clerics and tribal leaders supporting the anti-British feeling, In addition to other reasons, the Iraqi people believed that it was inevitable that force should be used as a last attempt to compel Britain to change its attitude towards the Iraqis' hopes of obtaining sovereignty and independence, so the result was the outbreak of the Great Iraqi Revolution in ١٩٢٠.

Key words :Iraq, memoir, revolution

المقدمة

إنّ التطورات الأخيرة التي شهدها العراق بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ تركت أثاراً سيئة على خلجات الرأي العام المتطلع للاستقلال، وأحدثت نفوراً بين أوساط المجتمع الريفي وبالأخص بعض الزعماء والمتنفذين من أبناء القرى والأرياف، مما دفعهم لمعارضة بريطانيا على الرغم من التأييد الواضح لها في بداية الأمر– على حسب ما ذهب إليه البعض -وإن كان ذلك بين أهالي المدن أكثر منه في الارياف، وهذا الأمر راجع إلى شدة ما عانوه من الولاة العثمانيين وتعسفهم، ومع ذلك يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: إذا كان بعض العراقيين قد أيدوا الوجود البريطاني كما أدعا البعض، فلماذا تحولوا بعد مدة قصيرة إلى ألد أعدائها ومن ثُمَّ قيامهم بالثورة المسلحة ضدها على الرغم من انعدام التكافؤ العسكري بين الطرفين.

وبلا شك فإنّ الإجابة على ذلك السؤال ليس بالشيء الصعب، وربما يصح القول بأنه أمرٌ طبيعي، يقع للبعض في حياتهم اليومية كمثل بقية الشعوب، فربما ينتقل شعب من حالة إلى حالة أخرى يعتقد بأنها أفضل من السابق، غير أنه قد يتفاجأ بالوضع الجديد عندما يجد بانه ليس خالياً من العيوب التي سبق وأن رفضها في الحالة السابقة، وهذا حال الشعب العراقي عندما كان رافضاً للوجود العثماني وأيدَّ البعض منهم مجيئ القوات البريطانية، لكنه عندما لمسّ الظلم والجور من الحكام البريطانيين ثار ضدهم طلباً للخلاص وإعلان الاستقلال.

وهذا ما حدث فعلاً في العراق عام ١٩٢٠، فإنّ من أيدَّ الوجود البريطاني أخذ بمرور الأيام يدرك جيداً بأن الوضع الجديد لا يخلو من العيوب التي سبق وأن عانى منها أيام العهد العثماني، ومن هنا بات التذمر ينتشر تدريجياً بين أفراد مجتمع الفرات الأوسط بشكل خاص، ليشكل فيما بعد نواة للثورة.

إنّ الأهمية التي تكمن في مذكرات زعماء الثورة ورجالها كونها تصور حلقات مفقودة من تاريخ العراق السياسي، أهملها بقصد أم دون ذلك بعض المؤرخين وفاتت القسم الآخر منهم على الرغم من أهمية تلك المعلومات في إعطاء الصورة الحقيقية عما جرى من أحداث وما شهدته المنطقة من تطورات لمدة أربعة أشهر ونيف من عمر الثورة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المذكرات الخطية قد غابت عن الباحث ولأسباب كثيرة، ولو أن بعض الباحثين قد اسعفهم الحظ في مقابلة

أصحابها وهم أحياء وبعد هذه السنين غاب هؤلاء الباحثون ورحل أولئك الأشخاص الذين كانت لهم مشاركات غير قليلة في أحداث الثورة وتطوراتها، وللأسف غابت معهم أيضاً تلك المخطوطات، لذا أصبح من المتعذر اليوم الحصول على تلك المخطوطات إلا ما ندر منها، ولعل الفضل الكبير يرجع إلى الأستاذ كامل سلمان الجبوري الذي جمع أعداداً لا بأس بها من تلك المخطوطات وأخرجها لنا بعد التعليق والتقديم لها، فحفظ تلك الوثائق من الضياع والتي أرخت لتلك المرحلة المهمة من تاريخ العراق الحديث .وبناء على ذلك، جاء اختيارنا لموضوع" ثورة العشرين في مذكرات زعماء الثورة ورجالها -الأسباب والنتائج "كحلقة مكملة لما تصدى إليه الآخرون.

موضوع الورقة البحثية، وفرضياتها، وإشكاليتها وأسئلتها البحثية

إنّ الغاية الرئيسة من هذا البحث هي سبر غور تلك الثورة وتداعياتها والأسباب التي أدت إلى قيامها، من أجل إبراز الصورة الحقيقية لأسبابها وبيان مقومات قيامها، وذلك لتوضيح بعض نقاط الخلاف التي اعترت بعض المصادر والتشكيك في دوافع رجالها، والغاية من الاندفاع ومواجه البريطانيين، إذ يعتقد البعض بأن ما قام به زعماء الثورة لم يكن بدوافع وطنية وإنما كانوا مدفوعين برغبات شخصية، لذا قدمنا بعض الفرضيات التي تعالج هذا الموضوع ومنها إذا كان العامل الشخصي هو من أجج ثورة عام ١٩٢٠ في العراق ورغبة بعض شيوخ العشائر بتحقيق مصالحهم الذاتية، لماذا وقفت المرجعية الدينية إلى جانبهم وما هي الأسباب التي دفعت بآية الله العظمى محمد تقي الشيرازي لأن يصدر فتواه لمقارعة الإنكليز، وبهذا الصدد تبرز قضية مهمة وهي أن الثورة لم تقتصر على شيوخ العشائر ورجالاتها بل أسهمت بها بعض الشخصيات الوطنية من أهالي بغداد وبعض المحافظات الأخرى، كما كانت مواقف بعض الطبقات الادبية قد برزت بوضوح خلال تلك المرحلة.

وظهرت بعض الإشكاليات بين بعض من تصدى لتاريخ الثورة العراقية الكبرى، لذا حاولنا قدر المستطاع إبراز نقاط القوة في تحليلنا للمواقف وتشريحها، والوقوف على حقائقها بغية إيصال صورة واقعية عن تاريخ رجالات تلك الثورة ومواقف الشجاعة التي قارعت المحتل ووقفت بصلابة دون مبالاة بالعدة والعدد.

ومن هنا برزت بعض التساؤلات حول هذا الموضوع، منها:

- ما هي أسباب الثورة والدوافع الرئيسة وراء قيامها.
- هل كانت هناك إعداد مسبق لها، ام انها كانت عفوية في انطلاقها.
- هل كانت لها قيادة منظمة، وبرنامج واهداف تسير عليها.
- ما هي النتائج والمكتسبات التي حققتها الثورة.

أهمية الورقة، وأهدافها

أحتلت ثورة العشرين بأحداثها وزمانها وتداعياتها أهمية كبيرة في تاريخ العراق المعاصر، فعلى الرغم من الدراسات الكثيرة التي كرست بهذا الجانب، إلا أن جوانب عديدة منها لا تزال بحاجة إلى تقص عميق، لا تأريخي فحسب، بل كذلك اجتماعي واقتصادي وأدبي، لذا أرجو أن تكون هذه الدراسة مساهمة في وضع" الثورة على منضدة التشريح العلمي "، كما يقول الوردي بصددها.

إنَّ الأهداف واضحة، فمن المتعارف عليه أن كل دراسة علمية تبحث عن حل لمشكلة ما، وبما أن ثورة العشرين قد تناولتها أقلام الباحثين وتصدى لها الكثيرين، فإنّ الغاية تظهر في هذه الدراسة هو لبيان الأسباب الرئيسة في قيامها، والتعرف على طبيعة رجالاتها وتوجهاتهم من خلال ما سطرتها أناملهم في مذكراتهم الشخصية.

المنهج البحثي، والمداخل المقترحة

اتبعنا في دراستنا المنهج التحليلي الوصفي والتاريخي لأحداث الثورة ومسبباتها، والمقارنة بين ما كتبه رجال الثورة وبعض من تصدى لها من الكتاب والباحثين، ومن هذا المنطلق فقد اعتمدنا على ذكر الرواية بحسب ما نقلها زعماء الثورة ورجالاتها، والدوافع التي جعلتهم للقيام بذلك، ومقارنتها مع ما كتبه الباحثين بهذا المجال، ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى كتابات الاجانب وبالأخص البريطانيين الذين أرجعوا تلك الثورة وأسبابها إلى تمرد بعض الشخصيات العشائرية ورغبتهم في تحقيق مصالحهم الذاتية، فقد حاولنا احباط تلك المخططات التي سعى إليها قادة الاحتلال لإبعاد مسؤولية قيام الثورة عن انفسهم والحاقها ببعض الزعماء .

هيكل مقترح

تكوّن البحث من المقدمة لبيان إشكالية البحث والأهداف والأهمية، فضلا عن بيان المنهج المتبع، مع تفصيل لمباحث الدراسة، مع تحليل موجز لبعض المصادر.

جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث تصدى الأول منها إلى" أسباب الثورة من وجهة نظر بعض

الكُتّاب والباحثين". بينما تطرق المبحث الثاني إلى" بدايات الثورة والآراء الشخصية في اندلاعها"، ثُمَّ جاء المبحث الثالث" نتائج ثورة العشرين من وجهة نظر زعماء الثورة وقادتها"، إلى جانب الخاتمة التي تضمنت أبرز الاستنتاجات التي توصل إليها الباحث .

المبحث الأول: أسباب الثورة من وجهة نظر بعض الكُتّاب والباحثين

مما تجدر إليه الإشارة إنّ من كتبَّ عن ثورة العشرين على الرغم من كثرتهم، إلا أن هناك تبايناً كبيراً في تحديد مقدمات الثورة والأسباب التي أدت إلى قيامها بل حتى في نتائجها، بشكل واضح جعل دارس تاريخ الثورة العراقية غير مطمئن لما وصلت إليه أقلام بعض الباحثين (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٦٧-٣٦٨)، فقد وصفها البعض بأنها جزءاً من ثورة الشريف حسين، ملك الحجاز (فياض، ١٩٧٥، ص٢٤٩) (العسكري، ١٩٣٨، ص٤٠)، وادعى آخر بأنها كانت من متممات حوادث دير الزور وتلعفر (أحمد، ١٩٧٨، ص٧٨)، بينما غالى البعض فقال إنها كانت ثورة فراتية بحته (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٨٠). ولعل ذلك التباين والاختلاف في الرأي راجع إلى أن ثورة العشرين لم تكن من الأحداث التاريخية التي يمكن حصرها في إطار داخلي ضيق، ولا شك في أن أي محاولة من هذا القبيل تُعد تجنياً على الثورة نفسها لا لأنها تتعارض كلياً مع المنطق حسب، بل ولأنها تنافي كل المألوف في تاريخ المجتمعات، لذا فإنّ ثورة العشرين من منطلق قانون الترابط الافقي بين الأحداث وتطوراتها، أثرت وتأثرت بأحداث خارجية بدرجات متفاوتة إلى حدِ ما حتمتها ظروف الزمان والمكان، وكان من الطبيعي أن تتأثر ثورة العشرين على الصعيد الخارجي بأحداث المنطقة نفسها ولاسيما في سوريا ومصر وتركيا وإيران فضلاً عن تداعيات ثورة أكتوبر في روسيا وتأثيراتها الخارجية على المنطقة بأسرها بحسب ما ذهب إليه البعض (أحمد، ١٩٧٨، ص٤٧).

ومن الجدير بالذكر أن بعض البلدان المجاورة للعراق كانت في تلك الفترة زاخرة بالثورات والأحداث المثيرة، فبات من الطبيعي ان تؤثر أخبارها على العراق بشكل أو بأخر عن طريق بعض الصحف والمنشورات المهربة أو عن طريق بعض المسافرين والزوار، ولا بأس في أن نورد هنا بعض الأمثلة الحية بهذا الصدد، فإنّ ما شهدته سوريا آنذاك كان له بعض الأثر على العراق، إذ تشكلّت في سوريا حكومة عربية يرأسها الأمير فيصل بن الحسين،

وشغل فيها العراقيون بعض المناصب، وكان هاجسهم الوحيد أن يحصل العراق على ما حصلت عليه سوريا، وعندما اندلعت ثورة مصر في آذار ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول كانت جريدة العقاب في سوريا طافحة بأخبار تلك الثورة (الوردي، ٢٠١٣، ص٤٩-٥٢)، وذكر العمري بأن تأثير الثورة المصرية كان واضحاً في تشجيع العراقيين على الثورة ضد بريطانيا، فضلاً عن انتعاش الروح الوطنية لديهم (العمري، ١٩٢٥، ص٩٩) (العسكري،١٩٣٨، ص٤٠).

وفيما يتعلق بتأثير الحكومة الفيصلية في سوريا على أحداث العراق، كتبَّ عبد الحميد الزاهد في مذكراته بأنَّ وصول الأخبار من دمشق بداية عام ١٩١٩ على العمل لتحرير سوريا وإعلان استقلالها، بدأ العزم لدى الشباب النجفي لعمل مضابط يخولون فيها بعض الضباط العراقيين بتشكيل مؤتمر مماثل يخص العراق ليعلنوا استقلاله (الزاهد، ١٩٨٧، ص١٣) (علي، ١٩٥٠، ص٤٤) ، لكن الفياض نفى ذلك الكلام مؤكداً بأن دور الحكومة الفيصلية وتأثيرها على العراق كان مبالغاً فيه، واستند في اعتقاده على ان العمري عندما كتب عن تأثير سوريا على ثورة العراق وأن الحكومة الفيصلية باتت قوية، وأن رجالها وفي مقدمتهم الأمير فيصل عازمون على تحرير العراق (العمري، ١٩٢٥، ص٩٨)، وفي الواقع أن هذا الأمر ليس له نصيب من الصحة، لأن المساعدات الفعلية التي قدمتها سوريا للعراق خلال الثورة نجدها ضئيلة (البازركان، ١٩٩١، ص١٧١-١٧٢) ، ان لم تكن معدومة، وقد اثبت ذلك رجال الثورة في إجاباتهم للسيد الحسني بهذا الصدد.

أما فيما يتعلق بالأخبار القادمة من تركيا فهي تلي أخبار سوريا ومصر في قوتها واتساع نطاقها، لاسيما وأن بعض العراقيين كانوا يتمنون عودة العثمانيين (أحمد، ١٩٧٨، ص٥٢)، أما فيما يتعلق بإيران فهي الأخرى كانت لها دعايتها داخل العراق، لا سيما وأنها كانت تخوض نزاع مرير مع البريطانيين بغية إلغاء اتفاقية عام ١٩١٩، ولما كان ذلك العام قد شهد اعداداً كبيرة من الزوار الإيرانيين الذي يقصدون الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء، فلا حاجة بنا للقول أن الدعاية المناوئة للبريطانيين أخذت تأتي معهم للعراق (الوردي، ٢٠١٣، ص٥٤–٥٥).

والنقطة الأهم هي التي تتعلق بدعاية البلاشفة وتأثيرهم على العراق، فهناك من اعتقد أنه بعد انتصار ثورة البلاشفة في تشرين الأول /أكتوبر عام ١٩١٧ كانت من جملة أهدافهم هو محاربة الاستعمار والرأسمالية،

لذا باتوا يعرضون مساعداتهم لكل حركة مناوئة للاستعمار، ولا سيما في تركيا وإيران، وأخذوا يرسلون منشوراتهم إلى سوريا والحجاز والعراق، واعتقدوا بأن دعاة البلاشفة جاءوا إلى العراق بزي زوار وطلبة إيرانيين (الوردي، ٢٠١٣، ص٥١) (كوتلوف، ١٩٧٥، ص١١١)، ويستندون في ذلك على أنّ المس بيل ذكرت بأنّ" هناك أدلة تبرهن على أنه كانت هناك جمعية متآمرة، أسسها البلاشفة بالتعاون مع الوطنيين الأتراك، وكانت منذ مدة طويلة تتصل بالجمعيات العراقية السياسية المتطرفة لاستغلال الرابطة المشتركة بين الاتراك والعرب واحراج وضع البريطانيين في الشرق الأوسط" (بيل، ١٩٧١، ص٤٣٩) (نظمي، ١٩٨٥، ص٣٣٠).

إنّ هذه النقطة بالذات تحتم علينا الوقوف عندها وقفة خاصة، لأن مسألة تأثير الثورة البلشفية لا زال أمرٌ يكتنفه الغموض، ولا زال يدور حوله النقاش والخلاف بين أغلب الباحثين، لأن ما نشر حول تأثير تلك الثورة على أحداث العراق في منتصف عام ١٩٢٠ لم يوثق بأي دليل مادي يؤكد ما ذهب إليه البعض، فهو أمرٌ لا زال بحاجة ماسة إلى ما يؤكده تعزيزه واقعياً، ومن الجدير بالذكر أن ما ذكر أعلاه كان يحظى بالقبول عند علي الوردي وكمال مظهر أحمد، وقد أكدوا ذلك الكلام بالاعتماد على ما نشرته بعض التقارير البريطانية حول الخشية من تأثير البلاشفة على العراق (الوردي، ٢٠١٣، ص٥٥) (أحمد، ١٩٧٨، ص٥٤-٥٥)، ومن أجل الوقوف على تلك الآراء والاعتقادات نجد من المفيد أن نستعرض أهم ما جاء بهذا الخصوص.

أكد الدكتور كمال مظهر أحمد بأنه" لا شك في أن ثورة أكتوبر كأول ثورة اشتراكية في العالم قد تركت آثاراً واضحة على ميزان القوى على الصعيد الدولي وعلى النضال التحرري للشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة، وبالنسبة للعراق تتوفر مصادر كثيرة، معظمها إنكليزية سرية، تشير بوضوح إلى مثل ذلك التأثير وبوجه خاص لأن بفضل الثورة البلشفية تم الكشف عن المعاهدات السرية المعقودة بين فرنسا وانجلترا عام ١٩١٦ لتقسيم المشرق العربي" (افاق، ١٩٧٦، ص١٥٥) (أحمد، ١٩٧٧، ص٨١)، ولم يكتف الدكتور كمال بذلك، بل نقل عن وثائق بريطانية أشارت إلى أن الادبيات البلشفية كانت تصل المدن المقدسة في العراق بما في ذلك كتاب" مبادئ البلشفية "الذي جلبه الزوار من حلب معهم إلى العراق، وكانت تناقش أخبار التغيرات في روسيا داخل مجالس

العراقيين، كما ذهبت تلك التقارير إلى القول بأن حجة الإسلام الشيرازي قد أصدر فتوى دعت إلى عد البلاشفة أصدقاء للإسلام بحسب ما كتبه المؤلف (أحمد، ١٩٧٨، ص٥٨-٥٩). ثُمَّ أردف يقول بأنه توجد لديه العشرات من الأدلة المقنعة التي تظهر بوضوح مدى الخوف الذي انتاب المسؤولين البريطانيين من جراء ذلك، ويؤكد كلامه باختيار الأمير فيصل لأن يكون مرشحاً للعرش لكونه لا يميل للبلاشفة (افاق، ١٩٧٦، ص٩٢-٩٣) (احمد، ١٩٧٧، ص٨٢).

ويستشهد الدكتور كمال ببعض الأدلة على ذلك من خلال قوله بأنه مهما كان ذلك التأثير كبيراً في اطار الترابط الافقي بين الأحداث التاريخية فإنه لم يبلغ حداً أن تتوجه "الشخصية الدينية والسياسية المعروفة الخالصي "إلى صورة لينين قائلاً: "إنَّ الشرق الذي ايقظته ينتظر الفرصة لكي يحقق أفكار حياتك حول اتحاد شعوب الشرق، حول حق كل إنسان بل كل شعب، كبيره أو صغيره، في الحياة والاستقلال" (احمد، ١٩٧٧، ص٨٢). ومع ذلك كله، يقول الدكتور كمال مظهر، انه بالرغم من أهمية كل ما سبق، فإنَّ على المتتبع أن ينظر إلى تأثير ثورة أكتوبر الكبير من زاوية أخرى تماماً، ويستذكر هنا مجموعة من الدلائل التي أشارت بحسب اعتقاده إلى ذلك، منها انها– أي ثورة أكتوبر -كانت أقوى ضربة وجهت للنظام الرأسمالي العالمي، فهي بذلك دشنت لعصر جديد وهو عصر انتصار الاشتراكية ومقارعتها للرأسمالية، وأضاف أن النظام الاشتراكي الجديد لعب دوراً حاسماً في انتصار حركات تحررية لشعوب مجاورة للعراق تركت نجاحاتها تأثيراً ملموساً على الوعي السياسي لدى رجال الحركة الوطنية العراقية ككل، لذا أخذت بعض القوى السياسية تفقد الثقة بالحلفاء وبعهودهم ومواثيقهم، ومن ثُمَّ تبنت أساليب جديدة في النضال .واستند بذلك على أن مكتب ثورة العشرين في النجف أخذ منذ ذلك الوقت يدشن اعماله بعد فضح بنود معاهدة سايكس – بيكو (كمال الدين،١٩٧١،ص٧٠) (احمد، ١٩٧٨، ص٦٩).

وعليه يمكن القول بأنَّ ثورة البلاشفة على الرغم مما ذكره البعض لا يتعدى من سمع بأخبارها أو فهم مرتكزاتها سوى قلة من طبقة المثقفين، فإذا اخذنا بالحسبان ظروف العراق آنذاك والمستوى الفكري لإفراده، لم يكن بالإمكان أن يتعدى تأثير أفكار تلك الثورة إلا على المثقفين من سكان المدن، لأن الفلاحين وزعماء العشائر، وقود الثورة

الأساس، كانوا في وضع اجتماعي لا يسمح لهم التفاعل مع المتغيرات الخارجية التي شهدتها روسيا آنذاك.

ويمكن أن نفند آثر البلشفية على ثورة عام ١٩٢٠ في العراق من خلال أن قلة المثقفين في العراق آنذاك، وإذا وجد من يتفهم مبادئ الماركسية منهم فهم قلة لا يتجاوزن العشرات من الأشخاص، إذا صح هذا الظن، كما إن الطبقة المثقفة في العراق وأن تأثرت في أفكار البلاشفة إلى حدٍ ما إلا انها لم تستطع أن ترتقي إلى مرحلة القيام بالثورة العارمة كما حدث في منطقة الفرات الأوسط حين ذاك.

ومن هنا يتضح أن النصوص سالفة الذكر والتي ذكرها البعض تشير إلى الاتجاه العام لسياسة بريطانيا وتسويفها للأحداث لتخلط الأوراق وتبعد أسباب فشل سياستها في العراق، والدليل على ذلك أن المس بيل وكذلك الرائد بري Bray اللذين أشارا إلى وجود جمعية سرية للبلاشفة لكنهما لم يتمكنا من اعطائنا أسم تلك الجمعية أو على أقل تقدير مكان نشاطها، ولم يشر إلى العاملين فيها، وكل ما في الأمر زعموا باتصال الشيخ محمد رضا الشيرازي مع البلاشفة (صالح العمر، ٢٠١٣،ص٩٩)، وهو اتهام باطل في جميع مقاييسه لأنهم لم يقدموا أية ادلة بخصوصه.

ونجد فيما ذهب إليه الدكتور الفياض في تفنيده لوجود أي اتصال أو أثر للبلاشفة على ثورة العشرين أهمية كبيرة للإشادة به، فقد ذكر بأنّه لا يخفى عن أحدٍ ما للشيوعية كحركة عمالية من تأثير غير مباشر على العالم أجمع، لكن مثقفي العراق على ما يبدو كانوا على علم بمرامي الشيوعية وأهدافها، لذا لم يشبهوا ثورتهم بثورة الشيوعيين، وهذا ما جاء على لسان حالهم في صحيفة الفرات (الفرات،١٣٣٨هـ) (فياض، ١٩٧٥، ٢٨٦-٢٨٧).

كما أن كوتلوف الذي عُدّ من أشهر من كتبّ عن الثورة العراقية من السوفييت لم يثبت أي تأثير بلشفي على الثورة العراقية، وأكتفى بالتفسير الماركسي لعوامل القيام بالثورة، والانكى من ذلك اعتماده على المصادر البريطانية، إذ اقتبس بعض معلوماته من ويلسنWilson وليل Layell ومس بيل Miss Bell (كوتلوف، ١٩٧٥، ص١٣٣). أما من ناحية بريطانيا فقد أرادت من خلال زعمها بوجود دعاية بلشفية أن تبعد أسباب الفشل عنها.

حتى ان الدكتور فاروق العمر، صاحب كتاب "ثورة أكتوبر البلشفية لـ ١٩١٧ "لم يتلمس أي حقائق دالة على أن ثورة العشرين في العراق

قد استفادت مادياً أو ثقافياً من الثورة البلشفية، وذهبت سعاد خيري، ذات الميول الماركسية في كتابتها عن تاريخ الحركة الثورية في العراق على أساس مادي، إلى تفسير التأثير البلشفي على العراق بالاعتماد على ما ذكره ليل Layell بأن التأثير جاء عن طريق الزوار الإيرانيين (خيري، ١٩٨٠، ص٢٥).

أما الدكتور عبدالله النفيسي فقد بيّن في مقدمة العوامل التي تسببت بإندلاع ثورة العشرين سوء المعاملة التي اتبعتها الإدارة البريطانية، فضلاً عن العوامل الخارجية التي قال عنها بأنه لا شك فيه بوجود تدخل اجنبي غير رسمي، ومعونات مالية وجدت سبيلها إلى النجف وكربلاء، ولم يشر إلى تأثير البلاشفة على العراق (النفيسي، ١٩٧٣، ص١٥١). وإذا كنا نوافق الرأي في الشطر الأول مما ذكره النفيسي فإننا نجانب الحقيقة إذا شاطرناه فيما ذكره في الشطر الأخر حول المساعدات المالية، ولا نعلم من أين جاء النفيسي بالمعلومات التي جعلته يثق كل الثقة فيما ذهب إليه بوجود المساعدات المالية، على الرغم من ان جميع زعماء الثورة وممن اشترك فيها آنذاك فندوا وجود أو استلام أية مساعدات مالية، ولا يوجد هناك أي دليل على ذلك .ومن هنا يمكن القول أن العراق على الرغم من احاطته ببعض الدول التي اثرت فيها البلشفية إلى حدٍ ما، إلا انه لا يوجد هناك أي دليل مادي على وجود أي اتصال أو تأثير بلشفي خلال تلك المرحلة على العراق.

وأزد في ذلك ان الاختلاف في طبيعة الحكم السياسي بين المرحلتين أثار امتعاض الكثيرين، ففي العهد العثماني كانت الدولة العثمانية تتبع نظاماً سائب أقرب إلى الفوضى في إدارة الأمور، إذ اعتادت على أنْ تترك الناس يفعلون ما يشاؤون دون تدخل إلا فيما يتعلق بجباية الضرائب، فقد اعتاد العراقيون على تلك الممارسات، فكانوا يحلون مشاكلهم بأنفسهم دون مراجعة الحكومة، فضلاً عن أن الموظفين في العهد العثماني كانوا متساهلين إلى حدٍ ما في تطبيق الأنظمة والقوانين بفعل تأثير الرشوة والوساطة، لكن عندما جاء عهد الاحتلال البريطاني شهد العراقيون نظاماً للحكم غير مستساغ، إذ وجدوا الصرامة والشدة في تطبيق تلك القوانين، وقل تأثير الرشوة أو انعدامها، وشهدوا الخشونة وقلة المبالاة بمشاعر الناس ومكانتهم الاجتماعية، لذا يمكن القول بأن عهد الاحتلال البريطاني أحدث انقلاباً عجيباً في طبقات المجتمع العراقي (الأعرجي، ٢٠١١، ص١٣٠) ، فقد أصبح المحترم

ذليلاً والذليل محترماً، ذلك لأن الإدارة البريطانية عملت على تقريب بعض الأشخاص وقلدتهم المناصب الحساسة، إلى جانب الهنود والأرمن، فضلاً عن بعض الأذلاء من الأشخاص، ولما كان الناس قد اعتادوا منذ عهد مضى على احترام الاشراف وذوي النسب الرفيع، فقد ساءهم تقلد أولئك الأذلاء لتلك المناصب في إثارة السخط والتذمر ضد أولئك الأشخاص ومن ورائهم البريطانيين، ويفرد الدكتور علي الوردي أدلة مقنعة في هذا الصدد (العمري، ١٩٢٥، ص٣-٧) (الوردي، ٢٠١٣، ص٢١-٢٣).

وإلى جانب تلك الأمور كان قصب السبق لسياسة العشائر في ذلك الميدان، فقد كانت معظم العشائر ولا سيما في منطقة الفرات الأوسط في نزاع مستمر مع الولاة العثمانيين، إذ غالباً ما اتبع أولئك الولاة سياسة "فرق تسد "تجاه بعض العشائر من خلال افتعال الخصومة فيما بينها حتى لا يتحدوا ضدها (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص٨٢) (بيل، ١٩٧١، ص٤٣٨)، لكن عندما جاء البريطانيون أتبعوا سياسة تقريب بعض شيوخ العشائر واغرائهم بالمال والسلاح في كثير من الأحيان لكسب ودهم وبالتالي يقوم أولئك الشيوخ بتنفيذ ما يأمرون به من قبل الحكام البريطانيين، غير ان تلك السياسة بقدر ما أفادت الأخيرين إلا إنها اضرت بهم من ناحية أُخرى (الوردي، ٢٠١٣، ص١٢٦-١٢٧).

ومن خلال ذلك يتضح أن بريطانيا اتبعت سياسة توحيد العشائر بدلاً من تشتيتها، فبحسب ما اعتقد أحد المؤرخين أن بريطانيا انتهجت سياسة اختيار شيخ واحد من كل منطقة أو قرية ومن ثم أخذت تدعم موقفه بالمال والنفوذ حتى يكون مسؤولاً عن حفظ مصالحها في منطقته، وهكذا نشأت منفعة متبادلة بين الطرفين، فمن جانبهم سيحصرون السلطة في جهة محدودة، ويفضلونه على منافسيه ويخففون عنه الضرائب، ومن جانبه –أي الشيخ -يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي نفوذهم (صالح، ١٩٥٣، ص١٥).

وزاد في الطين بلة ما أعتور بعض الضباط البريطانيين من مفاسد وسوء معاملة فضلاً عن تهور البعض منهم في معاملتهم لشيوخ العشائر (العصامي، ٢٠١٩، ص٤٣)، وبهذا الصدد نجد من المفيد أن نستشهد بقصتين لهما مغزى واحد، فقد روي عن أحد الشيوخ القاطنين في منطقة بعقوبة أنه كان جالساً ذات يوم عند الحاكم السياسي لمنطقته، وبينما كانا يتجاذبان أطراف الحديث وإذا بكلب الحاكم قد دخل إلى الغرفة وأقترب

من الشيخ، فما كان من الأخير إلا أن طرده وأبعده بيديه، فأستغرب الحاكم لذلك الفعل وسأل الشيخ بتهكم عن تصرفه فأجابه الشيخ بأن الكلب" نجس"، فما كان من الحاكم إلا أن ردَّ عليه وصاح بوجه الشيخ قائلاً: "إنَّ الكلب أنظف منك" (الوردي، ٢٠١٣، ص٣٠). أما القصة الثانية فقد حدثت في مدينة عفك مع الشيخ صكبان أبو جاسم، شيخ عشيرة آل بدير، فيذكر ان الشيخ كان في أحد الأيام جالساً عند الكابتن ويب، حاكم مدينة عفك، فإذا بكلبه يقترب من الشيخ صكبان فأبعده عنه بخشونة، ولما سأل الكابتن ويب عن ردة فعل الشيخ أجابه الأخير بأنه" نجس "فردَّ عليه الحاكم" إنه أنظف منك، لأنني أغسله بالصابون في كل يوم مرتين". فخرج الشيخ صكبان وهو غاضب لما حدث له، وأخذ يشتم الحاكم البريطاني قائلاً: "ألعن أبوك وأبو الإنكريز كلهم، تريد تتميجر بجعبي" (الهيمص، ١٩٩١، ص٤٤).

وتلك المعاملة التي لا تخلو من الخشونة لم يغفلها شيوخ العشائر لا سيما إنَّ أبناء الريف كانوا يعتزون بالكرامة ويرفضون الإهانة، فهم لا يترددون في أحيان كثيرة بالمجازفة بحياتهم لقاء حفظ الكرامة والثأر لها، ولعل تلك الخصلة قد ورثها أبناء المجتمع من البداوة وحياة الريف، لأن الإهانة لديهم تُعد وصمة عار لا تغتفر اجتماعياً، لذا تجدهم في أغلب الأحيان يثيرون لمجرد كلمة، ولعل ما جرى للكولونيل لچمان ومقتله على يد الشيخ محمود الضاري وأبنائه خير دليل على ذلك (الموح، ١٩٨٦، ص٦٦-٦٩).

كما إن تلك النقطة بالذات لم تغب عن تحليل بعض القادة البريطانيين عندما نسبوا أسباب الثورة إلى سوء معاملة بعض الحكام البريطانيين أو عدم معرفتهم في التعامل مع الشخصية العراقية عن كثب، فقد كتب الجنرال هالدين" إِنَّ المعاملة الفظة التي عامل فيها الحكام البريطانيون لبعض شيوخ العشائر كانت من أبرز الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة" (هولدين، ١٩٦٥، ص٢٦) ، غير أنَّ المس بيل لا توافق هالدين في ذلك الرأي باستثناء حاكم الديوانية الميجر ديلي، والكولونيل لچمان حاكم الرمادي (العمر، ١٩٨٣، ص٦٦)، فقد اعترفت في أكثر من مرة بأنَّ معاملة ديلي الفظة ساعدت على نمو الحقد على البريطانيين ومن ثم إشعال فتيل الثورة ضدهم (الوردي، ٢٠١٣، ص٣٢).

وبهذا الصدد نجد إشارة في مذكرات السيد محسن أبو طبيخ بأنَّ البريطانيين عجلوا في قيام الثورة من خلال سياستهم وجهلهم

بنفسية الشخص العراقي (علي، ١٩٥٠، ص٣٩)، فقد اعتقد البريطانيون بأنّ الشعب العراقي يتحمل الظلم وتقبُّل الذل والهوان مثل بعض الشعوب التي استعمروها، ولولا ذلك التفكير الخاطئ والتزامهم سياسة العنف والشدة وخاصة في مدن الفرات الأوسط وأريافه لكان أسلوب المطالبة السلمية قد استمر معهم للحصول على الاستقلال والتدرج في تحقيق المطالب الوطنية بدءاً بتشكيل الحكومة الوطنية ولأستمر معهم التفاوض (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص١١٣) (نظمي، ١٩٨٥، ص٣٢١، ٤٠٥).

المبحث الثاني: بدايات الثورة والآراء الشخصية في إندلاعها

على الرغم من الكم الهائل من الآراء والاعتقادات الشخصية حول بدايات قيام الثورة والأسباب الرئيسة وراء إندلاعها، يبدو أن هناك اتفاق في بعض تلك الآراء على أن أول من نادى بقيام الثورة المسلحة ضد البريطانيين هو السيد علوان الياسري، وأنّ أول من أيده في ذلك هو السيد محمد رضا الصافي، وخلاصة ذلك الرأي ترجع إلى أنه في أحد الأيام كان السيد علوان الياسري عند الجنرال لايلLyell ، حاكم منطقة أبو صخير وعند دخوله عليه وجد الحاكم البريطاني يوجه إهانة إلى أحد وجهاء المنطقة فكان لذلك العمل وقع كبير في نفس السيد علوان الياسري، وعند خروجه من الحاكم البريطاني التقى بالسيد محمد رضا الصافي، وكانت علامات الغضب تلوح في وجه السيد علوان الياسري، وعندما سأله الصافي عن أسباب هذا الوضع أفاض الياسري عما شاهده عند الحاكم وتذاكرا ملياً حول نظرتهما للبريطانيين وكرههما لهم واتفقا على ان يجتمعا في النجف الأشرف لأخبار جماعتهما من بقية الزعماء واطلاعهما على السبل الواجب اتخاذها لطرد البريطانيين ومواجهتهم (فراتي، ١٩٥٢، ص١٠١-١٠٢) (الوردي، ٢٠١٣، ص١٣٤).

وينقل علي الوردي عن تلك الحادثة من مذكرات السيد محمد أمين الصافي، أخو محمد رضا الصافي ما نصه: "أنه في احدى الأيام التقى السيد محمد رضا الصافي بالسيد علوان الياسري في منطقة أبو صخير وكان كلاهما متأثرين أشد التأثر من الوضع السيء الذي أهان كرامة الزعماء ...وقد ذكر الصافي للسيد علوان الياسري بأن الوقت قد حان للعمل والتضحية لخلاص البلاد من السيطرة البريطانية، فراقت الفكرة للسيد علوان الياسري، وتضامنا هناك على العمل، وبعدها

جاء السيد علوان الياسري إلى النجف وقصد السيد الصافي في داره، وبعد لقائهما اتفقا على توسعة الفكرة ونشر الدعوة وإقناع من يجدون فيه اللياقة، وأول من وقع عليه الاختيار الشيخ عبدالكريم الجزائري، فدُعيَّ إلى دار السيد الصافي واجتمع بهما، وبعد مناقشة الأمر من جميع نواحيه اتفق الثلاثة على ذلك الأمر، ومن هنا نبتت الفكرة الأولى للثورة، وأحكمت الدعاية، فابتدأت المطالبة السلمية ثُمَّ الدموية ومن بعدها الثورة"...، ويُرجح الوردي بأن ذلك اللقاء ربما يكون في ربيع عام ١٩١٩ حيث أخذ السيد علوان الياسري منذ ذلك الحين يبث دعوته الثورية بين شيوخ العشائر، ولما عرفَّ عنه الدهاء والمقدرة في إقناع الأشخاص (فراتي، ١٩٥٢، ص١٠٢-١٠٣) (الوردي، ٢٠١٣، ص١٢٤)، نجح الياسري في كسب الكثير من المريدين حوله (الوردي، ٢٠١٣، ص١٢٥-١٢٦).

أما عن أبرز الأسباب التي أدت إلى إندلاع الثورة، فقد ذكرَّ بهذا الصدد السيد حسين كمال الدين، وهو من زعماء الثورة البارزين، أنَّ فكرة استقلال العراق وتشكيل حكومة وطنية قد أخذت حيزاً في تفكير بعض الشخصيات الوطنية منذ أواخر عام ١٩١٨ (حسين كمال الدين، ١٩٨٧، ص١١) (الوردي، ٢٠١٣، ص٤٥)، بعد أن أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا حرية البلدان المنسلخة عن الدولة العثمانية في تقرير مصيرها (الفرعون، ١٩٥٢، ص٦٦-٦٧) (سعيد كمال الدين، ١٩٨٧، ص٢٣) (صالح، ١٩٨٧، ص١١)، فأخذ قسم منهم يفكر في القضية ويطرح بعض الشخصيات التي يمكن أن تحكم العراق، ورجح بعضهم بأن تكون الحكومة ملكية وليست جمهورية لاعتقادهم بأنَّ الأخيرة لا تصلح إلا لشعب راقٍ– بحسب اعتقادهم -بينما خلص البعض الآخر إلى أن يكون أحد أنجال الشريف حسين" المرجح آنذاك عبدالله "ملكاً على العراق (حسين كمال الدين، ١٩٨٧، ص١١). كما أكد تلك الفكرة السيد سعيد كمال الدين في مذكراته أيضاً، إذ كتب عن تلك المسألة ما نصه" إنهم– ويقصد بهم مجموعة من الوطنيين والاحرار -يريدون استقلالاً وأن لهم حرية الاختيار" (حسين كمال الدين، ١٩٨٧، ص١١). ولم يذهب الشيخ عبود الهيمص بعيداً في تفسير الأسباب التي عجلت بقيام الثورة، فقد ذَكرَّ مجموعة من الأسباب التي لم تخرج عن دائرة ما ذُكر أعلاه (الهيمص،١٩٩١، ص٤١-٤٢).

ولكن على الرغم من تمسك بعض الزعماء في منطقة الفرات الأوسط بتعهدات بريطانيا وفرنسا، ولا سيما فيما يتعلق بتصريح

عام ١٩١٨، إلا أن هناك من يعتقد بأنَّ بريطانيا وفرنسا قصدت من ذلك التصريح تهدئة السوريين الذين امتعضوا كثيراً من سياسة فرنسا التي اتبعتها في لبنان آنذاك، إلى جانب التأثير على الوفد الأمريكي في مؤتمر الصلح، ولا سيما الرئيس الأمريكي ولسن، ومعنى ذلك أن بريطانيا عند إصدارها ذلك التصريح كانت مهتمة بأمور بعيدة عما يجري في العراق، ولعلها غفلت عما يمكن أن يكون لذلك التصريح من تأثير داخل العراق.

أما في مذكرات السيد سعد صالح، فقد جاء فيها: "إِنَّ العلماء كتبوا كتباً في مضمونها وفحواها يريدون حكومة وطنية عربية عراقية وشكلها دستوري نيابي، يتملكها أحد أنجال الشريف حسين، مستقلة استقلالاً تاماً بلا حماية ولا وصاية ولا انتداب، وأنْ يكون علمها العلم الذي رفع في الحجاز" (صالح، ١٩٨٧، ص١٢) (علي كمال الدين، ١٩٨٦، ص٣١). وقد أكد هذا الجانب حجة الإسلام محمد جواد صاحب الجواهر في عام ١٩٣٥ عندما كتبَّ في إجابته عن أسئلة السيد عبدالرزاق الحسني بأنَّه بعد التأكد من مواعيد البريطانيين وتعهداتهم التي لا طائل تحتها ثار أبناء الريف ضدهم (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٨٠). ومن هنا يتضح إنَّ جميع الآراء التي كتبها أصحاب المذكرات كانت متفقة إلى حدٍ ما على تشكيل حكومة وطنية بعيدة عن سيطرة البريطانيين، تحظى بالسيادة والاستقلال التام، وهذا خلاف ما ذهب إليه البعض في القول: "إنَّ الثورة كانت عفوية، وقامت من أجل مصالح بعض شيوخ العشائر". فإذا كان الدافع هو لحماية مصالح الشيوخ كما يدعي البعض، لما كتب العلماء ورجال الدين إلى ملك الحجاز، وطالبوا بتشكيل حكومة وطنية يشترك فيها جميع أطياف الشعب العراقي، الأمر الذي يعطي انطباعاً واضحاً عن اكتمال النضوج السياسي لأبناء تلك المناطق.

وتكتمل الصورة فيما لخصه زعماء الثورة بمجموعة من الأهداف والمطاليب التي قدموها للميجر نوربري (تويج، ١٩٨٧، ص١٤-١٥)، الحاكم البريطاني لمنطقة الشامية والمشخاب، والتي تلخصت بمنح الاستقلال السياسي التام للبلاد وتشكيل حكومة وطنية مستقلة لا علاقة للأجنبي في تشكيلها، أو التدخل في شؤونها، فضلاً عن أطلاق سراح المعتقلين ومن بينهم الشيخ محمد رضا الشيرازي، نجل حجة الإسلام محمد تقي الحائري الشيرازي، ورفع مراكز المراقبة والتفتيش والثكنات العسكرية كافة من منطقة الفرات الأوسط،

غير أن نوربري أجابهم بأنه لا يملك الصلاحيات التي تخوله لقبول أو رفض مطالبهم، وأنه سيقوم برفعها للمندوب السامي البريطاني في بغداد (تويج، ١٩٨٧، ص١٤) (علي كمال الدين، ١٩٨٦، ص٣٧).

بينما ينقل فريق المزهر آل فرعون في مذكراته بأن نقض بريطانيا للعهود السابقة التي وعدت العرب بها، فضلاً عن أن بريطانيا لم تعطِ تلك العهود أي قيمة ولا حساب، لذا كانت تلك المسائل سبباً من أسباب الثورة، فبحسب ما ذهب إليه آل فرعون" إنَّ تلك الأسباب كانت وراء نشأة فكرة الثورة العراقية المقدسة" (فرعون، ١٩٥٢، ص٦٨).

وخلص آل فرعون إلى حقيقة مفادها، إنَّ الاستفتاء الذي افتعلته الإدارة البريطانية كان الشرارة التي اضرمت نار الثورة (فرعون، ١٩٥٢، ص٦٩)، وذلك من خلال ما انتجته من ردود أفعال عكسية، فقد كانت المضابط التي وقعها بعض الزعماء في بغداد وبقية المدن العراقية التي اوضحت الرغبة الملحة لاستقلال البلاد وتشكيل حكومة عربية يحكمها أحد انجال الشريف حسين (فرعون، ١٩٥٢، ص٧٠-٧١) (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص٦٦)، وأضاف بأنَّ رغبات بعض الشيوخ والوجهاء في مناطق الفرات الأوسط كانت تتلخص بتحقيق الحرية والاستقلال التام من خلال الاجتماع الذي عقده أولئك الزعماء بعد الاستفتاء ومن ثم مقابلة حجة الإسلام السيد محمد كاظم اليزدي بذلك الشأن. (الفرعون، ١٩٥٢، ص٧٨) (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص٦٦)

وفي الصدد نفسه، ينقل فريق المزهر آل فرعون إجابات بعض الشخصيات التي شاركت في الثورة ومن كان له الزعامة والقيادة في الكثير من احداثها، وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب كان مماثلاً لِما فعله السيد عبد الرزاق الحسني قبله في كتابه الثورة العراقية الكبرى المطبوع في عام ١٩٢٩، إذ وجه الحسني بعض الاسئلة لزعامات الثورة وممن اشترك فيها ونقله في آخر صفحات كتابه، وربما نهج آل فرعون ذلك النهج على غرار الطريقة نفسها، لما فيه من أهمية ودقة كبيرة في سرد الأحداث وبيان أهم النقاط التي غابت عنها اقلام بعض الكُتّاب، ومن أجل الوقوف على وجهة نظر أولئك الزعماء ننقل أهم ما جاء فيها بخصوص الأسباب والنتائج التي تعلقت بالثورة.

ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى أن بعض الشخصيات على الرغم من دورها الكبير في الثورة إلا انها لم تعط المعلومات الوافية عن

الثورة، سواء كان ذلك بقصد أم أن الذاكرة قد خانت البعض منهم وباتت الكثير من المعلومات في مستودعات الضياع، فعلى سبيل المثال لم نجد في إجابة عبدالكريم الجزائري، الذي يعد من أكثر رجال الثورة اطلاعاً على خبايا الأمور، التي كتبها لفريق المزهر آل فرعون في ٢٢ ربيع الأول ١٣٧١ هـ ما يشفي الغليل، إذ جاءت إجابته فارغة عن المضمون عما سأله به صاحب الكتاب "الفرعون"، والتي تضمنت أغلبها أسئلة تتعلق بأسباب الثورة وطبيعة تحركات الثوار، والجهات التي ساهمت بالمال أو السلاح لدعم الثورة، فضلاً عن طلبه بتزويده ببعض الوثائق إنْ وجدت لديهم، إذ أكتفى الجزائري بالتعليق على النقطة الأخيرة من الاسئلة التي وجهها له الفرعون والتي تتعلق بالوثائق ولم يشر إلى بقية الاسئلة، فقد اعتذر الجزائري لعدم حفظه لتلك الوثائق والأوراق (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٥٢). غير أنه في إجابته عن أسئلة السيد عبد الرزاق الحسني ذكرّ له من بين الأسباب التي دفعتهم للثورة تعود إلى إنّ القوات البريطانية كانت محتلة لأرض العراق وانها تُعد مخالفة للعراقيين خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً وديناً، إلى جانب سوء معاملة حكامها لعموم العراقيين، فضلاً عن استغاثة الزعماء بالعلماء، وإظهار المقدرة على محاربة البريطانيين وحفظ الأمن والنظام وعدم الإخلال بالأمن (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٧) (الموح، ١٩٨٦، ص٦٩).

أما السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، فقد أوجز جوابه لفريق المزهر آل فرعون بخصوص الأسباب التي دفعتهم للقيام بالثورة، وجاءت بلا شك مقاربة لِما ذكره الكثيرون، فقد أكد بانّ سياسة بريطانيا التعسفية مقابل الرغبة في الحصول على الاستقلال والحرية كانت الدافع الرئيس وراء القيام بالثورة (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٥٣-٥٥٤). لكن في إجابته عن أسئلة السيد عبدالرزاق الحسني كتبّ عن دوافع قيام الثورة، قائلاً: "إِنّ نهضة الملك حسين في الحجاز، وملوكية فيصل في الشام واتصال رجاله ببغداد، وحركة الكماليين في الشمال– يقصد في تركيا -هي أسباب انعاش الروح الوطنية عند العراقيين، والإلحاح لمطالبة بريطانيا باستقلالهم حسب الوعود، وأن خشونة الحكام العسكريين البريطانيين مع الأهلين، وعدم عدالة الحكام السياسيين في الشيوخ والأشراف والعلماء هي أسباب تنفر الرأي العام من السلطة المحتلة، فانقدحت نار الثورة من هذه الصخرة، ومن ذلك الزناد

القادح" (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٨٢).

وإلى جانب ذلك اعتقد عبدالمحسن شلاش بأنّ منشأ الثورة العراقية يعود إلى الشعور العربي المحض، الذي كانت تتحسس به جميع الشعوب العربية ضد كل سلطة أجنبية، ومن هذا المنطلق يرى بأنّ الثورة لم تكن وليدة سنتها المذكورة، ولا وليدة الحرب العالمية الأولى، وفي الصدد نفسه أشار إلى أن الغاية لم تكن عدائية ضد بريطانيا حسب، بل كان منشؤها النعرة القومية الراسخة في قبائل العراق وأريافه، واندفاع سكانه لمبدأ التحرر من النفوذ الأجنبي، وأكد ذلك من خلال أنهم ثاروا في وجه الدولة العثمانية مراراً قبل وصول البريطانيين إلى العراق (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٩٣).

وعلى صعيد آخر لم يكن جواب السيد محسن أبو طبيخ للسيد فريق المزهر آل فرعون، استثناءاً من القاعدة التي ارتكزت عليها أغلب الإجابات والرؤى، إذ أكد هو الأخر بأنّ" حركتنا –ويقصد بها الثورة -كانت للمطالبة بتحرير العراق من سيطرة بريطانيا وتحقيق الاستقلال التام والناجز– على حد تعبيره- (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٥٦)، بينما ذكرّ في جوابه للسيد عبدالرزاق الحسني في ٨ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٤ بأن حب الوطن والرغبة في تخليصه من نير الاستعمار كانت الأسباب وراء القيام بالثورة ضد البريطانيين .وهنا يشاطر أبو طبيخ رأي الكثيرين ممن ذكروا الدوافع والأسباب الرئيسة للثورة .وأكد ذلك الرأي السيد علوان الياسري، وهو الزعيم الفعلي لثورة العشرين، في جوابه عن أسئلة السيد عبدالرزاق في ١٩ شعبان ١٣٥٣ هـ /١٩٣٥م عندما كتب بأنّ الدافع الوطني هو من دفعهم للثورة (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٩٣).

ومن بين تلك الآراء أيضاً، أكد السيد كاطع العوادي بأنّ بعض زعماء منطقة الفرات الأوسط منذ عام ١٣٢٩ هـ طالبوا بتشكيل حكومة لا مركزية وأنّ تلك الفكرة لم تكن وليدة اللحظة لديهم آنذاك، وإنما كانت مختمرة في أذهان قادتهم منذ زمن العثمانيين .ونجد مثيلاً لهذا الكلام أيضاً عند السيد سعيد كمال الدين عندما أشار قائلاً: "بأنّ بعض الأفراد من أهالي النجف كانوا يعقدون الاجتماعات في دار السيد أحمد الصافي منذ أواخر عام ١٩١٦ بغية العمل من أجل تخليص العراق من الاستعمار البريطاني والعمل على استقلاله"، ولم يكتف بذلك فقد أكد في إجابته عن أسئلة الفرعون بأنّ دافعهم للقيام بالثورة كان بقصد التخلص من الحكم البريطاني وعدم السماح للبريطانيين

للتدخل في شؤون العراق الداخلية. (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٥٧-٥٦٧)

ولعل كلام السيد كاطع العوادي والسيد سعيد كمال الدين فيه الشيء الكثير من الوجاهة إذا ما أخذنا بناحية تفسير عدد الثورات والحركات المعارضة للعثمانيين في المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، ولكن إذا نظرنا إلى موقف عشائر الجنوب والفرات الأوسط في معركة الشعيبة عام ١٩١٥ عندما وقفوا إلى جانب العثمانيين ضد البريطانيين وجدناها تنافي ما سبق ذكره (الحبوبي، ٢٠١٢، ص١٤١)، إلا اننا يمكن ان نرجعها لعامل الدين والشريعة، إذا كان أبناء العراق وتحديداً في الاقسام الوسطى والجنوبية أكثر تمسكاً بتعاليم رجال الدين وفتاويهم الشرعية، ويمكن أن تعكس تلك الصورة موقفهم المساند للعثمانيين في عام ١٩١٥ .لكن هذا لم يتعارض مع الواقع لأنه لما وجد العراقيون سياسة البريطانيون أشد تعسفاً واضطهاداً من العثمانيين، ثاروا ضدهم.

أما الحاج صلال الفاضل فقد سرد أربع صفحات عن الثورة ودوره فيها دون الإشارة إلى أسبابها، لكن من بين السطور يمكن أن نستنتج من كلامه بأن السياسة المتعالية لحكام الولايات البريطانيين وعنجهيتهم في معاملة سكان الريف كانت السبب في قيام الثورة .كما لم يخرج جواب الشيخ محمد رضا الشبيبي عن دائرة المطالبة بالاستقلال والمحافظة على سيادة العراق، إذ أكد بأنّ سياسة بريطانيا القائمة على المماطلة والتسويف وغمط حقوق السكان كانت وراء الثورة واشعال فتيلها .وهذا الأمر ينطبق تماماً على وجهة نظر الحاج رايح العطية .ولم يبتعد كثيراً الشيخ خميس الضاري، رئيس عشائر زوبع في لواء الدليم، في إجابته التي رفعها إلى المؤلف" فريق الفرعون "في ٢٦ شباط / فبراير ١٩٥٢، فقد أكد في إجابته على ما ذهب إليه السابقون، مشيراً إلى أن الدافع الوطني بغية الاستقلال وتشكيل حكومة عربية يترأسها أحد انجال الشريف حسين كانت السبب وراء قيام الثورة. (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٦٣-٥٧٨) (بيل، ١٩٧١، ص١٦٥)

وما من إجابة تجلّت فيها حقيقة القيام بالثورة واندلاعها يمكن ان نستشفها في إجابة السيد ناجي السويدي الذي اعتقد بأن نزوع الشعب العراقي وميله للحرية، وعدم رضوخه للمستعمرين، وبيان الجنرال مود Maude وبنود الرئيس الأمريكي ويلسن الأربعة عشر (الاستقلال، ١٩٢٠) (العسكري، ١٩٣٨، ص٤٤)، ووعود الحلفاء المتكررة بتخليص الشعوب

المستعمرة من قبل العثمانيين، سوء معاملة الحكام البريطانيين وغطرسة ضباطهم وجنودهم وتحكمهم في رقاب الناس، فضلاً عن التضييق الشديد بالضرائب على الفلاحين بغية تحقيق الأموال الأميرية وجبايتها، واستثناء بعض المتزلفين والمتملقين إليهم من ذلك، والأهم من ذلك شيوع بعض الأخبار عن وجود مخطط يهدف إلى إلحاق العراق بحكومة الهند، والإفراط في توظيف الهنود واستخدامهم في الوظائف الحكومية، إلى جانب الاختلاف الديني والمدني بين العراق وبريطانيا، والرغبة في تأسيس حكومة مستقلة في العراق على غرار ما حصلت عليه سوريا ومملكة الحجاز. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٦٨-٣٦٩)

ويمكن ان نلمس الصورة ذاتها في جواب الشيخ سوادي الحسون، شيخ عشيرة بني عارض، الذي أكد بأن الهدف من الثورة يكمن في تأسيس حكومة وطنية تعمل على استقرار العراق وسيادته (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٨٤)، أما السيد ناجي شوكت فقد انفرد بتقسيم الأسباب على ثلاثة أقسام رئيسة وهي أسباب موضوعية بالنسبة إلى القبائل التي قامت بها، وأُخرى دينية من حيث مشاركة رجال الدين وبعض المجتهدين فيها، والثالثة قومية نتيجة لمشاركة بعض الجمعيات السرية فيها وتغذيتها بالأفكار والآراء، ويؤكد هذا الاعتقاد أيضاً الشيخ علوان الحاج سعدون، رئيس عشائر بني حسن في منطقة الكفل، عندما كتبَّ بأنَّ من أسباب قيام الثورة هو العامل الديني والوطني والعربي. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٠، ٣٩٣)

وعلى غرار ما ذكره السيد كاطع العوادي والسيد سعيد كمال الدين، كتبَّ الشيخ عبد الواحد الحاج سكر في جوابه للسيد فريق المزهر آل فرعون بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٧١ هـ بأنَّ الثورة كانت لها جذور للمطالبة بالاستقلال منذ زمن الحكم العثماني، وأن السبب الرئيس لقيامهم بالثورة كان العامل الديني والوطني فقد لخص فكرته بالعبارة الآتية" ثرنا للتخلص من سيطرة دولة أجنبية للحصول على الاستقلال" (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٨٧)، وقد أكد هذا الأمر في جوابه للسيد عبدالرزاق الحسني عندما كتبَّ له" طلبنا الاستقلال التام من الحكومة البريطانية بناء على ما سبق من وعودها وتعهداتها[...] ، ولهذه الأسباب حدثت الثورة العراقية." (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٠-٣٧١)

ولم يبتعد السيد جعفر أبو طبيخ، شقيق السيد محسن أبو طبيخ، كثيراً عما جاء في آراء

بقية زعماء الثورة، فقد كتبّ بأنّ مطالب الشيوخ الوطنيين بالاستقلال والإيفاء بوعد الجنرال مود السابق عندما دخل بغداد في عام ١٩١٧، بأن بريطانيا جاءت محررة وليست فاتحة (حسان، ٢٠٠٨، ص٤١-٤٥)، فضلاً عن سياسة البطش التي اتبعها الحاكم البريطاني أرنولد ولسن، بتحريض من بعض الافندية وشيوخ العشائر الذين عدّهم السيد جعفر أبو طبيخ خائنين للبلاد راكضين وراء مصالحهم ونفوذهم وذكرّ بأنّ كوكس قد تمكن من كسبهم لصالح بريطانيا من قبل وشراء ذممهم هو والمس بيل (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص٩٢).

وفيما يتعلق بتلك الوعود، يمكن القول بأنها كانت أسلوباً من أساليب الدعاية السياسية التي استخدمتها بريطانيا في الحرب العالمية الأولى قاصدة بها اجتذاب العرب إلى جانبها ضد العثمانيين، ولم تعلم أن تلك الوعود ستستخدم سلاحاً ضدها بعد انتهاء الحرب.

وتماشياً فيما ذكره قادة الثورة، كان رأي السيد علي جودت الأيوبي بعيداً عما ذهب إليه الآخرون، فقد كتبّ قائلاً: "بأنّ انتشار الوعي الوطني في العراق يعزّزه نشاط الجمعيات ورجال الثورة في سوريا وبعض الأقطار العربية، كانت السبب في اندلاع الثورة" (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٢). والاغرب من ذلك ما ذكره تحسين العسكري بأن الفضل الكبير يرجع إلى جمعية العهد في سوريا واتصالاتها مع شبيهتها في الموصل في نضوج فكرة المقاومة المسلحة، ومن ثم ظهرت بوادر الثورة في الفرات الأوسط (العسكري، ١٩٣٨، ص٩٥). ولعلنا لا نوافق على الرأي الذي ذهب إليه الأيوبي والعسكري، وذلك لأنه وبدون تجرد لم تسجل أحداث الثورة منذ قيامها وحتى انتهاء احداثها أي دور يذكر لأصحاب جمعية العهد أو مناطق شمال العراق، وحتى إذا اخذنا بنظر الاعتبار الحركات التي وقعت في تلك المناطق قبيل اندلاع ثورة العشرين فإنها لا تمت بصلة بتاتاً بما حدث في الفرات الأوسط، وقد بيّن ذلك جميع من اشترك في الثورة في مذكراتهم الشخصية، وحتى في اجابتهم للسيد الحسني وكذلك لمزهر الفرعون، والأغرب ما في الأمر هو محاولة البعض جرّ الثورة عن أحداثها الواقعية، ومحاولة إلصاق بعض قطع الغيار الصدئة في قلب تاريخ الثورة العراقية، لأنه لا ينكر أحد ما لمثقفي بغداد والموصل وحتى بعض الزعماء من مناطق الشمال من مواقف معارضة للبريطانيين، ولكن لا تمت بصلة لثورة الفرات

الأوسط، ولم نجد أي دلائل واقعية تثبت خلاف ذلك، وحتى الدكتور كمال مظهر أحمد عندما كتب عن دور الأكراد في ثورة العشرين حاول قدر الإمكان إعطاء دور لهم في ثورة العشرين ولكنه لم يعتمد على أي سند شعبي أو رسمي في ذلك، لذا نجد الحقيقة التاريخية قد حرفت عن مسارها الصحيح في هذا الجانب، وقد دلل الدكتور كمال بنفسه عما ذهبنا إليه في الكثير من المواقف، سوف أضرب صفحاً عن ذكرها جميعاً تجنباً للإطالة، فقد ذكر الدكتور كمال بأن بريطانيا بذلت جهود كبيرة في عزل المنطقة الكردية وعدم مشاركتها في ثورة الفرات الأوسط، وقد نجحت في مسعاها، ثُمَّ أردف قائلاً: "وهناك عامل مهم آخر لعب دوره في عدم انتقال الحراك الجماهيري الكردي ومشاركته للعرب...، لأنه لا يوجد هناك أي اتصال بين قادة ثورة العشرين والمنطقة الكردية"، وهذا دليل أخر يعطي الانطباع بأن المنطقة الكردية كانت بمعزل عن أحداث الثورة وتطوراتها، وأضاف "إنَّ العديد من الوطنيين الأكراد وقعوا فعلاً تحت تأثير الدعاية البريطانية التي أشاعتها آنذاك فيما يخص الطابع القومي والديني لثورة العشرين، ولهذا السبب [بحسب اعتقاده] ظلت فورة المناطق الكردية عفوية على الأغلب، وغير منظمة ومتباعدة الحلقات"...، وفي صفحة أُخرى كتبَّ يقول: "على الرغم من كل هذا الزخم فإنَّ قيادة الثورة في بغداد ومدن الفرات الأوسط ظلت معزولة عن المنطقة الكردية." (أحمد، ١٩٧٨، ص١٤٦،١٤٨، ١٤٩، ١٥٢)

وإذا أردنا أن نعقب على ما كتبه الدكتور كمال نجده يؤكد بنفسه بأن بريطانيا نجحت إلى حدٍ ما في اقناع الاكراد بأن الثورة في الفرات الأوسط والجنوب ما هي الا معارضة قومية تخص العرب وحدهم، وانها ذات طابع ديني– شيعي -بحت، لذا اقنعت الاكراد بالابتعاد عنها وعدم المشاركة فيها، وهذا بحد ذاته تأكيد أخر يمكن أن نضيفه إلى العوامل التي أكدها الكاتب بذاته بأن الاكراد لم يشتركوا في الثورة وأن بعض القلاقل كانت في مناطق متفرقة لم ترتق لمستوى الثورة، لا سيما وأن الكاتب نفسه قد وصفها بالحراك الجماهيري الكردي مرة، وبالفورة الجماهيرية مرة أخرى.

ولعلنا نجد فيما كتبه الفياض بهذا الصدد دلالة تؤكد ما ذهبنا إليه، إذ أكد في بداية حديثه عن الثورة ما نصه" وليس غريباً أن نجد ثورة العشرين التي نحن بصدد تدوين تاريخها تقوم في الدرجة الأولى على اكتاف سكان

بغداد والفرات الأوسط وبعض مناطق ديالى والفلوجة، بينما نجد اسهام سكان شمال العراق فيها كان ضئيلاً إنْ لم يكن معدوماً" (فياض، ١٩٧٥، ص٤٣). ولم يقتصر الأمر على الفياض فقط، فقد ذكر القصاب في مذكراته بأن نار ثورة العشرين قد سرت في جميع مناطق الديوانية والحلة وكربلاء والمنتفق وديالى، باستثناء الكوت والعمارة وكركوك وأربيل (القصاب، ٢٠٠٧، ص١٧٦)، وهذا الكلام على ما يبدو يعطي دلالة أخرى تؤكد على عدم اشتراك المناطق الشمالية في ثورة العشرين .

ويبتعد إلى حدٍ ما السيد جلال بابان عن فكرة الأخرين، فقد حدد في إجابته للسيد عبد الرزاق الحسني بتاريخ ٩ شباط /فبراير ١٩٥٢ بعض النقاط التي أسهمت في قيام الثورة، فقد كتبَّ له بإسهاب عن جملة من الأمور نقتطف منها العبارة الآتية" عندما وقعت الحرب العالمية الأولى كانت هذه من أهم العوامل المؤثرة لظهور الحركة القومية في البلاد العربية[...]، وقيام الثورة العربية الكبرى التي تقبلتها الأقطار العربية أحسن قبول، لما فيها من أثر في تحقيق الآمال التي كانت تصبو إليها بوجه عام[...]، وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى بفوز الحلفاء، وما ظهر من عوامل النكول من قبلهم في تحقيق أماني العرب، وعدم الوفاء بالعهود، رغم ما كان من بيان الجنرال مود إلى العراقيين عند دخوله بغداد، بأنهم جاؤوا العراق محررين لا فاتحين، ورغم ميثاق] مبادئ [الرئيس ويلسن، وما قطعه الحلفاء على أنفسهم من وعود[...]، ولدت هذه النتائج التذمر الكلي في النفوس في كافة الأقطار العربية وبالأخص العراق الذي كان له من شواهد الماضي في ثوراته المتوالية ونزعته الاستقلالية إبان الحكم العثماني، وعدم رضوخه للحكم الأجنبي، لما جبل عليه من عزة نفس وكرامة وطنية[...]، ولهذه العوامل ونتائجها شعر العراقيون بأن من واجبهم العودة إلى الجهاد والتضحية في سبيل حريتهم، والوصول إلى أهدافهم لتحرير العراق واستقلاله." (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٤)

ولعل أنصع صورة هي تلك التي رسمها لنا السيد محسن أبو طبيخ في كتابه" المبادئ والرجال "عندما كتب عن اجتماعهم مع ولسن (العسكري، ١٩٣٨، ص٤٥)، قائلاً: "إنَّ ولسن كان يعتقد أن نجيبه بقبول حكمهم"، لكن الزعماء (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص٩٤)، أجابوه بما يلي" إنهم يريدون حكومة عربية مستقلة يرأسها أحد انجال جلالة الملك حسين شريف

مكة، وفيما بعد وقعوا على طلب بذلك الخصوص باستثناء السيد هادي الرفيعي، نقيب أشراف النجف" (فياض، ١٩٧٥، ص٢١١-٢١٢)، الذي انفرد بطلب بقاء الحكم البريطاني المباشر (أبو طبيخ، ١٩٣٨، ص٢٦-٢٧). وهذا الأخير كان معروفاً بميوله لصالح البريطانيين لذا لم نجد أي دواعي للتعليق على ذلك.

وعلى الرغم مما زعم البعض به من المؤرخين" بأنّ الثورة كانت عفوية"، وقد قامت بها بعض عشائر الفرات الأوسط لضمان بعض المصالح الشخصية، إلا أن هناك بعض الدلائل التي تفند ما زعم به أولئك الكُتّاب، فبحسب ما جاء في كتاب أحمد كامل أبو طبيخ، إنّ بعض زعماء العشائر ووجهاء بعض المدن في كربلاء والنجف الأشرف والديوانية والسماوة، إلى جانب رجال الدين، قد عقدوا عدة اجتماعات دورية في مدينتي النجف وكربلاء، ولعل أهمها الاجتماع الذي عقدوه في ٤ آيار /مايو ١٩٢٠ بدار السيد أبو القاسم الكاشاني الملاصق للصحن الحسيني الشريف في منطقة باب السدرة، وفي ذلك الاجتماع أقسموا على الإخلاص لقضيتهم التي اجتمعوا لأجلها وهي العزم على مواجهة القوات البريطانية وتحرير البلاد. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص١٣٤) (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص١٠٠)

ثُمَّ جاء الاجتماع الثاني والأهم في دار حجة الإسلام محمد تقي الحائري الشيرازي، وفيه طلب المجتمعون إذن الشيرازي ومباركته للقيام بثورتهم ضد البريطانيين، غير أن الشيرازي أبدى في بادئ الأمر بعض التحفظات خشية على أرواح أبناء القرى والأرياف (الوردي، ٢٠١٣، ص١٣٧)، وكذلك خوفاً على ضياع الأمن في البلاد، غير أنه بعد أن أخذ العهود منهم على حفظ الأمن العام في البلاد تعهدوا إليه بذلك، فقال لهم" إذا كانت هذه نيتكم وهذه تعهداتكم فالله في عونكم"، وبهذا الكلام دلالة شرعية للقيام بالثورة، إذ عُدّت كلمة الشيرازي بمثابة الفتوى الأولى للقيام بالثورة، وهذا بلا شك يفند ما زعمَّ به الأخرين بأنّ الثورة تفتقد إلى الشرعية. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٩٩-١٠٠) (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص١٠١)

وبعد عقد اجتماع الزعماء في دار السيد نوري الياسري في ١٦ شعبان ١٣٣٨ هـ / ٥ آيار /مايو ١٩٢٠، أي بعد زيارة النصف من شعبان بيوم واحد، توجه الحاضرون لإداء القسم داخل الصحن الشريف للإمام الحسين (ع) وهناك أقسموا اليمين للإخلاص بالعمل للثورة والوفاء لها (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص١٠١).

ويمكن أنْ نضيف تأكيداً آخر لِما ذهب إليه الثوار وهو مطالبهم بالاستقلال وليس المصالح الذاتية، فبعد اندلاع الثورة طلب الميجر نوربريNorbury حاكم لواء الشامية والمشخاب لقاء زعماء الفرات الأوسط في مضيف الشيخ مرزوك آل عواد قرب الشامية، ولما حضر الزعماء، تفاجأ الحاضرون بمجيء حاكم الشامية العسكري الكابتن مين Men على رأس قوة عسكرية ينوي القبض عليهم أو البطش بهم، لكنه غيّر من رأيه بعد أن لاحظ كثرة عددهم وسلاحهم، ولما سألوه عن الميجر نوربري الذي لم يحضر كما كان متوقع، أجابهم: "إنه تأخر لأمر هام، وأرسلني لمقابلتكم"، وبلا شك أنه لم يقل الحقيقة كلها، إذ كان يضمر العداء لهم وجاء لتطبيق آمر آخر، وهو القبض عليهم وإيداعهم السجون، وهي عادة اتبعها البريطانيون مع بعض زعماء العشائر، ومع ذلك يبدو أن الحاضرين كانوا أذكى منهم فقد أجابوه: "أخبره بأننا نريد الاستقلال كما بينا في مذكراتنا السابقة، وإلا سترون منا العجب"!، فقال لهم: "إنكم تقاومون دولة عظمى"، فردوا عليه" لسنا كالهنود، إننا نريد إجلاءكم من مناطق الفرات الأوسط كافة حتى بغداد، ونريد تشكيل حكومة وطنية تحكم البلاد." (أبو طبيخ، ٢٠٠١، ص١٠٣) (علي كمال الدين، ١٩٨٦، ص٦٢)

وفي ذلك الخطاب تتجلى الصورة أكثر وضوحاً بأنّ ما قام به العراقيون في أواخر حزيران / يونيو ١٩٢٠ كان مخططاً له مسبقاً، وأُعدت له الاجتماعات ووضعت له الخطط، لذا لم يكن من الانصاف أنْ نحكم على ثورة قام بها أبناء بلد من أجل التحرر والاستقلال للتخلص من نير الاستعمار، بأنها أعمال عفوية قامت لتغذية مصالح ذاتية .ويمكن أن ندلل على ذلك من خلال النتائج التي أفرزتها ثورة العشرين في العراق.

المبحث الثالث: نتائج ثورة العشرين من وجهة نظر زعماء الثورة وقادتها

استمرت الثورة قرابة خمسة أشهر استخدمت فيها بريطانيا مختلف الأسلحة والسبل بغية اخمادها، فضلاً عن صمود أبناء العشائر ومقاومتهم لجيوش أكبر امبراطورية عرفها العالم آنذاك، إلى جانب الدافع الديني الذي لعب دوراً رئيساً في حث الثوار على مقاومة المحتلين، ويعزو الكثيرون أسباب نهاية الثورة دون الصمود بوجه البريطانيين إلى النهاية إلى فقدان التكافؤ بين الطرفين، ومع ذلك يكاد لا يختلف قادة الثورة في النتائج التي حققتها ثورة عام ١٩٢٠ في العراق، ويبدو أنّ

هناك اتفاق في الآراء بين الكثيرين على انها كانت تُعد الرحم الذي انبثقت عنه الدولة العراقية الحديثة في عام ١٩٢١، فلولا تلك الثورة واستماتت أبناء العشائر في قتال بريطانيا لما قامت الأخيرة في منح العراق الحكم الوطني، وإن كان قد اتصفَّ إلى حدِ ما بالاستقلالية، إلا انه مهدَّ لقيام دولة ذات سيادة فيما بعد، فقد عُدَّ التغيير النسبي الذي طرأ على السياسة البريطانية تجاه العراق من أهم ما حققته الثورة العراقية .ولعل فيما كتبه زعماء الثورة دلالة واضحة على ذلك على الرغم من الاختلاف والتباين الواضح في الآراء.

فقد أعتقدَّ الشيخ محمد رضا الشبيبي إنَّ أبرز ما انتجته الثورة إنها غيّرت الاعتقاد السائد بين العراقيين بخصوص شجاعة البريطانيين وإمكانياتهم، فقد ظلَّ الكثير يرى فيهم الجبن والخداع، وإن مواجهتم باتت من الأمور السهلة والهيّنة لديهم (الشبيبي، ٢٠١١، ص٣١٧)، وهذا الأمر أكدته المس بيل في تقاريرها أيضاً، فقد كتبت بهذا الصدد أن البعض من القبائل شاهدت انسحاب القوات البريطانية أمام بعض الأحداث السابقة في العراق، فأصبحت لديها قناعة استنهاض الهمم ضد البريطانيين (بيل، ١٩٤٩، ص١٥٤-١٥٥)، أما جواب محمد رضا الشبيبي لفريق مزهر آل فرعون عن نتائج الثورة فقد جاء مقتضباً جداً جاء فيه" إنها لم تحقق نتائج آنية في وقتها." (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٧٥-٥٧٦)

وفي مكان أخر ذكر الشبيبي بأن الدولة الجديدة التي تشكلت في اعقاب الثورة كانت "مستقلة ذات سيادة في الظاهر، ولكنها لم تكن كذلك في الواقع، فالاستقلال كان ملوثاً أو ناقصاً نقصاً فاضحاً، بل كان الحكم ثنائياً بين البريطانيين وبين البعض من صانعيهم واعوانهم ."ومن خلال ذلك يظهر أن الثورة لم تحقق أهدافها كلها، كما رسم له الثوار، وأن الثمرة التي نتجت عنها كانت مبتسرة لأن الحكومة التي تمخضت عنها الثورة كانت واجهة يكمن وراءها الانتداب البريطاني. (فياض، ١٩٧٥، ص٣٦٢)

كما أيد ذلك القول الكاتب السوفيتي كوتلوف الذي اعتقد بأن الثورة العراقية لم تحقق جميع أهدافها التي سعى من اجلها الثوار، فمطاليبهم المتمثلة بالانسحاب وكذلك المطالبة بالاستقلال التام، لم تكن مقبولة من قبل البريطانيين، ولم ينل العراق السيادة الكاملة. (كوتلوف، ١٩٧٥، ص١٩١)

ونجد في جواب الشيخ عبدالواحد الحاج سكر ما يؤيد ما ذكرناه أعلاه، فقد قال: "لم نحصل

من الثورة إلا على حكم يسمونه وطنياً، ولو سألتني هل حققت الحكومة الوطنية أهداف الثورة لقلت لك إنها لم تحقق من اهدافها كل شيء" (الفرعون، ١٩٥٢، ص٥٨٧). بل أنه أعتقد على العكس مما كانوا يتصورونه ما بعد الثورة إذ ذكرّ بأنّ الذين ثاروا لم يحصلوا إلا على الضرر، وكان الشيخ عبدالكريم الجزائري يعتقد" بأن الغاية التي قصدناها بنهضتنا ومجازفتنا ما حصلت، فالحالة الدينية والحالة الاجتماعية إلى ضعف بل إلى اضمحلال" (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٩٠) (فياض، ١٩٧٥، ص٣٦٥)، وفي قول الشيخ عبدالواحد والشيخ الجزائري ألف معنى ومغزى.

لكن سوادي الحسون، رئيس بني عارض ذكر خلاف ما ذهب إليه البعض، فقد أوضح بأن من أهم نتائج الثورة هو تشكيل الحكومة الوطنية، بينما أكد السيد عبد الكريم الجزائري بأنّ الثورة قد وضعت الحجر الأساس في تشكيل حكومة عربية إسلامية .ولم يبتعد عن هذا الرأي حجة الإسلام محمد جواد صاحب الجواهر أيضاً. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧٨-٣٨١) (فياض، ١٩٧٥، ص٥٨٤)

أما ناجي شوكت فقد ذكر" إنّ كيان العراق الحاضر بني على دعائم الثورة، كما أن العراق مدين بوحدته الوطنية واستقلاله السياسي لهذه الثورة ."بينما كانت وجهة نظر علي جودت الأيوبي واضحة بخصوص ذلك، فقد بيّن بأنّ ما حققته الثورة لا يُعد ولا يُحصى، ولعل انتهاء حكم الاحتلال والانتداب من بعدها وقيام الحكم الوطني وتأسيس كيان العراق السياسي وتطور البلاد سياسياً واجتماعياً ما هو إلا آثار لتلك الثورة .واعتقد السيد جلال بابان بأن ما ناله العراق من مركز سام بين الأمم، وما اكتسبه من وضع دولي فيما بعد هو نتيجة أساسية لتلك الثورة .كما اعتقد البعض بأنه كان للثورة نتائج إيجابية واضحة على الوعي الوطني لدى العراقيين. (الحسني، ١٤٢٦هـ، ص٣٧١،٣٧٣،٣٧٦) (حسّان، ٢٠٠٨، ص٤١)

وذهب الشيخ صلال الموح للقول: "إنها ثورة –بحسب نتائجها -فاشلة إذا ما قيست بالثورات التي حدثت في العالم"، ورجح ذلك القول بالاعتقاد القائم على أنه حينما قال بأنها فاشلة كونها لم تحقق ما قامت من أجله، بل انها خدمت مصالح الأجنبي أكثر من المحلي، معتقداً بأن الحكم الوطني لم يكن بعيداً عن سيطرة البريطانيين، فبعد مجيئ فيصل الأول من لندن إلى الحجاز واتصالهم به ومن ثم جلبه العفو العام لهم من ملك بريطانيا، ما هو إلا دليل واضح على ما يقول بحسب

اعتقاده. (الموج، ١٩٨٦، ص٦٥-٦٦)

ويبدو أن تلك الفكرة لم تغب عن ذهن صاحب المذكرات فقد عاد يؤكد مرة ثانية بأن الثورة قد فشلت لأن المستعمر الذي خرج من الباب قد عاد مرة أُخرى من الشباك، ونصب اشخاصاً وصفهم بالأصنام والبيادق إذ كانت تحركهم بريطانيا من وراء الستار، وقد استولوا على مقدرات البلاد ونهب ثرواتها باسم الحكم الوطني. (الموج، ١٩٨٦، ص٨٥)

وعلى الرغم من سيئات الحكومة التي تشكلت في العراق بعد ثورة العشرين، إلا إن تشكيل تلك الحكومة يمكن عدها نتيجة مهمة من نتائج تلك الثورة، وحدثاً تاريخياً مهماً ليس في تاريخ العراق فحسب، بل كان لها التأثير النسبي على أحداث المنطقة بشكل عام، كما عدت تلك المرحلة نقطة فاصلة بين عهدين في تاريخ العراق الحديث والمعاصر.

الاستنتاجات

وفق منطق التاريخ وقوانينه، يمكن القول أن من أجج نار الحقد الدفين في نفوس العراقيين والذي أنعكس واضحاً في النشاط المعادي للبريطانيين ومن ثم بروزه بشكل واضح فيما بعد في ثورة العشرين، هو السياسة الفاشلة التي أتبعتها بريطانيا في العراق، وعدم إدراكها لماهية اعراف الشعب العراقي وتقاليده فضلاً عن مدى تأثير الدين ورجالاته على الأمور الداخلية، فضلاً عن بعض التأثيرات الخارجية التي أثرت بنسب متفاوتة إلى حدٍ ما.

ومن ملاحظة ما كتبه الأخرون يبدو أن هناك خلط كبير بين أغلب الباحثين فيما يتناولونه بخصوص طبقة المثقفين وبين الفلاحيين، وقود الثورة، فعندما كتبوا عن تأثير بعض الأطراف الخارجية بأنها تركت بصمات واضحة على المثقف العراقي، تناسوا بأن المثقف العراقي على الرغم من رفضه للوجود البريطاني إلى مستوى محدد، إلا أن الفلاح وزعيم القبيلة فضلاً عن رجال الدين والعلماء هم من ثاروا ضد بريطانيا ورفعوا السلاح ضدها وليس سكان المدن، ولعل فيما كتبته المس بيل دليل قاطع على ما ذهبنا إليه، عندما كتبت بأن خطر التعبئة الثورية لم يكن يكمن في بغداد ومثقفيها، وإنما كان منطوياً على القبائل وزعمائها، حيث أن سكان العراق في خارج حدود المدن كانوا يتألفون من جمهرات بدوية أو نصف ذلك، وكانت غالباً ما تبدي مقاومة مستديمة للحكومات السابقة .

إنّ السياسة البريطانية في العراق استهدفت البقاء في تلك البلاد وأن ثورة العشرين كانت

من العوامل الرئيسة في تغيير تلك السياسة أو اكسابها مرونة أكثر من ذي قبل في أقل تقدير .وقد يصح القول إذا اعتبرنا بأن ثورة العشرين قد حققت بعضاً من أهدفها إذا اعتبرناها ثورة ضد إملاءات الدول المتحالفة، وأن البذرة غرست عندما قررت بريطانيا إزاء الثمن المروع الذي كلفها إياه إبان الثورة، أن تغير سياستها وتغير معها خططها العسكرية، وقد فسرت ذلك بقولها" إنَّ غاية الحكومة البريطانية كانت دائماً في إنشاء حكومة عربية في العراق."

ومن المهم أن نلاحظ هنا أيضاً إن فكرة الاستقلال لم تتبلور في ذهن الفلاح العراقي من قبل بالشكل الذي حدث أيام ثورة العشرين، ومهما بالغنا فإننا لا نكاد أن نتجاوز الواقع في تقدير الفضل الذي تدين له البلاد بأكملها لثورة العشرين، على الرغم من نتائجها الآنية، نتيجة لِما حققته من مكاسب على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي فيما بعد.

ولكن مع أهمية ما ذكرناه، فإن عوامل كثيرة أسهمت في خلق الظروف المناسبة للتعجيل في قمع الثورة من قبل البريطانيين، إذ لم تلعب القوات البريطانية الدور الأخير في تحجيم الثورة وحدها، وإنما كان هناك الرجعية لبعض شيوخ العشائر ووقوف العديد منهم لجانب بريطانيا وتخاذلهم لمصالح البلاد، لذا لعبوا الدور الأكبر في وضع النهايات المؤلمة للثورة وقياداتها .

المصادر والمراجع

أولاً:الكتب العربية والمعربة

أبو طبيخ، السيد محسن. (١٩٣٨). **المبادئ والرجال**. دمشق: مطبعة ابن زيدون .

أبو طبيخ، جميل. (٢٠٠١). **مذكرات السيد محسن أبو طبيخ ١٩١٠ – ١٩٦٠ خمسون عاماً من تاريخ العراق الحديث** .بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أحمد، كمال مظهر. (١٩٧٧). **ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي**. بغداد: مطبعة الزمان.

ـــ (١٩٧٨). **دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية**. بغداد: مطبعة الحوادث.

الأعرجي، حليم حسن. (٢٠١١). **الشيخ خوام ١٨٨١-١٩٦٧ الثائر ...الإنسان قصة تحدي التبعية والتعسف في ظل ظروف القهر والتخلف** .ط٢ .بيروت: دار المحجة البيضاء.

آل فرعون، فريق المزهر. (١٩٥٢). **الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها** .الجزء الأول. بغداد: مطبعة النجاح.

البازركان، علي. (١٩٩١). **الوقائع الحقيقية في**

الثورة العراقية .تحقيق ومراجعة عماد عبدالسلام رؤوف .ط٢. بغداد: مطبعة الاديب البغدادية.

بيل، المس. (١٩٤٩). **فصول من تاريخ العراق القريب** .تعريب جعفر الخياط. بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع .

ـــــ (١٩٧١). فصول **من تاريخ العراق القريب** . تعريب جعفر الخياط. بيروت: د .ن.

تويج، عبدالرسول. (١٩٨٧). **مذكرات الحاج عبدالرسول -من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** . تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

الحبوبي، علي فاروق محمود عبدالله. (٢٠١٢). **محمد سعيد الحبوبي ودوره العسكري والسياسي** ١٨٤٩ – ١٩١٥. النجف: العتبة العلوية المقدسة.

حسّان، عبد الكريم. (٢٠٠٨). **الملكية في العراق من ثورة العشرين حتى انقلاب** ١٩٥٨ **– سيرة الشيخ رايح العطية رئيس عشيرة الحميدات الثائر والسياسي الوطني**. بيروت: الفرات للنشر والتوزيع.

الحسني، عبد الرزاق. (١٤٢٦ هـ). **الثورة العراقية الكبرى**. مؤسسة المحبين .قم.

خيري، سعاد. (١٩٨٠). **من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق** ١٩٢٠ – ١٩٥٨. بيروت: دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع.

الزاهد، عبد الحميد. (١٩٨٧). **صفحات من مذكرات عبدالحميد الزاهد** .من المشاركين بأحداث الثورة العراقية ١٩٢٠ .تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

الشبيبي، محمد رضا. (٢٠١١). **مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي ورحلاته** .تقديم وإعداد وتوثيق: كامل سلمان الجبوري. بيروت: الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع.

صالح، زكي. (١٩٥٣). **مقدمة في دراسة العراق المعاصر**. بغداد: مطبعة الرابطة.

صالح، (١٩٨٧). **صفحة من مذكرات السيد سعد صالح - أحد رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** . تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

العسكري، تحسين. (١٩٣٨). **مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية** .ج٢ . النجف: مطبعة الغري.

علي، عباس. (١٩٥٠). **زعيم الثورة العراقية - صفحات من حياة الزعيم العظيم السيد الصدر**. بغداد: مطبعة النجاح.

العمر، عبدالجبار. (١٩٨٣). **محاكمات سياسية مثيرة أمام القضاء العراقي -مصرع الكولونيل لچمان**. بغداد: دار القادسية للطباعة.

العمر، فاروق صالح. (٢٠١٣). **ثورة أكتوبر البلشفية ١٩١٧م وتأثيرها في أوربا-تركيا-العراق في ضوء الوثائق البريطانية**. بيروت: مطبعة البصائر.

العمري، محمد طاهر. (١٩٢٥). **مقدرات العراق السياسية** .ج ٣. بغداد: المطبعة العصرية .

فراتي. (١٩٥٢). **على هامش الثورة العراقية الكبرى - خواطر وتعليقات مستمدة من الواقع المرئي والمسموع عن الثورة العراقية لسنة ١٩٢٠**. بغداد: شركة النشر والطباعة المحدودة.

فياض، عبدالله. (١٩٧٥). **الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠** .ط٢. بغداد: مطبعة دار السلام.

القصاب، عبد العزيز. (٢٠٠٧). **مذكرات عبدالعزيز**. إعداد وتحقيق خالد عبدالعزيز القصاب. بيوت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

كمال الدين، سعيد. (١٩٨٧). **صفحاتٌ من مذكرات السيد سعيد كمال الدين -أحد رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** .تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني .

كمال الدين، حسين. (١٩٨٧). **صفحاتٌ من مذكرات السيد حسين كمال الدين -أحد رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** .تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

كمال الدين، محمد علي. (١٩٧١). **معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠** .قدم له علي الخاقاني. بغداد: مطبعة التضامن.

كمال الدين، محمد علي. (١٩٨٦). **مذكرات السيد محمد علي كمال الدين .من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** .تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

كوتلوف، ل .ن. (١٩٧٥). **ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق** ،ط٢ .تعريب عبدالواحد كرم ومراجعة عبد الرزاق الحسني. بيروت: دار الفارابي .

العصامي، موسى. (٢٠١٩). **مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي ١٣٠٥-١٣٥٥ هـ المعروف بـ تاريخ الثورة العراقية** .إعداد وتقديم كامل سلمان الجبوري. بيروت: مؤسسة المواهب للطباعة والنشر.

الموح، صلال. (١٩٨٦). **مذكرات الحاج صلال - من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠** .تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري. بغداد: مطبعة العاني.

نظمي، وميض جمال عمر. (١٩٨٥). **ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية "الاستقلالية "في العراق** .ط٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

النفيسي، عبدالله. (١٩٧٣). **دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث**. بيروت: دار النهار للنشر.

هولدين. (١٩٦٥). **ثورة العراق** ١٩٢٠ .تعريب فؤاد جميل. بغداد: مطبعة الزمان.

الهيمص، عبود. (١٩٩١). **ذكريات وخواطر عن أحداث عراقية في الماضي القريب**. بغداد: مطبعة الراية.

الوردي، علي. (٢٠١٣). **لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث** .الجزء الخامس .القسم الأول. بيروت : دار الراشد .ط٢.

ثانياً: المجلات والصحف العربية

أحمد، كمال مظهر. (١٩٧٦) . **حقائق أخرى عن مؤتمر شعوب الشرق** .مجلة أفاق عربية . العدد ١٢ .آب /أغسطس.

مجلة أفاق عربية. (١٩٧٦). بغداد .العدد ٣ . تشرين الثاني /نوفمبر .

سماحة الإسلام مع الآخر
الصينيين أنموذجاً

Eminence of Islam with the other
The Chinese are a model

أ.د. بشار أكرم جميل الملاح
جامعة الموصل (العراق)
Prof. Bashar Akram Jmeel ALmalah
University Of Mosul (Iraq)

الملخص:

انتشر الإسلام بين شعوب الشرق الأقصى بشكل سلمي في اغلب مناطقه ولاسيما الصين واندونيسيا، وأكد الإسلام خلال انتشاره على مبدأ التعايش بين البشر وعدم الاعتداء لكونه دين السلام والذي لا يمكن تحقيقه في أي مجتمع دون التسامح من خلال قبول اختلاف الآراء، والإشكالية التي سيعالجها المقال تتمثل في كيفية انتشار الاسلام في الصين ؟ وهل دحضت تلك الكيفية ادعاءات المستشرقين حول استخدام السيف من قبل المسلمين في كافة تحركاتهم لنشر الإسلام ؟ كما سيتم التطرق إلى التعايش السلمي بين العرب المسلمين من جهة والصينيين من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية: الصين، الإسلام، التعايش، التسامح، كانتون

Abstract:

Islam spread peacefully among the peoples of the Far East in most of its regions, especially China and Indonesia. During its spread, Islam emphasized the principle of coexistence between people and non-aggression because it is a religion of peace that cannot be achieved in any society without tolerance by accepting differing opinions, and the problem that the article will address is How is Islam spread in China? Did that way refute the Orientalists' claims about the use of the sword by Muslims in all their moves to spread Islam? The peaceful coexistence between Arab Muslims on one side and Chinese on the other hand will also be touched upon

Keywords: China , Islam , Coexistence , Forgiveness , Canton

مقدمة:

يُعد موضوع تعامل الإسلام مع الصينيين وتسامحه معهم من المواضيع المهمة التي تحاول أن توضح لدارسي التاريخ الإسلامي الصورة السلمية للانتشار والتي حصلت على يد التجار الدُعاة، فبعد أن وصل الإسلام إلى السند والهند بدأت تحركات التجار المسلمين من العرب والهنود الداخلين في الإسلام بالتحرك نحو سواحل اندونيسيا ومن ثم الصين لتستقر في الموانئ ويعمل افرادها في التجارة.

والأمر المهم الذي سيتناوله البحث يتمثل في المهمة التي قام بها التجار بعد وصولهم الى الصين وهو التعايش مع السكان وقبولهم كما هم بديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم والعمل بشكل سلمي على تقريبهم من الإسلام عبر طرح مبادئ الإسلام بيسر وسهولة، وعدم محاسبة الداخلين الجدد من الصينيين على كل صغيرة وكبيرة ولاسيما تلك التي لاتمس العقيدة بشيء في بادئ الأمر حتى يتعمق الإسلام في نفوسهم.

والمنهج المتبع في البحث هو المنهج التاريخي القائم على عرض النصوص وتحليلها للوصول إلى نتائج مقنعة، كما يقوم على عرض اسباب انتشار الاسلام في الصين ونتائجه على الجانبين العربي والصيني.

وسائل التسامح مع الصينيين

١,١ التجارة

لم يكن الجند الناقلين الوحدين للإسلام أو الممارسين المنفردين للتعايش مع الشعوب بل مثل التجار المحرك الأكبر والأوسع لتلك المسألة، ونتيجة للمنفعة الكبيرة التي جناها الصينيين من العمل في التجارة مع المسلمين فقد اهتموا بالتجارة وشجعوا كل ما يسهم في نجاحها من خلال إنشاء دائرة للتجارة والملاحة في مدينة (كانتون) أو (خانقوه) وفي مدينة الزيتون كما سماها أبن بطوطة[١].

والدلائل حول الانتشار السلمي للإسلام وتعايش المسلمين مع معتنقي الديانات الأخرى في الشرق الأقصى كثيرة وواضحة لاسيما بعد وصول الرحلات التجارية من بلاد الإسلام إلى شواطئ بلاد الهند والصين، وبناء العديد من المدن التي استخدمت كمحطات تجارية وتحولت فيما بعد لمدن كبيرة استقر فيها أولئك التجار (كميناء كانتون ومدن لوقين والزيتون وخمدان، وغيرها الكثير) مؤكدين خلال تواجدهم فيها على نشر الإسلام بين السكان فضلاً عن عملهم التجاري، فكانوا خير رسول للإسلام من خلال صدقهم في

[١] فهمي هويدي، الإسلام في الصين، (الكويت، ١٩٨١)، ص٥٠.

التعامل وجلبهم للبضائع الجيدة الغير مغشوشة وتحريمهم للربا وصدقهم في المواعيد[1].

ووفقاً لذلك فقد شجع المسلمون التجارة من خلال تنشيط بناء السفن فتطورت الموانئ التي قدمت خدمات كبيرة للسفن، وازدهرت الأسواق المقامة في تلك الموانئ، وبالمقابل ظهرت الخانات على الطرق البرية والتي قدمت الخدمات للقوافل التي تحركت من بلدان الإسلام وصولاً إلى الصين[2]. كما وجهت الخلافة الأموية ثم العباسية عدد من السفارات إلى بلاد الصين منطلقة من العواصم الإسلامية في دمشق وبغداد، أو من حكام الولايات الشرقية المجاورة كولاة خراسان وولاة بلاد ما وراء النهر[3].

وساعدت تلك العلاقات التجارية في استقرار عدد من التجار المسلمين في الصين والهند وكونوا جاليات هناك واختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم، وتأثر الصينيين والهنود بعادات وتقاليد المسلمين وتخلقوا بأخلاقهم، وتعاملوا معهم بلطف وإحسان فكان ملك الصين يكرم التجار ولا يظلم أحداً ممن يصل بلاده[4]، بل يحظى ولاسيما التجار بمكانة كبيرة منذ اللحظة الأولى لوصولهم الصين، فحالما تصل المراكب يخرج الأمناء والكتاب ليسجلوا عدد من في المركب من النساء والصبيان والعبيد، فضلاً عن تسجيل اسم صاحب المركب وأسماء الذين معه والبضائع التي يحملها المركب لكي لا يتعرض البائع لتلك البضاعة للغدر[5].

وكان في جزيرة (هينان) ذات الخمسة موانئ جالية كبيرة من الأجانب جلهم من المسلمين الذين ما لبثوا أن أثروا في عادات وتقاليد السكان، فقد أمتنع سكان مدينة (وان آن) الواقعة جنوب غرب الجزيرة عن تقديم الخنازير كقرابين للمعبد بعد اختلاطهم بالمسلمين[6].

ويبدو أن كل ذلك ساعد في قبول السكان لهم وتعاملهم معهم في المجال التجاري وبالتالي تصاهرهم معهم وقبول دينهم والدخول فيه، وبالمقابل فقد تعامل المسلمون حينما استقروا وحكموا تلك البلاد

(١) طارق فتحي سلطان، **تاريخ الإسلام في جنوب شرق اسيا**، (الموصل، ٢٠٠٦)، ص٢٩٠.

(٢) نفسه، ص٢٥٥.

(٣) فيصل السامر، **الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى**، (بغداد، ١٩٧٧)، ص١١٥ وما بعدها.

(٤) الطبيب شرف الزمان طاهر المروزي، **أبواب في الصين والترك والهند**، (لندن، ١٩٤٢)، ص١٠.

(٥) المروزي، المصدر نفسه، ص١١.

(٦) بدر الدين حي الصيني، **العلاقات بين الصين والعرب**، (القاهرة، ١٩٥٠)، ص١٣٠

بالمثل مع شعوبها مما ميزهم عن معتنقي بقية الأديان. فحينما فتح الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم الثقفي مدينة الملتان في بلاد السند بنى فيها مسجداً للمسلمين وأسكنها أربعة آلاف من جنده وشكل حكومة إسلامية وعامل السكان معاملة حسنة، واستطاع من خلال تلك المعاملة من دعوة الكثير منهم للإسلام، كما استجاب عدد كبير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز حينما دعاهم للدخول في الإسلام على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم[١].

لقد كان اعتناق الإسلام والقبول به كدين الوسيلة الحقيقة لقبول الآخرين والتعايش معهم فقد مثل الإسلام بالنسبة للهنود - الساكنين في الصين والباقين على ديانتهم بعد هجرتهم من بلادهم - المنقذ الحقيقي من الحياة الصعبة التي كانوا يعيشونها في ظل الوثنية، فحالما عرفوه واعتنقوه تخلصوا من نظام الطبقات الذي كانت تعاني منه الهند من حيث تقسيم السكان إلى خمسة طبقات أعلاها البراهمة وهم العلماء ورجال الدين، ويليها الشتري وهم الجند، ثم طبقة بيش وهم التجار ورجال الأعمال، وبعدها طبقة شودر وهي الطبقة العاملة وأخيراً طبقة جندال وهي أحط الطبقات[٢].

كل ذلك ساعد في قبول الصينيين للإسلام والتعايش مع القادمين كتجار ودعاة للإسلام، لاسيما بعد أن تعرفوا على أولئك التجار ولمسوا صدقهم وأمانتهم، فتعلموا لغتهم وتعرفوا على عاداتهم وتقاليدهم ومنها في المأكل والمشرب والملبس، وقد تمتع التجار المسلمين بالحماية من قبل حكام البلاد المحليين هناك، لما تدره التجارة العربية من أرباح لهم من خلال فرض العشور على التجارة[٣]، ومن صور انتشار الإسلام والتعايش بين الجانبين قبول الصينيين ببناء مساجد للمسلمين في بلادهم، وربما يكون المسجد الذي بناه تاجر مسلم أسمه (وقاص)[٤] في مدينة (كانتون) الصينية خير مثال على ذلك،

---

(١) السامر، **الاصول التاريخية**، ص١٢١.

(٢) نفسه، ص٤٢-٤٣.

(٣) سلطان، **تاريخ الإسلام**، ص١١٢-١١٣.

(٤) تدعي المصادر الصينية أن ذلك الرجُل هو الصحابي (سعد بن أبي وقاص) وأنه وصل المنطقة بتوجيه من الرسول محمد ﷺ لينشر الإسلام، بينما تشير الحقائق من خلال المصادر الموثوقة أن ذلك الصحابي لم يصل تلك المنطقة وأن ذلك الرجل تاجر مسلم تشابه اسمه مع اسم الصحابي.

وكان قد سمي ذلك الجامع (شوق النبي) وكتبت عليه عبارات أشارت إلى اسم بانيه وتدل على أعماره جيلاً بعد جيل وتوصي مسلمي الصين بالحفاظ عليه[١].

ونتيجة لما التمسه الصينيون من صدق وتسامح التجار المسلمين، فقد عمل حكامهم على التعامل بالحسنى مع أولئك التجار، ويُذكر أن عراقياً أسمه (أبن وهب) زار الصين فاستقبله الإمبراطور وأغدق عليه الهدايا ومنحه امتيازاً تمثل في تمكينه من السفر إلى (كانتون) على ظهر بغل البريد[٢]، كما تشير السجلات الصينية إلى أن تاجراً عربياً أسمه (أبو ياطل) – ربما اسمه أبو نائل - دعي للقاء الإمبراطور الصيني في عهد دولة (سونغ) والذي خلع عليه حللاً وقلنسوة متوجة، وحزاماً مرصعاً وأثاثاً، وما إلى ذلك، كما سمح له بأن يسكن في العاصمة للاستجمام عدة شهور وذلك يُعد امتياز خاص جداً[٣].

وعلى الرغم من تواجد التجار المسلمين في مناطق عدة من الصين إلا أن مدينتي كانتون

(١) هويدي، الإسلام، ص٤١.

(٢) من رحلات العرب، ص٥٤.

(٣) تشوشاو تشيوان، علاقات العرب والصين في عهد أسرة سونغ، **مجلة بناء الصين**، (بكين، ١٩٧٩)، ع٤، ص٦٧.

(خانقو) و (تسي تون) الزيتون ضمتا العدد الأكبر منهم حتى بلغت أعدادهم حوالي عشرة ألاف عربي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وأنهم – أي التجار – أنفقوا الكثير من المال لتعمير مدينة الزيتون، وأن رجلاً عربياً أسمه (أبو شوقي) انتخب رئيساً لدائرة التجارة والملاحة في المدينة طوال ثلاثين سنة[٤].

لقد نظم الصينيون علاقتهم بالتجار المسلمين القادمين إلى بلادهم من الفرس والعرب من خلال أوامر أصدرها الإمبراطور الصيني لذلك الغرض، فقد كان مُحصل الضرائب في مدينة خانقو (كانتون) مندوباً عن الإمبراطور يقوم بجمع أمتعة التجار وأخذ العشر منها، كما يوصي ذلك المندوب سكان المدينة بالتعامل الحسن مع التجار، فهم – أي السكان – أصحاب وفاء وأمانة وصدق[٥].

أن الأمر الجدير بالاهتمام في الصين في تلك الفترة هو ما امتاز به ملوك الصين من صفات العدل والحكمة والتنظيم لدرجة أن بعض المفكرين العرب المسلمين تمنوا أن تكون تصرفات حكامهم مشابهة لتصرفات أولئك الملوك، فبعد أن وصفهم الغرناطي بأنهم

(٤) هويدى، **الإسلام**، ص٥٤.

(٥) المروزي، **أبواب في الصين**، ص١٠.

أهل عدل وإنصاف إذا مات بينهم غريب وله أحمال من المال لا يتعرضون لتركته.

١.٢.٤ السفارات

أعتبر الإسلام الديانات السماوية جميعها تعود إلى وحي نبوي واحد أتمه وأكمله الإسلام، ونظر المسلمون إلى أصحاب الديانات السماوية الأخرى باعتبارهم أهل الكتاب وتعاملوا معهم بين ظهرانيهم كجزء من المجتمع الإسلامي وطبقوا عليهم مفهوم المواطنة الإسلامية، مما خلق مجتمع يعتمد على المساواة والعدل في كل تعاملاته فتقبل الآخر على أساس المواطنة التي جمعت النصارى واليهود مع المسلمين، فسُمح لهم ببناء كنائسهم والتعبد فيها، فضلاً عن عملهم في أعمال كثيرة أعتمد فيها المسلمون على خبرات أولئك الناس الذين أُطلق عليهم (أهل الذمة)، فكان الدباغين والصباغين والصيارفة من اليهود[١]، وأكثر الأطباء والكتبة كانوا من النصارى[٢].

وبعد توسع حدود الدولة الإسلامية وشمولها بلدان كانت تحت حكم الدولتين الفارسية والبيزنطية واجه المسلمون ديانات وتقاليد ثقافية مختلفة، وأصبح العالم الإسلامي مجتمع متعدد العرق والدين، وقد وصفه الأستاذ الدكتور سيد حسين نصر بقوله: " أما فيما يتعلق بالإسلام فقد كان وضعه جاذباً للانتباه، إذ أنه الدين الوحيد الذي واجه في تلك الفترة أكبر الأديان التي عرفتها البشرية، لقد واجه الإسلام النصرانية واليهودية في موطن ميلادهما، والزرادشتية في بلاد فارس، والشامانية في منغوليا وآسيا الوسطى، والأديان التي كانت تمارس في أفريقيا جنوب الصحراء، ولا شك أن الهندوكية والبوذية هي في الهند وشرق الإمبراطورية الفارسية"[٣].

وربما تكون للعلاقات المبكرة بين المسلمين والصينيين دور كبير في حصول توافق وتعايش بينهما وقبول لبعضهما البعض. فقد أشارت المصادر الصينية إلى تبادل السفارات بينهما منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ حينما راسل إمبراطورها (تاوتسنغ) سنة (٣٠-٣١هـ/٦٥١م)، إلا أن تلك المصادر لا تذكر الأسباب التي دعت الخليفة عثمان لمراسلة إمبراطور الصين[٤]، وحقيقة الأمر أن الفرس والروم بعد هزيمتهم على يد المسلمين استنجدوا بإمبراطور الصين من خلال تهويل خطر المسلمين على بلادهم واحتمال

---

(١) أحمد أمين، **فجر الإسلام**، (بيروت، ١٩٨٠)، ص٢٢٣.
(٢) نفسه، ص٢٢٣ .
(٣) هويدى، **الإسلام في الصين**، ص٤٢.
(٤) السامر، **الاصول التاريخية**، ص١١٢.

وصولهم للصين، وادعوا إن العرب سوف يسيطرون على طرق التجارة الموصلة للصين[1]، وكان (يزدجرد) ملك الفُرس قد أوفد بعد هزيمته في معركة نهاوند رسولاً إلى الصين طالباً النجدة من إمبراطورها الذي لم ينجده لقناعته أن المسلمين على حق[2].

لقد امتازت فترة حكم أسرة (تانغ) في الصين بكثرة السفارات المتبادلة مع المسلمين لتصل إلى (٢٧) سفارة غطت عهد الخليفتين الراشدين عثمان وعلي ﷺ وعهد الدولة الأموية وجزء من الدولة العباسية، وفي مجال الحديث عن السفارات المتبادلة بين العرب والصين فهناك دلائل على إرسال إمبراطور الصين سفارة إلى معاوية بن أبي سفيان مرفقة بكتاب في العلوم ودعوة لإرسال مبعوث يشرح الإسلام للسكان، وقد بينت الرسالة تلك مكانة الصينيين العلمية فضلاً عن صورة الصينيين عند العرب[3]، كما أورد اليعقوبي رواية عن مجيء وفد من (التيبت) في الصين إلى والي خراسان في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ﷺ (الجراح بن عبد الله المكي) يسألونه أن يرسل معهم من يعرض عليهم الإسلام فوجه معهم (عبد الله الحنفي)[4].

وجل تلك السفارات كانت للسلم والمودة، سوى السفارة التي أرسلها القائد قتيبة بن مسلم الباهلي والتي دعا فيها إمبراطور الصين للدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وأقسم إلا أن يطأ أرض الصين، وقد نُفذت رغبته من خلال طريقة حكيمة اتبعها الإمبراطور الصيني تقضي بإرسال إناء فيه كمية من رمل الصين ليطأه القائد المسلم برفقة غلمان الصين ليختمهم في دلالة على تحقيق النصر[5].

وقبل ذلك كان قتيبة يواصل فتوحاته في بلاد ماوراء النهر وصولاً الى السند والهند، ففي سنة ٥٨٨ غزا قتيبة ارمنثت وتومشكث وفتحها بعد ان صالحه أهلها وانصرف عنهما، واستغل الترك والصغد ذلك وتقدموا اليهما إلا ان النصر كان حليف المسلمين، وفي سنة ٥٩٤ فتح قتيبة كابل بعد أن حاصرها، كما فتح

(١) هويدي، **الإسلام**، ص٤٣.
(٢) محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرُسل والملوك**، (القاهرة،١٩٦١)، ج٤، ص١٦٧.
(٣) القاضي الرشيد أبن الزبير، **كتاب الذخائر والتحف**، (الكويت، ١٩٥٩)، ص١٠-١١.
(٤) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، **تاريخ اليعقوبي**، دار العراق، بيروت، ١٩٥٥، ج٢، ص٣٠٢
(٥) أبن الأثير أبو الحسن علي أبي كرم الشيباني، **الكامل في التاريخ** ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ج٥، ص٥.

فرغانة بعد أن دخل حصونها[1]، " وارسل الى شعب عصام من يسهل له الطريق إلى كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين، فاتاه موت الوليد وهو بفرغانة "، وعن قصة ختم ابناء الصين يقول الطبري: " بعث قتيبة كثير بن فلان إلى كاشغر فسبى منها سبياً، فختم اعناقهم مما أفاء الله على قتيبة، ثم رجع قتيبة وجاءهم موت الوليد " [2].

وفي رواية أخرى ان ملك الصين كتب الى قتيبة يطلب منه إرسال رجل مسلم من اتباعه لكي يفهموا منه ما الذي يريده قتيبة منهم، ويتمكن ملك الصين وحاشيته من ان يسألوا ذلك الرجل عن الإسلام، فأرسل قتيبة إليهم وفداً من عشرة او اثني عشر رجلاً لهم مواصفات تميزهم عن الاخرين كالجمال وحسن الكلام وسعة العلم، وأمر عليهم هبيرة بن المشمرج الذي كان خطيب واسع المعرفة والذكاء، وحينما وصلوا الى قصر ملك الصين ارسل يطلبهم فتحضروا " ودخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل، ثم مسوا الغالية، وتدخنوا ولبسوا النعال والاردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا احد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن حضره، كيف رأيتم هؤلاء ؟ راينا قوماً ماهم إلا نساء، مابقي منا احد حين رآهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ماعنده، قال: فلما كان الغد ارسل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم، ارجعوا فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى، وهم أولئك، فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، وتقلدوا السيوف، واخذوا الرماح وتنكبوا القسي، وركبوا خيولهم، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين فرأى امثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم، ثم اقبلوا نحوهم مشمرين، فقيل لهم قبل ان يدخلوا ارجعوا، لما دخل في قلوبهم من الخوف،... فسأل الملك هبيرة لما فعلتم من الزي في اليوم الاول والثاني والثالث ؟ فقال هبيرة: أما زينا الاول فلباسنا في اهلينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا اتينا امراءنا، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا فاذا هاجنا هيج وفزع، كنا هكذا قال "[3].

---

[1] خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، (دمشق – بيروت، ١٣٩٧ه)، ص٣٠٦.

[2] الطبري، تاريخ الرسل، ج٦، ص٥٠٠.

[3] الطبري، تاريخ الرسل، ج، ص٥٠٢؛ سبط ابن الجوزي شمس الدين ابو المظفر يوسف، مرآة الزمان في تواريخ الزمان، (دمشق،، ٢٠١٣)، ج١٠، ص١١٢.

وحينما سمع ملك الصين ذلك خاطب هبيرة قائلاً " انصرفوا الى صاحبكم وقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة اصحابه، وإلا بعثت لكم من يهلككم ويهلكه، قال له كيف قليل الاصحاب من اول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل فلنا اجالاً إذا حضرت فاكرمها بالقتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه، قال فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال إنه قد حلف الا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية، قال فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب ارضنا فيطؤه، ونبعث ببعض ابناءنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، قال فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من ابناء ملوكهم، ثم اجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردهم، ووطئ التراب "[1].

وعلى الرغم من ذلك فأن للحروب دور في تنمية وتطوير التعايش بين الجانبين، ففي منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي استنجد أبن الإمبراطور الصيني (هس وان تسنغ) بالخليفة العباسي المنصور للمساعدة في قمع تمرد قائد الجيش (شي غولي)[2]، إذ لم يتردد الخليفة في إرسال النجدة البالغة حوالي أربعة آلاف جندي أسهموا في استرداد العرش وقمع التمرد مما ساعد في توطيد العلاقات بين العرب المسلمين والصينيين من خلال بقاء عدد كبير من أولئك الجند في الصين الذين تزوجوا من نساء صينيات نتج عنهم جيل من المسلمين العرب الصينيين، ويقال أن مسلمي جنوب ووسط الصين هم من أحفاد أولئك الجند فضلاً عن جند القائد قتيبة[3]. وتشير سجلات أسرة تانغ الصينية إلى أن الدولة كانت تدفع لأسر الجند المسلمين (خمسمائة الف أوقية من الفضة) كل سنة وهو العطاء الذي التزمت بدفعه لهم تكريماً على نجدتهم للعاهل الصيني[4].

وكان المسلمين قد تعاملوا مع الشعوب التي تداخلوا معها وفق ذلك المبدأ والتي كان من بينها شعوب بلاد ما وراء النهر وصولاً إلى الصين وبقية دول جنوب شرق أسيا، فقد

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل، ج٦، ص٥٠٣؛ ابن مسكويه ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه، (طهران، د/ت)، ج٢، ص٤٢٦.

(2) توماس آرنولد، **الدعوة إلى الإسلام – بحث في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية**، (القاهرة،١٩٧٠)، ص٣٣٢

(3) هويدي، **الإسلام**، ص٥٠-٥١.

(4) نفسه، ص٥١.

تمتعت الجماعات غير المسلمة بكامل الحرية في إدارة شؤونها، كما مارس قادتها الدينيون حريتهم في البت في القضايا التي تمس أخوانهم في الدين، ومما يُذكر أنه حينما تسلم عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه وفد من أهل سمرقند قائلين أن قتيبة بن مسلم الباهلي حينما فتح المدينة لم يخير أهلها ووفقاً للشريعة الإسلامية بين الدخول في الإسلام أو دفع الجزية ودخل المدينة مباشرة وكان في ذلك الوقت قد توفي قتيبة، فأمر الخليفة عمر بأن يخرج الجيش من المدينة ويستأذن أهلها في الدخول مما دفع بالكثير من السكان الدخول في الإسلام طوعاً[1].

ويحترمون التجار المسلمين غاية الاحترام ولا يؤخذ منهم عشور في بيع أو شراء ولا مكس، تمنى بعد ذلك - الغرناطي - أن يكون كل حكام المسلمين مثلهم[2].

٢. نتائج التسامح

٢. ١ التعايش المجتمعي:

لم يقم الدين الإسلامي على مبدأ التفريق بين البشر وتصنيفهم وفق نظريات الجنس واللون والقومية والطائفة، بل جعل الناس موحدين تحت رايته التي جمعت المسلمين مع أصحاب الديانات الأخرى تحت مظلته، فكان تعامل الرسول محمد ﷺ مع أصحاب الديانات السماوية خير دليل على تسامح المسلمين مع البشر حتى وإن اختلفت ديانتهم، وخير دليل على ذلك تضمين صحيفة المدينة لحقوق وواجبات اليهود والنصارى.

فضلاً عن ذلك فقد تعامل العرب من المسلمين مع أخوانهم من المسلمين من بقية الشعوب، فكان كبار المحدثين والفقهاء والمفسرين والمؤرخين من غير العرب ولاسيما أولئك المنتمين لبلاد فارس وغيرها من بلاد الإسلام، كما دخل الإسلام الكثير من الأفارقة وسكان جنوب شرق أسيا، الذين شكل بعضهم قادة ومقاتلي الجيوش الإسلامية، لابل أن البعض منهم وصل إلى منصب السلطنة ككافور الاخشيدي حاكم مصر وغيره الكثير.

ولم يكن جنوب شرق أسيا ومناطق الشرق الأقصى ولاسيما الصين بمعزل عن قاعدة التسامح التي أتبعها المسلمين مع سكان المناطق التي قاموا بفتحها، فقد تقربوا من الحكام ومن ثم الرعية، وقربوا أولئك الناس منهم واسندوا لهم مناصب إدارية وعسكرية في الدولة بعد تحرير بلادهم.

---

(١) هويدي، الإسلام، ص٤٣.

(٢) عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، (بيروت، د/ت)، ص٤٦.

وانتشار الإسلام في الصين نقل صورة التعايش السلمي للمسلمين مع الأخر ممثلة بسكان الصين والقاطنين في منطقة جغرافية بعيدة نوعاً ما عن مركز الخلافة الإسلامية خلال القرون الهجرية الأولى، تلك المنطقة الواقعة في الشرق الأقصى والتي وصلها الإسلام عبر طريق سلمي تمثل بدور التجار المسلمين، كما أن سكان تلك المناطق كانوا يعتنقون ديانات متعددة أبرزها البوذية وغيرها الكثير، لذا كان من الأجدى أن تسمى تلك الشعوب بالأخر لاختلاف ديانتها عن الإسلام لتكون الكلمة شاملة

أكد الإسلام على مبدأ التعايش بين البشر وعدم الاعتداء لكونه دين السلام والذي لا يمكن تحقيقه في أي مجتمع دون التسامح، من خلال قبول اختلاف الآراء أو بالإقرار بوجود أديان وجماعات عرقية مختلفة. وقد أقر الإسلام باختلاف البشر وتعدد لغاتهم وألوانهم وعقائدهم وهو ما رسمته لنا وبشكل واضح لا يقبل الشك الآية القرآنية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[1]، وقوله أيضاً: ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَـٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّلۡعَـٰلِمِينَ﴾[2].

إن الدلائل على تطبيق المسلمين للتعايش السلمي كثيرة، فهذا رسول الله ﷺ يمنح اليهود في المدينة المنورة بعد وصوله إليها حقوقاً ووضع عليهم واجبات كما هو حال المسلمين فيها من خلال تنظيم تلك العلاقة وتأكيد التعايش في وثيقة مكتوبة عُرفت باسم (صحيفة المدينة)[3]، فضلاً عن ذلك فقد دعا الرسول محمد ﷺ المشركين على اختلاف مذاهبهم ومللهم وحاورهم وخص أهل الكتاب بمزيد من عنايته، ومثل حواره ﷺ مع نصارى نجران صورة حية للتعايش السلمي، وتعهد الرسول بحماية حقوقهم الدينية والمحافظة علي قدسية كنائسهم مقابل دفعهم الجزية[4].

لقد أشارت الآيات القرآنية إلى مسألة حرية المعتقد كمرتكز من مرتكزات التعايش السلمي وفي أكثر من سورة كقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ

---

(1) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(2) سورة الروم، الآية ٢٢.

(3) محمد بن عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، (القاهرة، ١٩٥٥)، ق١، ص٥٠١.

(4) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، (بيروت، ١٩٨٥)، ج٤، ص٤٧٥.

فِي ٱلدِّينِ﴾[1] و﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾[2]، و﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾[3].

ولعب الإسلام دوراً مركزياً في تغذية الثقافة العربية في العصور الوسطى بالقيم والمعايير العامة للحكم على الآخر، فقد أعطى للمسلمين نظرة عامة عن العالم والإنسان تضمنت اعترافاً عميقاً بالأخر المختلف عنه باللون والعقيدة والحضارة حينما شدد على التنوع بين البشر وفي الوقت ذاته على الأصل المشترك الذي يردهم إلى أب واحد هو آدم ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[4]، كما أن الرسول محمد ﷺ خاطب المسلمين في حجة الوداع بقوله «يا أيها الناس أن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»[5]، والتميز الديني بين البشر يتأسس على مدى اقترابهم من الله تعالى من خلال التقوى وما عدا ذلك فهم متساوون رغم تنوعهم، بل أقر القرآن الكريم بهذا التنوع باعتباره حكمة من الله تعالى الذي خلق البشر متمايزين في أديانهم ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾[6].

لقد تحلى الحكام المسلمون بروح التسامح والكرم وحسن المعاملة التي تعلموها من دينهم تجاه مختلف الجماعات العرقية والديانات المختلفة في كل البلدان التي كانت تحت حكمهم امتثالا لقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾[7].

وللحرية التي منحها الإسلام لغير المسلمين دور في جعلهم مميزين على المسلمين في بعض الأمور، فالإسلام حرم الخمر على المسلمين وأقام الحد على شاربها بينما لم يعاقب أهل الذمة المتواجدين ضمن حدود الدولة الإسلامية حينما فعلوا ذلك، وقد وسع

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة الكافرون، الآية ٦.

(٣) سورة الغاشية، الآيات ٢١-٢٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٩٨.

(٥) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، (بيروت، ١٩٩٩)، ج٣٨، ص٤٧٤؛ شمس الدين الكيلاني، الأخر في الثقافة العربية - صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة (الصين والهند وجيرانهما)، (دمشق، ٢٠٠٩)، ص٧٧.

(٦) سورة التغابن، الآية ٢.

(٧) سورة الممتحنة، آيات ٧-٨ .

المسلمون مفهوم أهل الكتاب و أهل الذمة ليشمل في تسامحهم الديانات الهندية الصينية، وأعترف (وات) بأن ((غير المسلمين لقوا تسامحاً حقيقياً في ظل الإسلام يفوق كثيراً ما لقيه غير المسيحيين في دول العصور الوسطى المسيحية))[١].

وكدليل على التعايش يشير (السيرافي) إلى تسامح الحاكم الصيني في مدينة (خانقو) مع السكان المسلمين من خلال السماح لهم بتأدية شعائرهم والاحتكام للقوانين الإسلامية على يد رجل مسلم يوليه الحاكم الصيني للفصل بين القاصدين لتلك البلاد، فضلاً عن قيامه بالإمامة في الصلاة[٢]، وفي الختام لابد من القول أن من الواجب علينا أخذ العبر من الماضي وقراءة تاريخ أجدادنا العظام من الصحابة والتابعين في تعايشهم مع الأخر في البلدان التي فُتحت على أيديهم، فكان التسامح والمودة والعطف هو الطريق الذي أوصلهم لبر الأمان.

٢.٢ تبادل العلوم والمعارف:

انتقلت العلوم والمعارف العربية إلى الصين وبالمقابل تعلم العرب من الصينيين الكثير، وربما أولى قنوات التبادل المعرفي جاءت من المساجد التي بُنيت في الصين، ولعب محور التعايش بين العرب والصينيين دور واضح في السماح للمسلمين ببناء مساجدهم في أي مكان شاءوا، وهناك أثار لمسجد تم بناؤه سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م في مدينة تسي تون (الزيتون) بُني على طراز الجامع الأموي في دمشق، وأنه قد تم تعميره من قبل رجل مسلم قادم من القدس سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م[٣]، ولعبت المساجد والجوامع في الصين دور واضح في تلقي الصينيين للعلوم الإسلامية، كما أسهمت الزوايا والربط في ذلك الأمر التي لعبت مع المساجد دور شامل في حياة مسلمي الصين، فهي مكان للعبادة، وللتعلم، وهو مكان لإطلاق الأحكام الشرعية، وضمت تلك المساجد قاعة للمحاضرات والدروس الدينية، وغرفة لإمام المسجد والخطيب ومكان للوضوء ومكان لغسل الموتى[٤].

ويتم تعليم القرآن الكريم وعلومه في المسجد فضلاً عن تعلم اللغة العربية كونها لغة القرآن ولغة الشريعة ولغة الشعائر الدينية، ويشير المؤرخ والجغرافي السيرافي

---

(١) مونتغمري وات، الفكر السياسي الإسلامي (المفاهيم الأساسية، (بيروت، ١٩٨١)، ص٧٦.

(٢) أبو زيد الحسن السيرافي، رحلة السيرافي، (أبو ظبي، ١٩٩٩)، ص٢٤.

(٣) هويدي، الإسلام، ص٥٤.

(٤) سلطان، تاريخ الإسلام، ص٢٨١.

إلى أن المسلمين الجدد في الصين ايقنوا بحتمية تعلم اللغة العربية ليتمكنوا من قراءة آيات القرآن " ولا أعلم أحداً من الفريقين – الهند والصين – مسلماً ولا يتكلم العربية "[١]، وفي تلك الأثناء ظهر عدد كبير من العلماء المسلمين الصينيين الذين تتلمذوا على يد العلماء والفقهاء العرب المسلمين، وبُني في الصين عدد من المدارس فضلاً عن مدارس القرى التي كانت تضم مدرسة دينية أولية يُدرس فيها الأولاد الحروف الهجائية العربية ثم بعض السور القصيرة، كما ضمت القرية فضلاً عن دور المسجد التعليمي مدرستان ثانوية وعليا يؤمها الطلبة من القرى والأرياف القريبة[٢].

فضلاً عن ذلك فقد أسهم التقارب في رغبة المسلمين العرب في تعلم العلوم الصينية ونقلها لبلادهم التي قدموا منها، لاسيما صناعة الورق الذي أطلقوا عليه اسم (ورق خان بالق) وهو اسم عاصمة الصين، وتلك العلوم نقلت إلى المغرب الإسلامي والأندلس ومن ثم إلى أوربا، كما تعلموا نسيج الأقمشة الحريرية وصناعة التحف الذهبية والفضية[٣]، وقد قربت العلاقات التجارية بين العرب والصينيين وساعدت على تعايشهم سلمياً، فصدرت الصين للعرب الحرير، كما صدرت الصين الخزف وقماش السمندر المقاوم للاحتراق، وصدرت القدور الحديدية والمناخل والغرابيل والشاي والبرونز والفلفل وأمشاط الخشب، واستوردت الصين كل ما يساهم في قيام صناعتها كالأصباغ والعاج وقرون وحيد القرن ومنتجات البلاد الإسلامية[٤]. ويبدو أن التجار المسلمين لم يكتفوا بنقل بضائع بلدانهم فقط للصين بل لعبوا دور التاجر الوسيط في نقل بضائع أفريقيا والهند وبقية البلدان إلى هناك.

كما تعلم العرب المسلمين من الصينيين خلال تواجدهم في بلادهم أو من خلال الرحلات التجارية والسفارات صناعات أخرى كصناعة البارود وبالتالي استخدامه مما أسهم في تطوير قدرات الجيوش العربية الإسلامية، كما طور العرب من قدراتهم البحرية من خلال صناعة البوصلة (الحُقة) لما لها من دور كبير في العمل البحري، وقد ساعدها في مهمتها تلك صناعة العالم العربي الفزاري للإسطرلاب

(١) السيرافي، رحلة السيرافي، ص ٥٧.

(٢) سلطان، تاريخ الإسلام، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٣) محمد محمود زيتون، الصين و العرب عبر التاريخ، القاهرة ، د/ت، ص٢٥٣.

(٤) سلطان، تاريخ الإسلام، ص٢٥٦-٢٥٧.

في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي[1].

ونتيجة لمعرفة الصينيين بصناعة الخزف فقد اقل العرب المسلمين المتواجدين في الصين كتجار او حتى كمهاجرين مستقرين هناك على تعلم تلك الصناعة، وذلك التعلم اسهم في إدخال تحسينات على الخزف الصيني، ويشير غوستاف لوبون إلى ذلك بقوله: " وما تزال ترى في بلاد العرب، وفي أهم مدن الشرق مصنوعات من الخزف الصيني المزين بالكتابات العربية المذهبة على أساس من اللون الأزرق أو الأبيض، ولاريب في أن عمالاً من مسلمي الصين هم الذين يصنعونها، ووجب الا يكون عددهم قليل في الصين " [2].

وفي مجال العمارة والهندسة استقدم المهندسين المسلمين إلى الصين وفي مقدمتهم علي الدين الموصلي وإسماعيل الهروي، فضلاً عن المهندس اختيار الذين الذي خطط البلاط الامبراطوري لمدينة دادو (بكين)، وفي مجال الفلك استفاد الصينيين من المؤلفات العربية، وبعد ان سيطر هولاكو على بغداد نقل افضل علماء الفلك إلى بلاطه، وأقام مرصداً فلكياً في (مراغة)، كما نقل قوبلاي خان امبراطور الصين أفضل مؤلفات العرب في علم الفلك إلى بلاده، كما استفاد الفلكي الصيني (كوشوكنغ) من الجداول الفلكية العربية[3].

وللصين حرفة في صناعة (التكفيت) أي تطعيم المعادن بالذهب والفضة عند حديثه عن سوق الكفتيين في مصر، وكذلك الكداهي أي الاواني الفضية المصدرة من الصين[4]. ويبدو مما سبق مدى التأثير والتأثر بين العرب والصين.

الخاتمة:

في ختام البحث لابد من إيضاح بعض النتائج التي تم التوصل إليه:

تعامل الإسلام مع الآخر بطريقة ميزته عن بقية الديانات السماوية والمعتقدات الوثنية عبر إيمانه بأن جميع الناس سواسية ومتساوين في الحقوق والواجبات.

حصل الأخر مهما كانت ديانته أو طائفته على حقوق وامتيازات كبيرة تساوى فيها مع المسلمين.

إن تسامح المسلمين مع الأخر دفع بهم أيضاً بالتسامح مع المسلمين بنفس الطريقة.

---

(١) بشير زهدي، طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل التجارية، (دمشق، ١٩٩١)، ص١٣٨.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة العرب، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص٥١٨.

(٣) هويدي، الإسلام، ص٦٥؛ سلطان، تاريخ الإسلام، ص٢٩٤.

(٤) زيتون، الصين والعرب، ١١٤-١١٥.

لم تحدث معارك كبيرة بين العرب والصينيين عند وصول المسلمين إلى حدود البلاد، فقد تقبل الصينيين المسلمين وتعايشوا معهم.

بما أن أسلوب نشر الإسلام في الصين كان سلمياً فأن الكثير من البعثات والرسائل تم تبادلها بين الجانبين.

نتيجة لدور المسلمين الكبير في مجال التجارة فقد أوصى حكام الصين رعاياهم وعمالهم برعاية أولئك التجار المسلمين.

أثر المسلمين تأثيرات اجتماعية كبيرة في سكان الصين ولاسيما في مجال العادات والتقاليد والملابس

قائمة المصادر والمراجع العربية:

أولاً: المصادر:

أبن الأثير أبو الحسن علي أبي كرم الشيباني ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧ .

أبن هشام محمد بن عبد الملك ت ٢١٣هـ، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وأخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥.

أبن حنبل أحمد، مسند الإمام أحمد ت ٢٤١هـ، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.

الطبري محمد بن جرير ت٣١٠ ، تاريخ الرُسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،١٩٦١.

اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ت ٢٨٤هـ، تاريخ اليعقوبي، دار العراق، بيروت، ١٩٥٥.

ابن مسكويه ابو علي احمد بن محمد بن يعقوب ت٤٢١هـ، تح: ابو القاسم إمامي، دار سروش للطباعة، ط٢، طهران، د/ت.

السيرافي أبو زيد الحسن ت ق الرابع الهجري، رحلة السيرافي، تح: عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩.

القاضي الرشيد أبن الزبير، كتاب الذخائر والتحف ت القرن ٥هـ، تح: محمد حميد الله، دائرة المطبوعات والنشر سلسلة التراث العربي (١)، الكويت، ١٩٥٩.

شرف الزمان طاهر المروزي ت ٥١٨هـ، أبواب في الصين والترك والهند، لندن، ١٩٤٢.

خياط خليفة، تاريخ خليفة بن خياط ت ٢٤٠هـ، تحقيق: اكرم ضياء العمري، دار القلم - مؤسسة الرسالة، ط٢، دمشق - بيروت، ١٣٩٧هـ.

الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨هـ، سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شُعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥.

الغرناطي عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي ت ٥٦٥ه، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تح: إسماعيل العربي، دار الجيل ودار الافاق الجديدة ، بيروت، د/ت.

ثانياً: المراجع العربية:

أحمد أمين، فجر الإسلام، (ط١) ، بيروت، دار الكتاب العربي،د/ت.

بدر الدين الصيني، العلاقات بين الصين والعرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠.

طارق فتحي سلطان، تاريخ الإسلام في جنوب شرق اسيا، الموصل، ٢٠٠٦.

محمد محمود زيتون، الصين و العرب عبر التاريخ، القاهرة، دار المعارف بمصر،د/ت.

مونتغمري وات، الفكر السياسي الإسلامي (المفاهيم الأساسية)، ترجمة: صبحي حديدي، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨١.

فهمي هويدي، الإسلام في الصين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٧.

فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، ط١، بغداد، ١٩٧٧.

شمس الدين الكيلاني، الأخر في الثقافة العربية – صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة (الصين والهند وجيرانهما) -، دمشق، ٢٠٠٩ .

توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام – بحث في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية، ترجمه إلى العربية: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط٣، القاهرة،١٩٧٠.

غوستاف لوبون، حضارة العرب، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٦٧.

ثالثاً: البحوث والدوريات:

بشير زهدي، " طريق الحرير – وتدمر مدينة القوافل التجارية – " **مجلة دراسات تاريخية**، دمشق، ١٩٩١.

تشوشاو تشيوان، " علاقات العرب والصين في عهد أسرة سونغ "، **مجلة بناء الصين**، دار المنشورات، بكين، العدد الرابع، ١٩٧٩.

محمد بن عبد الكريم الخطابي و القضايا المغاربية:
«جيش تحرير المغرب العربي نموذجا»

محمد العاقل
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي– المغرب -
باحث بسلك الدكتوراه
بجامعة ابن طفيل القنيطرة-المغرب-

ملخص الدراسة:

تعد تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي، تجربة تحررية خصبة، وموضوع جدير بالدراسة والتنقيب، لازال يكتنفها الغموض في بعض الجزئيات، فحركة التحرر الوطني في بلدان المغارب اتبعت خطا جدليا في مسارها زاوج بين الكفاح المسلح والعمل السياسي، وقد استثمر محمد بن عبد الكريم هذا الخط لتأطير وتنظيم الحركات التحررية المغاربية من منفاه بالقاهرة، على اعتبار أن هذه البلدان تجمعها وحدة المصير وتربطها أواصر الأخوة الدين، وتوثقها وشائج القرابة والدم، فتجربة تأسيس جيش تحرير المغرب العربي هي تجربة نضالية رائدة في الدول المغاربية، وهي بحاجة ماسة إلى تعميق الدراسة والأبحاث خصوصا وأنها عرفت في مراحلها الأولى توحيد الرؤى والمواقف، لكن السياسة الاستعمارية الفرنسية حالت دون نجاحها، وفي هذه الورقة المختصرة سنعرج على منبع فكرة تأسيس هذه الحركة، ووسائل عملها، ناهيك عن سبل تنزيلها في الميدان، والمصير الذي لاقته من الآلة الاستعمارية الفرنسية.

الكلمات المفتاح:

محمد بن عبد الكريم الخطابي، جيش تحرير المغرب العربي،

مقدمة:

تعد تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي، تجربة تحررية خصبة، وموضوع جدير بالدراسة والتنقيب، لازال يكتنفها الغموض في بعض الجزئيات، فحركة التحرر الوطني في بلدان المغارب اتبعت خطا جدليا في مسارها، فبعد مرحلة الكفاح المسلح جاء طور الكفاح السياسي الذي انتظم في المدن الكبرى، وانضمت إليه شيئا فشيئا الطبقات الكادحة، من موظفين صغار وحرفيين وعمال، ليتبين خلال فترة الأربعينات أن الكفاح المسلح هو الخيار الاستراتيجي الذي يمكن أن يوحد عمل البلدان المغاربية.

على اثر ذلك انبثقت فكرة تأسيس جيش شعبي يضم أقطار دول المغرب العربي، انطلاقا من ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي، حيث نصت المادة الثالثة من ميثاق اللجنة، على أن" غاية اللجنة هي تحرير بلاد المغرب العربي: تونس، والجزائر، ومراكش، من السيطرة والاحتلال الأجنبيين، وتحقيق جلاء الجيوش المحتلة، وحصولها على الاستقلال التام والسيادة القومية الكاملة."

فهاجس الكفاح المسلح كان حاضرا في ذهن الخطابي منذ الوهلة الأولى التي وصل فيها لمصر، إذ سبق له أن طلب من امحمد بن عبود احضار مسدسات لكي تتم عملية النزول بشكل مؤمن، غير أن هذه المرة قد أتيحت له فرصة العمل المسلح في شكل منظم، حيث جمع الخطابي المشاركين في جيشه من الأقطاب المغاربية الثلاث، كما عمل على إعداد آليات هذا الجيش لتفجير الصراع في وقت مناسب. فكيف كانت فكرة تأسيس جيش المغرب العربي؟ وماهي آليات ووسائل عمل هذه الهيئة لتحريرية؟.

فكرة تأسيس جيش التحرير المغرب العربي

تكونت النواة الأولى لجيش التحرير، من المتطوعين المغاربيين في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، إذ وجد الخطابي نفسه مرتبط بهذا المعطى الجديد من عدة نواحي: دينيا، عروبيا، وإنسانيا، فالتجربة العسكرية للخطابي أملت عليه تتبع الأوضاع في فلسطين، والتي امتدت من ١٥ مايو ١٩٤٨م إلى ١١ يونيو ١٩٤٨م، حيث عاش أطوارها، وأعرب أكثر من مرة عن استعداده للتطوع على رأس كتيبة من المجاهدين المغاربيين، تضم عمال وطلبة وحجاج كانوا متواجدين في مصر خلال هذه الفترة، وأيضا من المجندين في الجيش الفرنسي الموجهين للقتال في الهند الصينية، حيث كان الخطابي يحثهم على الفرار واللالتحاق به في القاهرة. وفي هذا الصدد

أرسلت حكومة هوشي منه، رسالة للخطابي جاء في نصها" صاحب السعادة، حكومة هوشي منه ترجوا منكم أن تستخدموا نفوذكم الروحي الكبير وتطلبوا من جنود إفريقيا الشمالية بأن يرفضوا الذهاب إلى فيتنام، كما تطلب منكم أن تدعو عمال الشحن إلى مقاطعة جميع البواخر الفرنسية"، وعلى إثر هذه الرسالة وجه الخطابي نداء للجنود المغاربة في الجيش الفرنسي بتاريخ ١٩٤٩/٤/٤م، مذكرا إياهم بالمصير المشترك لهاته الشعوب وأيضا بتعاليم الدين الإسلامي التي تقتضي الوقوف بجانب الحق لا ضده، حيث قال" إن ديننا الذي يدعو إلى العزة والكرامة وتقديس حرية الأفراد والأمم، ليدعوكم إلى الانتصار للحرية في كل مكان، ومقاومة الظلم في كل آن...... وعندما تكرهون على الوقوف في صفوف الأعداء، اختاروا المكان اللائق بنخوتكم وشهامتكم. اختاروا جانب الذين يدافعون عن الحرية ويستميتون في سبيل الاستقلال، حتى تستطيع التخلص من بعض ما تقاسونه أنتم أنفسكم على يد هذا الاستعمار."

استجاب الكثير من الجنود المغاربة لنداء الخطابي، و كانت أعداد كبيرة منهم تتسلل من البواخر الفرنسية المارة عبر قناة السويس، ليستقبلهم الخطابي في القاهرة، وعلى جبهة القتال الفيتنامية الكثير من الجنود المغاربة تظاهروا بالهزيمة، فانضموا إلى صفوف المقاومة الفيتنامية بأسلحتهم، وسيلعب هؤلاء المغاربة دورا كبيرا في معركة "ديان بيان فو "التي انتهت بالتدمير الكامل للمعسكر الفرنسي.

ومن العناصر الأكثر تأثيرا في هذا الجيش، الطلبة الوافدين إلى الشرق للدراسة، حيث تبنت لجنة تحرير المغرب العربي خطة لإعداد كوادر عسكرية وإدارية، تقوم على جلب أكبر عدد ممكن من الطلبة المغاربيين وإلحاقهم بالكليات العسكرية في المشرق العربي، وفي هذا الصدد وجه الخطابي رسائل للدوائر السياسية العليا بكل من سوريا والعراق لتكوين الطلبة المغاربيين الوافدين عليهم، وفي شهر شتنبر ١٩٤٨م تلقت لجنة تحرير المغرب العربي جواب الحكومة العراقية، بقبول مجموعة من الطلاب المغاربيين لمتابعة دراستهم بإحدى كلياتها ببغداد، وتكونت البعثة الأولى من:

محمد إبراهيم القاضي: جزائري – سلاح الهندسة -

يوسف العبيدي: تونسي– سلاح المدرعات -

الهادي عمير: تونسي– سلاح المشاة -

أحمد عبد السلام الريفي: مغربي– سلاح المشاة -

عبد الحميد الوجدي: مغربي– سلاح المشاة-

الهاشمي عبد السلام الطود: مغربي – المدرعات -

محمد حمادي العزيز الريفي: مغربي – سلاح المدفعية -

في ١٧ أكتوبر ١٩٤٨م، غادرت البعثة العسكرية القاهرة على متن طائرة عراقية، والتحق أعضاؤها بمختلف المؤسسات حسب تخصصاتهم، هكذا بدأت هذه البعثات تداريبها داخل الجامعات العسكرية العربية، لم تكن هذه الدفعة هي الوحيدة، بل أرسلت دفعة ثانية بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٥٠م تكونت من الطلبة المغاربة، و أرسلت إلى العراق رفقة الملحق الثقافي العراقي بالقاهرة، وكان في وداعهم امحمد الخطابي.

انهت البعثة الأولى دراستها بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٥١م، حيث عاد الجنود إلى القاهرة ليضعوا أنفسهم تحت تصرف لجنة تحرير المغرب العربي. وفي القاهرة كان الخطابي يشرف بنفسه على التدريبات العسكرية التي يقوم بها عسكريون من بلدان شمال إفريقيا- خاصة خريجي الدفعة الأولى من البعثة العسكرية - في مواقع منحتها لهم الحكومة المصرية، ووضعتها تحت تصرف الخطابي، كموقع الكتيبة رقم ١٣ بمعسكر" هاكستيب."

البعثات السرية لرصد أوضاع الأقطار المغاربية

كلف الخطابي مجموعة من الضباط للقيام بمهمات خاصة في شمال إفريقيا، فكلف الضابط عز الدين عزوز للقيام بمهمات الاتصال في بلدان شمال إفريقيا، وإعداد قاعدة خلفية للمقاومة انطلاقا من ليبيا، والهدف من ذلك هو تكوين قواعد وأرضية لجيش التحرير المغرب العربي، حسب خطة وتوجهات الأمير. فعقد الضابط عزوز أول لقاء مع قادة الأحزاب التونسيين في بيت المناضل صالح يوسف، في فاتح يناير ١٩٥٠م. وكان من بين الحاضرين منجي السليم، الصادق المقدم، صالح بن يوسف، فأطلعهم عز الدين عزوز على موضوع اللقاء والمذكرة الشفهية التي كلفه بها الخطابي. بعد هذه المهمة عاد إلى القاهرة ليعرض على الأمير نتائج لقائه ومباحثاته، في كل من ليبيا، وتونس، والجزائر، والتي لم تكن في مستوى طموحات الخطابي ولا تستجيب لميثاق وأهداف لجنة المغرب العربي، فعاد الضابط عزوز ليزاول عمله بالجيش السوري بعد تدخل الخطابي له مع الحكومة السورية، لكن سيتم استدعاءه

من طرف الخطابي للمرة الثانية ليقوم بمهمة مستعجلة، وقد أرسل الخطابي في هذا الصدد رسالة إلى رئيس أركان الجيش السوري، يطلب منه أن يعمل على ايجاد منصب للضابط عزوز في القاهرة، ولو بدون راتب، حتى يتسنى له القيام بمهامه دون أن يلفت الأنظار، كما طلب الخطابي أن تعتبر مدة غياب الضابط،" غير محدودة وفي نفس الوقت خدمة فعلية في الجيش السوري، حتى يحافظ على حقوقه في الترقيات والأقدمية بين الزملاء الضباط"

في حين كلف العقيد الهاشمي الطود رفقة عبد الحميد الوجدي، وحمادي العزيز، بالذهاب إلى ليبيا. "كان الهدف من هذه المهمة الأولى إعدادا ليبيا لتكون مركزا لقواعدنا الخلفية، لإطلاق حرب التحرير المغاربية"، وبهذه الهمة انطلق الفوج نحو ليبيا لتبدأ الرحلة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٢م من مدينة الاسكندرية، يقول الهاشمي الطود" ومباشرة بعد وصولنا إلى مرسى مطروح، بادرنا بالاتصال بعابد السنوسي، الذي كان من أقارب الأمير إدريس السنوسي، وهو الشخص الذي مهد لنا كل مراحل التنقل عبر التراب الليبي، بتكليف من الأمير المذكور الذي كان على صلات وثيقة بالأمير الخطابي".

وفي هذا الصدد كان الخطابي يكتب شهادات لكل من أرسلهم في بعثات أو مهمات خاصة. ومن الذين حظوا بهذه الشهادة الهاشمي الطود، حيث أصدر الخطابي في مارس١٩٥١م، وثيقة تسهل عملية تنقل الهاشمي الطود بأقطار المغرب العربي، جاء فيها" **إلى كافة إخواننا المسلمون في المغرب العربي. حامل هذه الوثيقة السيد عبد السلام الهاشمي الطود، يعتبر مبعوثا من قبلنا للاتصال بالعاملين المخلصين في جبهة الجزائر-مراكش، لتنظيم وتهيئة ما يلزم من وسائل العمل**". ولقد كانت هذه الشواهد تسهل مأمورية المبعوثين نظرا للمكانة التي كان يتمتع بها الخطابي عند سكان شمال إفريقيا.

وعن باقي أطوار الرحلة، يتحدث الهاشمي الطود، أنه اتجه نحو مدينة بنغازي لمواصلة مهمته، فتم الاتصال بالكثير من القادة المغاربيين المتواجدين في المدينة، و كانت العملية تتم في سرية تامة، وتتخذ أكثر الاحتياطات، فكانوا يجتمعون في الأماكن العمومية كالأفران، ومحلات تصليح السيارات، وكذلك في محل للحلاقة... وغيرها من الأماكن التي يرتادها المواطن العادي. ومنها كان يقوم الهاشمي الطود بتجميع معطياته،

ويتواصل مع مناضلي جمعية" عمر المختار"، المعروفين بوطنيتهم الصادقة، وبدفاعهم المستميت في سبيل القضايا القومية الكبيرة. هكذا كانت طبيعة مهمة الهاشمي الطود الأولى في ليبيا، والتي دامت حوالي أربعة أشهر، وكللت بالنجاح دامت حوالي أربعة أشهر، استطع خلالها جمع تفاصيل غزيرة حول شروط إيصال الأسلحة ونقلها، وحول كل ما يتعلق بمشروع العمل الميداني الذي كن الخطابي يخطط له" جعل ليبيا قاعدة خلفية للثورة المغربية". وبعد انقضاء المدة عاد إلى القاهرة وقدم تقريرا للخطابي حول المهمة المنوطة به، يقول الهاشمي الطود "وبعد ذلك، بدأ التخطيط للتوجه إلى باقي دول المغرب العرب، من أجل توسيع آفاق عملنا الجهادي".

وبخصوص المهمة الثانية، حصل الهاشمي الطود على تزكية من لدن لجنة تحرير المغرب العربي-بالإضافة إلى تزكية الخطابي -فكتب له الوكيل الرشيد إدريس تزكية جاء فيها **"فالرجاء ممن يهمهم الأمر في المملكة المصرية وليبيا تسهيل سفره وإقامته والسلام".**

انطلقت المهمة الثانية بدخول الهاشمي الطود لتونس بشكل فردي، يقول" وبالفعل فقد اجتزت الحدود الليبية و التونسية يوم ١٠ ماي من سنة ١٩٥٢م، وبعد ذلك اتصلت بالمناضلين الذين سبق وأن كانوا معه متطوعين في فلسطين سنة ١٩٤٨م،" ولقد وقع الاتفاق على تكليف هؤلاء المناضلين بتكوين قواعد عسكرية، تضم ما لا يتجاوز خمسين عضو مستعدا للجهاد وللتضحية في كل وقت وحين". توجه الهاشمي الطود إلى العاصمة تونس ليباشر اتصالاته، في انتظار التحاق رفيقه حمادي العزيز الذي وصل بعد حوالي ١٠ أيام. وبعد سلسلة من الاتصالات التي قام بها المناضلان في تونس، توجها نحو الجزائر لاستكمال المهمة، يقول الهاشمي الطود" وفي أواخر ماي ١٩٥٢م، انطلقت رفقة حمادي العزيز نحو مدينة تبسة الواقعة بالجنوب الشرقي الجزائري، وهناك أقمنا بمنزل المناضل أحمد قاسمي الذي كان رئيسا لجمعية الشبان المسلمين بتبسة، وكان منخرطا في العمل الوطني بشكل كبير"، ومن هذه المدينة انطلقا داخل القطر الجزائري، مفعمين بروح حيوية ومتصلين بمجموعة من القيادات الجزائرية سواء متطوعين، أو مسؤولين حزبيين، للتباحث معهم والنظر معهم في مسألة مشروع التحرير المشترك. وبعد اتمام مهمة

الاتصالات بالجزائر جاء الدور على القطر المغربي، يقول العقيد الهاشمي الطود "اجتزنا الحدود الجزائرية المغربية، بطريقة سرية يوم ١٢ يوليوز من سنة ١٩٥٢م، حيث تسربنا إلى مدينة وجدة عبر ممر واد كان يمر جنوب مركز زوج بغال الحدودي. وقد سعينا في ذلك إلى التحرك بحذر شديد، حيث انطلقنا في الصباح الباكر لليوم المذكور، ونحن منفصلين عن بعضنا، تفاديا للوقوع في يد دوريات قوات الأمن الفرنسية، التي كانت تتحرك على طول الحدود".

وبخصوص القطر المغربي فقد كان له طعم خاص بالنسبة لحمادي والعزيز والهاشمي الطود، إذ شكل لهما حدث العودة لأرض الوطن فرصة للتذاكر مع الأقارب والأحباب، لكن هذا الأمر لم يلههما عن مهمتهم الأصلية، فباشروا الاتصال بمجموعة من القادة و المناضلين، وأتموا مهمتهم على أكمل وجه، وغادروا مدينة فاس في ٥ شتنبر من سنة ١٩٥٢م قاصدين القاهرة.

مباشرة بعد الوصول للقاهرة يقول الهاشمي الطود" اتجهنا نحو منزل الأستاذ الحبيب الكبداني الذي كان من بين أعضاء البعثة الحسنية بالقاهرة. وبعد يومين أو ثلاثة أيام، اتصلنا بالأمير الخطابي الذي عقدنا معه– رفقة شقيقه امحمد -جلسات مطولة، عرضنا فيها كل التفاصيل عن مهمتنا بمختلف الأقطار المغاربية، وعن اللقاءات والاتصالات التي عقدناها هناك، وعن ردود الفعل المتباينة حول ما كنا نسعى إليه".

مواجهة في الميدان

في الوقت الذي كانت التقارير تتوافد على الخطابي من طرف أعضاء البعثات السرية، كانت جماعة العزيمة، تزوده أيضا بصورة منتظمة للمنطقة، إذ كانت الجماعة توافيه بتقارير ميدانية مسهبة عن مراكز العدو، واستحكاماته، والأسلحة، وغير ذلك من التفاصيل الدقيقة. وبناء على ذلك، وضع محمد ابن عبد الكريم الخطابي معالم خطة حرب التحرير، مؤرخة في ٥ مارس ١٩٤٩م، رسمت الأركان التي ينبغي أن تتحقق الأهداف المتوخاة من هذه الحرب التحريرية، و تنقسم هذه الخطة إلى مرحلتين أساسيتين على النحو التالي:

المرحلة الأولى: تتحدد في معرفة البلاد بشكل دقيق، ومعرفة مراكز العدو، وعدد القوات فيها، وأنواع الأسلحة وعددها، وفي الوقت نفسه، يتم البحث عن الرجال المخلصين وتنظيمهم تحت قيادة مختارة، على أن يكون الانقضاض ليلا واختيار الأحد بالذات،

أو ليلة أحد الأعياد الاستعمارية.

المرحلة الثانية: فستتم بعد نجاح الخطة الأولى، حيث يقوم المسؤولين بتوزيع الأسلحة والذخيرة الكافية استعدادا للهجوم التالي، وقبل الهجوم يتم الاتصال بالضباط الجيش من الوطنيين لإقناعهم بالانضمام إلى قوات التحرير.

وتواصل الخطة ببيان ما يجب القيام به تنظيمها وتعبويا، وكيفية التعامل مع الأسرى... وتنتهي الخطة بتقديم نصائح عامة على ضرورة الاعتناء بالأسلحة، وبتنظيفها وإصلاحها، وكيفية الحفاظ على الذخيرة، مع وجوب الاعتناء بالصحة والنظافة والوقاية من الأمراض، والمحافظة على الصلاة بإقامتها في أوقاتها.

الذي يظهر من خلال استقراء مراحل الخطة أنها استندت إلى واقع الحال القائم في البلدان العربية، والمغاربية على وجه التحديد بناء على ما جمعه الخطابي من تقارير ورسائل، فتمت دراسة الوضعية الراهنة وإعداد خطة دقيقة، استهدفت تحريك الشعب بأكمله للقيام بعمل واسع يشمل الأقطار الثلاثة.

على إثر ذلك تلقى الخطابي مجموعة من الرسائل والبرقيات من زعماء الأحزاب العربية، تؤيد عمله التحرري. ومن ضمن ما وصله رسالة من حسين السجعان زعيم حزب الجبهة الشعبية في لبنان، يؤيد من خلالها نضال الشعوب المغاربية من أجل الحرية والاستقلال، مستنكرا سياسة فرنسا في المنطقة. وكذلك تلقى من إسماعيل الأزهري الزعيم السوداني، برقية يندد فيها بأساليب فرنسا في المغرب، و يؤيد ما اتخذه الخطابي من عمل حاسم لنصرة المغرب العربي. ومن جمعية المسلمين بالسودان، التي أكدت للخطابي أن الشعب السوداني يقف بجانب شقيقه الشعب المغربي المجاهد، إن هذا التأييد دليل على أن المسار الذي خطه الخطابي يحظى بشعبية كبيرة في الوطن العربي، إلا أنه لم يقف عند هذا الحد بل كان يردف ذلك بعدة منشورات وبيانات يحذر فيها من مغبة السقوط في مراوغات فرنسا، وأساليبها الدعائية لاستمالة العناصر الضعيفة، وخير مثال على ذلك النداء الذي وجهه الخطابي إلى أبناء شمال إفريقيا بتاريخ ١٠/٢/١٩٥١م، يوضح فيه حقيقة الدعاية الفرنسية، والمصطلحات الرنانة التي تستخدمها كالإصلاح، الهدوء، وغيرها. كما حذر المتعاونين مع المستعمر، أن مصيرهم الزوال، مشيرا إلى أن مساندتهم هي سبب بقاء الاستعمار.

ونتيجة لتأزم الأوضاع في بلدان شمال إفريقيا جراء عدة متغيرات أبرزها: اغتيال الزعيم فرحات حشاد، والأحداث الدامية التي عرفتها مدينة الدار البيضاء، تضامنا مع الفقيد التونسي، ونفي محمد الخامس الملك الشرعي للبلاد إلى مدغشقر في غشت ١٩٥٣م، تكونت خلايا للمقاومة المسلحة في تونس، وشرعت في تنفيذ عملياتها الفدائية، وتكونت في المغرب أيضا المنظمات الفدائية، وبعدها جيش التحرير، كما اندلعت في الجزائر ثورة تحريرية.

أمام هذه الوضعية طرحت مسألة التنسيق على الواجهة، فاندلعت معارك جيش التحرير في المغرب أوائل أكتوبر ١٩٥٥م، وتركزها في الريف الأوسط وبصفة أخص في المنطقة المعروفة بمثلث الموت، الواقعة بين أكنول وبورد وتيزي وسلي، وتزامنها مع ثورة وهران في الجزائر (٢ أكتوبر ١٩٥٥م)، التي نظمت بالتنسيق مع الثوار المغاربة. بهذه العلميات دشنت الحركة التحريرية المغاربية مرحلة أخرى من نضالها الوطني، فبعد يومين من الانطلاقة الثورية، أصدرت حركة المقاومة المغربية وجبهة التحرير الوطنية الجزائرية يوم ٣ أكتوبر ١٩٥٥م، بلاغا مشتركا ينص على تكوين قيادة موحدة، تتولى الإشراف على حركة التحرير القائمة في القطرين، والتي سينضوي جميع أفرادها في جيش، يسمى جيش تحرير المغرب العربي، وأصدرت بلاغها الأول، الذي يتضمن ثلاثة أهداف رئيسية:

الكفاح حتى النهاية في سبيل الاستقلال التام لأقطار المغرب العربي، مع عودة سلطان مراكش إلى عرشه بالرباط.

عدم التقيد بأي اتفاقات عقدت أو تعقد مستقبلا، لا تحقق الهدف الأول كاملا.

اعتبار كل مواطن ينادي بخلاف ما ذكر خارجا على ما أجمعت عليه البلاد، والحركات الوطنية الفدائية، ومثل هؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم، وكفى البلاد ما قاسته من مفاسدهم.

غير أن الإدارة الاستعمارية لم تكن لتسمح لمثل هاته العمليات أن تستمر، فقد بذلت مجهودا كبيرا للقضاء عليها، خصوصا بعدما أصبحت هذه الحركات تفرض نفسها على الساحة، بعدما انتشرت أخبارها في الصحافة الدولية، وفي هذا الصدد علقت مجلة نيوزويك الأمريكية على عمليات جيش التحرير في المغرب بقولها،" **هاجم أبناء وأحفاد عبد الكريم المحاربون الأشداء مرة أخرى في الأسبوع الماضي المراكز الفرنسية في جبال الريف بشمال المغرب.... وهؤلاء**

المحاربون أحسن تسليحا من المقاتلين السابقين، الذين قاتلوا فرنسا وإسبانيا بين ١٩٢٠-١٩٢٥م... وهم يتألفون من وحدات تشكل من ٣٠ إلى ١٠٠ رجل.... وقد حاربوا بدهاء وأتقنوا أسلوب الكر والفر."

ومع تطور الأوضاع وخروجها من يد الفرنسيين خلصت الدوائر السياسية العليا للإدارة الاستعمارية الفرنسية، إلى تبني منطق أخف الضررين حيث عمدت فرنسا إلى التضحية بالجزء، تفاديا لعدم خسارة الوضع ككل، فتم منح المغرب وتونس الاستقلال سنة ١٩٥٦م، لتتفرغ فرنسا للمواجهة العسكرية في الجبهة الجزائرية، وبذلك يكون هذا المشروع النضالي التحرري قد شارف على النهاية، فكيف كان مصير تجربة جيش تحرير المغرب العربي؟.

مصير التجربة التحررية المغاربية

على الرغم من توفر" الاستعدادات في الداخل وسير التدريبات العسكرية في الخارج، حسب ما رسمته معالم خطة حرب التحرير، فإن هناك ظروفا داخلية وخارجية، أسهمت في إجهاض توحيد عملية تحرير أقطار شمال إفريقيا". نظرا لأن موقف الزعماء السياسيين كان واضحا منذ البداية، إذ رفض أغلبهم العمل المسلح وفضل الحوار واللجوء إلى المفاوضات مع المستعمر. الأمر الذي جعل عملية التنسيق بين القيادات داخل بلدان شمال إفريقيا، تتخذ منحى متقاعس، ناهيك عن رد الفعل الفرنسي الذي كان مستعجلا، إذ تم منح الاستقلال السياسي لكل من المغرب وتونس سنة ١٩٥٦م، مما نتج عنه تقسيم جبهة القتال. فسياسة الاحتواء الفرنسية حالت دون تحقيق التلاحم الكلي بين الشعوب، ما انعكس على وضعية الجزائر التي تفرغت لها فرنسا بهدف إخضاعها من جديد، فتأخرت بذلك عن ركب الدول المستقلة غاية سنة ١٩٦٢م.

بعد نجاح بعض عمليات جيش التحرير خصوصا في القطر المغربي، سارعت الأحزاب السياسية المتمركزة في الشمال والجنوب، الصغيرة والكبيرة منها إلى البحث عن موطئ قدم داخل فرق هذا الجيش، وبذلك أصبحت المليشيات العسكرية قوة الأحزاب المغربية بعد الاستقلال، الأمر الذي حدى بعلال الفاسي بأن يصرح بأنه" ليس في المغرب من قوى إلا ثلاث قوات، قوة حزب الاستقلال، وقوة جيش التحرير، وقوة القصر. وإذا اعتبرنا قوة جيش التحرير، قوة من الحزب وإليه، كان هنالك في المغرب قوتين لا ثالث لهما، قوة حزب الاستقلال، وقوة القصر أو

العرش"، فبدأت سلسلة من التقاعسات تمارس من قبل القادة السياسيين، خاصة في المغرب وتونس على إثر حصولهما على الاستقلال، وقد نشر الخطابي العديد من النشرات يؤكد فيها أن الاستقلال يجب أن يشمل كل دول شمال إفريقيا. هنا سيقع الخلاف بين العديد من الزعماء السياسيين والخطابي، فقد اعتبر هذا الأخير أن وسيلة الخلاص في المنطقة هي نهج الكفاح المسلح، مستندا في ذلك على منطق أن الاستعمار دخل البلدان المغاربية بالقوة العسكرية، فطرده يجب أن يكون عن طريق العمل العسكري. بينما اعتبر الزعماء السياسيين أن منطق التفاوض مع المستعمر يسهل الطريق للحصول على الاستقلال بأقل الخسائر والأضرار، وأن لكل بلد الحق في اختيار الطريقة التي يراها مناسبة لتغيير وضعه، ولعل تعقيب علال الفاسي- **إن كل واحد له الحرية في اختيار الطريق التي تناسبه، وموقف عبد الكريم لا يتناسب والحالة هذه** - خير مثال لهذه المعارضة.

في ظل هذه الظروف تم تأسيس الجيش الملكي بالمغرب، وطُلب من أعضاء جيش التحرير الالتحاق به، فرفض الكثير منهم الالتحاق بهذه المؤسسة الجديدة، في الوقت الذي كان الخطابي يحث الجميع على مواصلة الكفاح المسح لإحباط خطط الاستعماريين، ونشر بيانا في هذا السياق في صحيفة كفاح المغرب، جاء فيه" **هناك جماعة متضامنة من المستغلين تتربص بكم الدوائر، وتريد أن توقعكم من جديد في قبضة الاستعباد بعدما حملتم أسلحتكم وأدركتم ما يجب عليكم أن تفعلوه لأخذ حريتكم واستقلالكم**".

على إثر ذلك توجهت كتائب من جيش التحرير المغربي نحو الجنوب لتحرير الصحراء، وموريتانيا، وتنسيق العمليات مع جيش التحرير في الجزائر. غير أنها عانت من مضايقات عديدة، الأمر الذي وضعها أمام حل وحيد، وهو اللالتحاق بكتائب جبهة التحرير الجزائرية.

فجذوة الأمل الوحيدة بقيت مشتعلة في الجزائر، التي خصها الخطابي بكل اهتماماته، منفتحا على جل التيارات الوطنية المُجمعة على مقاتلة الفرنسيين، فوقع مع الجزائريين المتواجدين بمصر بيان تأسيس جبهة تحرير الجزائر، وأسندت رئاستها إلى الأمير الخطابي، لفضله على حركات التحرير في المغرب العربي، وسداد رأيه في كل عمل يكون الغرض منه مقاومة الاستعمار والمستعمرين، ويبدوا تأثير الخطابي واضحا من خلال صياغة البيان التأسيسي.

خاتمة:

لا غرو أن تجربة لجنة المغرب العربي التي انبثقت عنها فكرة جيش تحرير المغرب العربي، تجربة نضالية رائدة في الدول المغاربية، وهي بحاجة ماسة إلى تعميق الدراسة والأبحاث خصوصا وأنها عرفت في مراحلها الأولى توحيد الرؤى والمواقف، لكن السياسة الاستعمارية الفرنسية حالت دون نجاحها، لعدة أسباب عرجنا على أهما في متن هذه الورقة المختصرة.

لكن ما ميز هذه المحطة الكبيرة هي ثبات محمد بن عبد الكريم الخطابي على موقفه الحازم ضد الاستعمار في البلدان المغاربية، فقد صرح للصحيفة المصرية آخر ساعة **"أعارض أي اتجاه لإضعاف المقاومة الشعبية، حتى يخرج آخر جندي أجنبي من البلاد... وأعارض أي تراخ في شد أزر ثورة الجزائر، لأنه لا استقلال للمغرب مالم يتحقق للجزائر استقلالها، وتتخلص من أخطبوط الاستعمار"**، وبذلك يكون الخطابي قد رسم موقفه الثابت حول الاستعمار، واضعا له ركيزة أساسية وهي خروج آخر جندي من كل قطر من أقطار المغرب العربي، وهو الأمر الذ تحقق بعد سنوات من التضحيات والبطولات العظيمة من شهداء البلدان المغاربية جمعاء كل من موقعه وبوسائله المتعددة.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة:

نص ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي، نسخة مصورة في خزانتي الخاصة.

أمزيان محمد، **محمد عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف**، منشورات تفرازن ٧، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، ٢٠١٠.

بدوي حسن، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير شمال إفريقيا ١٩٢٠م-١٩٦٣م (وثائق ومذكرات)**، دار ماهي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ٢٠١٧.

واتر بوري جون، **الملكية والنخبة السياسية في المغرب**، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية، دار الوحدة ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٢.

مبارك زكي، **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب**، منشورات فيديبرانت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

الطود الهاشمي، **خيار الكفاح المسلح حوار سيرة ذاتية**، إعداد أسامة الزكاري ، مطبعة سليكي إخوان، الطبعة لأولى، يناير ٢٠١٨.

لخواجة محمد، **جيش التحرير المغربي ١٩٥١-١٩٥٦... مذكرات للتاريخ أم للتمويه؟!**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠٠٧.

ضريف محمد ، **الأحزاب السياسية المغربية** ١٩٣٤-١٩٧٥، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، توزيع مكتبة الأمة، فبراير ١٩٩٣.

الملحق

نص ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي

أ) المغرب العربي بالاسلام كان وللاسلام عاش، وعلى الاسلام سيسير في حياته المستقبلة .

ب) المغرب العربي جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الاقطار العربية أمر طبيعي ولازم .

ج) الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة : تونس، الجزائر، مراكش .

د) لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال .

هـ) لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن نطاق النظام الحاضر .

و) لا مفاوضة الا بعد اعلان الاستقلال .

ز) للاحزاب الاعضاء في لجنة تحرير المغرب العربي ان تدخل في مخابرات مع ممثلي الحكومة الفرنسية والاسبانية على شرط ان تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولا بأول

ح) حصول قطر من الاقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط على اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية .

المادة الخامسة – تستعمل لجنة تحرير المغرب العربي لتحقيق هدفها كل الوسائل الممكنة .

الفصل الثالث

في العضوية والتمثيل

المادة السادسة – يعتبر كل حزب استقلالي في المغرب العربي، يوافق على بنود هذا الميثاق، ويلتزم بالعمل في دائرته ، ويتعاون مع بقية الاحزاب على أساسه ، ويساهم في نفقات اللجنة بقسطه ، عضوا عاملا في اللجنة له ما لبقية الاحزاب الاخرى من حقوق، وعليه ما عليها من واجبات .

المادة السابعة – العضو في اللجنة عضو عامل وله صوت واحد ، وينتخب وينتخب، واذا ارادت اللجنة ضم غير الواضعين لهذا الميثاق من احزاب المغرب العربي فلزم فيه توفر الشروط السابقة الذكر والموافقة باغلبية الثلثين .

المادة الثامنة – لكل حزب من الاحزاب المكونة للجنة الحق في تعيين ممثلين لا يقلون عن اثنين ولا يزيدون على أربعة للنيابة عنه في اللجنة ، ويشترط فيهم ان يكونوا موجودين في المركز ولكل حزب عضو في اللجنة صوت واحد .

المادة التاسعة – يمكن للجنة ان تستعين بخبراء في جلساتها واعمالها بشرط ان لا يكون لهم حق الاقتراع ويستدعون للادلاء بآرائهم امام اللجنة بعد موافقة الاعضاء .

المادة العاشرة – تسقط العضوية في اللجنة بالعمل على خلاف ما ينص عليه هذا الميثاق ، أو بعدم تسديد الاقساط وتوضح حالة تطبيق هذه المادة في اللائحة الداخلية .

الفصل الرابع

في وظائف اللجنة ولجانها

المادة الحادية عشرة – وظائف اللجنة: الرئاسة، ويتولاها البطل القومي للمغرب العربي سمو الامير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي.

٢) – الوكالة ويتولاها الامير سيدي محمد الخطابي.

٣) – وامانة السر – ٤) – وامانة الصندوق ويتولاهما من ينتخب لهما من ممثلي الاحزاب.

المادة الثانية عشرة – رئيس اللجنة هو المشرف عليها والمدبر لسياستها وجلساتها وممثلها الاول امام الداخل والخارج وله اذا تعادلت الاصوات حق ترجيح جهة على اخرى.

المادة الثالثة عشرة – وكيل اللجنة يخلف الرئيس حالة غيابه في سائر اختصاصاته، وتوضح اختصاصاته في اللوائح الداخلية.

المادة الرابعة عشرة – ينوب الامين العام عن الوكيل في حالة غيابه ويقوم مقامه في جميع اختصاصاته، وله علاوة على ذلك الاشراف على اللجنة ورئاسة الموظفين التابعين للجنة وتوضح اختصاصاته في اللوائح الداخلية للجنة.

المادة الخامسة عشرة – أمين صندوق اللجنة هو المشرف على مالية اللجنة والواضع لميزانيتها والحافظ لاموالها وتحدد اختصاصاته في اللوائح الداخلية.

المادة السادسة عشرة – تؤلف من ممثلي الاحزاب المشتركة في اللجنة عدة لجان لجميع الشؤون حسب مقتضيات الاحوال كلجنة الدفاع الوطني واللجنة المالية واللجنة القانونية ولجنة الاتصال بالداخل ولجنة الاتصالات بالخارج ولجنة هيئة الامم المتحدة ولجنة الجامعة العربية ولجنة الدعاية ويبين اختصاص كل لجنة واجراءاتها في اللوائح الداخلية وهذه اللجان تعرض نتائج بحثها على اللجنة العامة.

الفصل الخامس

في الاجتماعات

المادة السابعة عشرة – تجتمع اللجنة مرة في الشهر بدعوة من الرئيس للنظر في شؤونها المختلفة ويمكن عقد اجتماعات استثنائية متى اقتضت المصلحة ذلك.

المادة الثامنة عشرة – تسجل مناقشات الجلسات وقرارات الهيئة في محاضر خاصة توقع من الرئيس والامين العام.

المادة التاسعة عشرة – تتخذ القرارات بالاغلبية العادية الا فيما نص عليه سابقا.

المادة العشرون – توضح كيفية ادارة الجلسات ومختلف الاجراءات المتصلة بها في اللوائح الداخلية.

الفصل السادس – المالية

المادة الحادية والعشرون – تتكون مالية اللجنة مما يلي: الرسوم المتساوية التي يدفعها كل حزب كمساهمة في نفقات اللجنة وتحدد اللجنة هذه الرسوم وتعيد النظر فيها حسب الظروف – ٢) الرسوم الشرفية التي تدفعها الاحزاب ايضا باختيارها – ٣) التبرعات على اختلاف اشكالها – ٤) ايراد المشاريع والاحتفالات التي تنظمها اللجنة.

المادة الثانية والعشرون – للجنة ميزانية عامة يقدمها أمين المال في النصف الاخير من شهر ديسمبر وتلزم الموافقة عليها بعد اقرارها أو تعديلها قبل أول يناير من كل سنة.

المادة الثالثة والعشرون – كل الاجراءات المتعلقة بمالية اللجنة وميزانيتها توضح في اللوائح الداخلية.

التواصل الثقافي والاجتماعي بين المغرب ومصر خلال العهد العثماني

فاتح بوفروك

أستاذ محاضر أ

قسم التاريخ-جامعة عنابة

ملخص:

يتناول المقال التواصل الثقافي والاجتماعي بين المغرب ومصر خلال العهد العثماني، وهو عبارة عن امتداد طبيعي للعلاقات التاريخية بين البلدين، لاسيما في الجانبين الثقافي والاجتماعي؛ حيثبدأ التواصل في هذا الشأن بين مصر والمغرب منذ وقت مبكر؛ إذ ترجع إرهاصاته الأولى إلى أواخر القرن الثاني الهجري، وقد تجلّت مظاهر هذا التواصل في مجالات عدة، نحاول أن نستجليها من خلال هذه الدراسة . ويتضمن المقال مادة علمية مهمة استنبطت من مصادر مهمة ومتنوعة مكنتنا تسليط الضوء على أهم عوامل ومظاهر التواصل بين القطرين.

Abstract;

This paper is about and cultural and social contact between Morocco and Egypt during the era of Othmans, as an extension to historical relationship linking the two countries socially and culturally. However, contact between Egypt and Morocco, in this way, began in a very early time. It appeared for the very first time over the last half of the second century of Higra, through several fields. W`d like to bring them out within this paper, bringing a good part of scientific data from a big and various amount of references and resources, through which we could highlight the most important factors and features of contacts between the two countries.

مقدمة:

لا يجد الدارس لعلاقات مصر ببلاد المغرب العربي عموما، والمغرب الأقصى تحديدا في الفترة الحديثة صعوبة في فهم وتحليل متانتها؛ ذلك أنّ جذور التواصل بين البلدين ضاربة أعماقها في التاريخ؛ إذ تعود إلى آلاف السنين، بداية من فترة ما قبل التاريخ، ومرورا بعصور التاريخ القديم؛ حيث اكتشاف الإنسان للكتابة، وشروعه في تشكيل دويلات، تشبه إلى حد ما الكيانات السياسية المتعارف عليها اليوم، وصولا إلى حقبة الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد المغرب، التي شكّلت منعطفا تاريخيا في التواصل بين المنطقتين، تجسّد لاحقا في ذلك الزّخم الذي عرفته علاقات البلدين سواء في الفترة الوسيطة، أو الحديثة بعدها؛ حيث اتّسع التواصل بينهما ليشمل مختلف الجوانب، ولو بدرجات متفاوتة.

وعليه، فقد شهدت إذا العلاقات المصرية المغربية خلال الفترة الحديثة انعطافة تاريخية، تجسّدت في توسّع رقعة التواصل بين البلدين ليشمل مختلف المجالات، لاسيما الثقافية والاجتماعية، وقد ساهمت عوامل عديدة في ذلك، في مقدمتها حركة الهجرة الواسعة التي عرفها المغرب العربي بصفة عامة، والمغرب الأقصى تحديدا نحو مصر خلال هذه الحقبة، امتدادا للهجرات السابقة لهذه المرحلة.

١- الهجرات المغربية نحو مصر: الظروف والأسباب:

ساهمت عدة أسباب في زيادة الهجرة المغربية إلى مصر خلال العهد العثماني أهمها:

-التحرّشات الإسبانية على المغرب، التي بدأت عقب سقوط غرناطة، وتوحيد اسبانيا على يد فرديناند وإيزابيلا؛ حيث دفع ذلك عددا كبيرا من سكان المغرب إلى الفرار تجاه المشرق العربي، لاسيما مصر، ويأتي في مقدمة هؤلاء المهاجرين التجار، الذين خافوا على أموالهم ومصالحهم التجارية.

-الأوضاع السياسية المضطربة التي كان يعيشها المغرب الأقصى خلال تلك الفترة، خاصة في القرن الثامن عشر، إبّان حكم مولاي إسماعيل، الذي تبنّى سياسة عنيفة ضد الحواضر، التي ظهرت بها حركات انفصالية مناوئة لحكمه كمدينة فاس . وازدادت الأوضاع اضطرابا بعد وفاة مولاي إسماعيل؛ إذ كثرت الحركات الانفصالية، على غرار حركات عبيد البخاري، فضلا عن تفشي الأمراض والمجاعات نتيجة الجفاف الذي ضرب البلاد.

-رحلات الحج، أو ما تعرف بالرحلات الحجازية، فقد شكّلت مصر محطة مهمة وضرورية في الطريق الذي يسلكه الحجاج المغاربة بصفة عامة نحو البقاع المقدسة؛ إذ كانت بالنسبة لهم مكان استراحة ذهابا وإيابا. فعادة ما كان ركب الحج المغربي يصل القاهرة خلال النصف الثاني من رمضان، بعد رحلة طويلة وشاقة من فاس مرورا بليبيا، والصحراء الغربية المصرية، على أن يمكثوا بها حوالي شهرا، قبل أن يواصلوا رحلتهم إلى الحجاز، ودأب الحجاج المغاربة على إطالة مدة مكوثهم في مصر عقب عودتهم من أداء مناسك الحج، إما لطلب العلم أو التجارة.

لقد كانت رحلة الحج بالنسبة لهم تعني أداء فريضتين في آن واحد، فريضة الدين في مكة، وفريضة العلم في مصر؛ إذ كان اقتصار هؤلاء على القيام بإحدى الفريضتين تحط من قيمة الرحلة في نظر الناس، وتجعلها ناقصة، وعليه، كان كل من يشد الرحال لأداء فريضة الحج، يحرص على أن لا يفوته الاتصال بعلماء العالم الإسلامي عامة، وبعلماء مصر على وجه التحديد، فقد كانت مكة خلال موسم الحج، بمثابة مؤتمر عالمي للفكر الإسلامي، كما كانت القاهرة العاصمة الثقافية للإسلام، بعد أن حُسمت المنافسة القديمة بينها وبين بغداد ودمشق، عقب الغزو المغولي لبغداد أوائل العصر المملوكي، والغزو الصليبي لدمشق.

كما ساهم وجود الأزهر في مصر، ورسوخه كمؤسسة علمية من أهمّ المؤسسات العلمية في المشرق العربي، في توافد أعداد كبيرة من الطلبة المغاربة للدراسة به؛ حيث أضحى ملاذا لطلاب العلم من سائر الأقطار العربية والإسلامية، لاسيما في ظل توفره على موارد مالية معتبرة، جعلته يقوم بدور فاعل في تأمين ظروف الدراسة الحسنة للطلبة القادمين من مختلف أصقاع العالم الإسلامي كالمغاربة، الشوام، الأتراك، الهنود وغيرهم، بعدما استحدث القائمون عليه ما يُعرف بنظام" الجراية"، للمعلمين، والمتعلمين به.

-الموقع الجغرافي الاستراتيجي لمصر، أهّلها لاستقبال عدد كثير من الرحالة المغاربة، والعلماء، وطلبة العلم والحجاج.كما ترك هذا الموقع آثارا إيجابية على النشاط التجاري بمصر؛ إذ إنّ وقوع الأخيرة بين البحرين المتوسط والأحمر، فضلا عن توسّطها لثلاث قارات، عُدّت مهدا للحضارات منذ القديم، جعلها منطقة مهمة للتجارة الدولية .وبذلك استطاعت مصر جذب أعداد معتبرة من تجار

العالم، وفي مقدمتهم التجار المغاربة، الذين قصدوا القاهرة تحديدا، بعدما أضحت ثاني أكبر المدن التجارية في الدولة العثمانية بعد اسطنبول، أملا منهم في تحقيق مكانة رفيعة بين التجار، خاصة في ظل توفر شروط النجاح هناك، لاسيما تشابه البيئة الاجتماعية بين البلدين، خاصة وأن الوجود المغربي في مصر قد شهد ذروته منذ العصر المملوكي.

٢- التواصل الثقافي:

شكّل التواصل الثقافي خلال الفترة العثمانية حجر الأساس في العلاقة بين مصر والمغرب العربي عموما، ويعود ذلك أساسا إلى المكانة العلمية الهامة التي أصبحت تحتلها مصر وعاصمتها القاهرة على الصعيدين العربي والإسلامي، مما جعلها القبلة الأولى لغالبية طلبة العلم المغاربة، يقول في ذلك أبو العباس المقري، الذي استقر في مصر لحوالي ١٤ سنة في رسالة موجهة إلى محمد بن أبي بكر الدلائي عام ١٠٤١ عن سبب اختيار وجهته القاهرة دون الشام":ولسيدي أن يقول ما بال فلان يجاور بالمدينة ويكمل بالحلول فيها دينه؟ وماله من أرب مصر بمصر والشام وهل يقاس الحنظل بالبشام؟ فأقول في جوابه مهتديا بصوابه هذا مقام قد رمته وبعث له ما اشتريته بعدما سمته فإذا به متعذر متعسر وما لا يعمل فيما بعده لا يفسر .وذلك أنه يحتاج إلى مؤن كثيرة وما كان يأتي من مصر إلى طيبة المشرفة الأثيرة قد منع أكثره وجله أو جميعه والأعراب تنتهب ما في ذلك المقام جهرا وتأتي إلى الباب غلبة واستظهارا والناس يشاهدون هذا متحيّرين وليسوا له بمغيّرين...وأيضا هناك مانع عظيم وهو أنهم يتحققون أن المغربي المجاور هنالك يصب عليه المال مطرا ولو فرض أنه أعطاهم الألوف لما قنعوا بذلك ولا رأوه وطرا."

وقد تجلّى التواصل الثقافي المصري المغاربي بصفة عامة، والمغربي بصفة خاصة خلال هذه الحقبة في:

أ -استقبال مصر للطلبة المغاربة واحتضان الأزهر لهم:

ارتبط اسم مصر في العالم الإسلامي باسم الأزهر الشريف، فكلّما ذكرت مصر ذكر الأزهر؛ حيث شكّل هذا المعهد محط أنظار طلاب العلم من مختلف أرجاء العالم الإسلامي قصد الأخذ عن علمائه المشهورين، الذين ذاع صيتهم آنذاك، كما عبّر عن ذلك الرحالة الجزائري الحسين الورتلاني عندما نوّه بعلوم مصر ومعارفها، وأساتذتها أيضا كعلي الصعيدي، الذي وصفه

بقوله":وإليه النظر في وقتنا هذا بالجامع الأزهر، بل إليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب، وقد بلغ صيت علمه مشارق الأرض ومغاربها .

كما أثنى أبو راس الناصري المعسكري على مصر وعلمائها في رحلته الشهيرة بـ: "فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته " قائلا: "لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب والأخبار: الإمام الأرضي، الجهيبذ الأمضي، سيف الله المنتضي، شيخنا السيد مرتضى، ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون، ورويت عنه أوائل الصحيحين، و"رسلة القشيري"، و"مختصر العين"، و"مختصر كنز الراقي"، وأجازني بالباقي"، وإلى جانب الشيخ مرتضى، تحدث أبو راس عن العلّامة الشرقاوي واصفا إياه بـقوله ـ":فما رأيت أبرك من لقائه ولا أحسن من إلقائه"، والعلامة الآخر الشيخ عصمان الحنبلي، الذي وصفه بذي العلم والصيت الجلي ."

وقد ساهم وجود رواق خاص بالمغاربة في الأزهر في جذب عدد كبير من الطلبة المغاربة؛ إذ غدا هذا الرواق أكثر أروقة الأزهر طلابا وحركية وسمعة، بعدما أصبح منبرا للنقاش العلمي الهادف، مستفيدا من وضعيته المــــالية المريحة .وقد تخرّج من رواق المغاربة العديد من العلماء المغربيين الذين ذاعت شهرتهم لاحقا في بلدهم أو خارجه على غرار الشيخ محمد بن عبد الواحد البناني الذي تحدث عنه الجبرتي قائلا: "وحضر دروس الشيخ الصعيدي والدردير وغيرهم حتى مهر وأنجب ودرس واشتهر بالفضل وعلم الختوم، وحضره أشياخ العصر وشهدوا بفضله وغزارة علمه، وانتظم في عداد أكابر المحصلين والمفيدين والمستفيدين"، وإلى جانب البناني نبغ أيضا الفقيه علي بن العربي بن علي العربي السقاط الذي توفي بالقاهرة سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م؛ إذ يعتبر من خريجي رواق المغاربة، أين حصل على العديد من الإجازات العلمية من العديد من العلماء المصريين والمغاربة.

واستطاع العديد من العلماء المغاربة عموما، وعلماء المغرب الأقصى تحديدا خريجي رواق المغاربة بالأزهر الشريف تبوّء مكانة رفيعة في الأزهر نفسه؛ حيث تمكنوا من الوصول إلى أعلى مناصب التدريس فيه، إلى جانب مختلف مدارس القاهرة، وبلغ كثير منهم منصب مفتي المالكية بالديار المصرية كالشيخ محمد الأمير، والشيخ محمد عليش، كما استطاع البعض الآخر الوصول إلى رئاسة مشايخ الأزهر مثل الشيخ حسن العطار.

ولم يتوقف تأثير العلماء المغاربة في الأزهر على الجانب العلمي فحسب، بل تعداه إلى المجتمع المصري، فقد أسهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن ذكري الفاسي في صدور مرسوم يمنع تناول الدخان في شوارع القاهرة، وعلى أبواب دكاكينها بعد المناظرات العديدة التي جمعته برجال العلم الحنفية برواق المغاربة حول مسألة تحريم الدخان التي نادى بها الفقهاء المالكية .وبذلك استطاع العلماء المغاربة اكتساب مكانة علمية واجتماعية مرموقة في مصر .

ب -اتصال علماء المغرب بعلماء مصر خلال رحلة الحج:

اقترنت زيارة علماء المغرب للمشرق عامة، ومصر تحديدا، واتصالهم بعلمائها برحلة الحج، فقد كان موسم الحج فرصة لهؤلاء للاستزادة في العلوم الدينية خاصة، وحفلت مختلف الرحلات الحجازية المغربية بذكر الأزهر وعلماء مصر، الذين أخذوا عنه أصحاب هذه الرحلات الدروس والإجازات، فهذا العياشي في رحلته يشير إلى مواضبته على حضور دروس علماء الأزهر وبقية المعاهد خلال مكوثه بالقاهرة؛ حيث يقول في ذلك":ثم في الغد من يوم دخولنا حضرت بعد صلاة الصبح مجلس الشيخ المحقق العلامة المدقق الشيخ عبد السلام بن شيخ الإسلام أبي الأمداد إبراهيم اللقاني يقرئ شرح النقاية لجلال السيوطي....وزرنا في ذلك اليوم شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مدافعة، الشيخ سلطان، ودعا لنا...ثم حضرت بعد العصر من ذلك اليوم درس الشيخ موسى القليوبي المالكي، وكان يقرئ الجامع الصغير للجلال السيوطي بباب رواق الحنفية."...

ويضيف العياشي في ذات الصدد قائلا...":ولم أزل أتردد مدة إقامتي بالقاهرة بمعاهدها الباهرة إلى شيخنا إبراهيم الميموني وحضرت يوما قراءته مع بعض الطلبة الأتراك في تفسير البيضاوي وقرأ قراءة حسنة."

ومما ساعد العلماء المغربيين على التحصيل العلمي بمصر الاستقبال الحار الذي لقوه من علماء مصر وشيوخها؛ حيث ينقل لنا الزياني السهولة التي وجدها في تواصله مع العديد من علماء مصر كعبد الرحمن الجبرتي، الشيخ سليمان الفيومي، الشيخ كامل أفندي وغيرهم؛ إذ يصف ذلك بقوله...":وكان إلى جانبي بيت الشيخ عبد الرحمن الجبرتي فقيه خير الدين عزمني لبيته يوما وكان يأتيني كل يوم، ثم اجتمعت بالشيخ سليمان الفيومي كبير العلماء في وقته، وعزمني لبيته وأتى بيتي مرارا، ثم اجتمعت بالشيخ كامل أفندي،

والشيخ إسماعيل المصري شيخ الأطباء في وقته، وكنت أدخل مع الشيخ عبد الرحمن إلى خزانة الكتب بمسجد محمد باي أبو الذهب بما فيها من غريب الكتب، وخصوصا كتب التاريخ، وكنت أطالع بها أولا، ثم تمكنت الصحبة مع قيمها، فكان يعيرني ما أطلب منه، فطالعت تاريخ الكرماني، وتاريخ النووي، وتاريخ الخلفاء للأسيوطي، والورقات له والثلباني، والخطط للمقريزي، وبحر الأنساب للشيخ المرتضى، وغير ما ذكر...ثم اجتمعت بمؤرخ مصر وشيخ الأطباء بها الشيخ إسماعيل العباسي، وهو الباقي من نسل بني العباس خلفاء مصر."...

ولم يقتصر تردد المغربيين على طلب العلم في القاهرة والأزهر تحديدا فقط، بل امتد إلى مختلف ربوع القطر المصري، ويتّضح لنا ذلك من كلام العياشي في رحلته عن عودته من الحج ومروره بمصر، وتحديدا بدمياط، ودخوله مسجدها؛ إذ يعبّر عن ذلك بقوله":وفيه طائفة من طلبة يقرأون ويدرسون على هيئة ما في الأزهر، ولقيت بهذا المسجد الشيخ المدرس العالم العامل المحدث الراوية الشيخ عبد الله بن محمد الديري، وحضرت تدريسة بعد العصر في سيرة شيخه إمام المحدثين الشيخ علي الحلبي، وقرأت عليه أوائل البخاري ومسلم، وقرأت عليه الفاتحة وأجازني ."

ت -استقرار العديد من علماء المغرب بمصر:

شهدت الحقبة العثمانية انتقال عدد كبير من علماء المغرب إلى مصر واستقرارهم بها، رغم البداية المحتشمة التي عرفها القرن السادس عشر، عزاها بعض المؤرخين إلى حالة الاستقرار النسبي التي عرفها المغرب عقب ظهور الدولة السعدية، لاسيما خلال فترتي حكم مولاي عبد الله الغالب بأمر الله (١٥٥٧-١٥٧٤)، ومولاي أحمد المنصور الذهبي (١٥٧٨-١٦٠٣) اللذين عُرفا برعايتهما للعلم والعلماء، ومن العلماء الذين قصدوا مصر هذه الفترة عبد الرحمن بن علي سقين، الذي زار مصر أوائل القرن السادس عشر، وأخذ عن القلقشندي، وزكريا الأنصاري، والسخاوي، إضافة إلى محمد بن مهدي الجراري الدرعي، الذي توقف بمصر عند ذهابه إلى الحج، وأحمد بن محمد أدفال، الذي قصد مصر أواخر القرن السادس عشر، وبها التقى الشيخ محمد أبا المكارم ابن الشيخ أبي المحاسن البكري وأجازه، وأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد المكناسي الزناتي الشهير بابن القاضي الذي درس على العالمين المصريين بدر الدين القرافي وسالم السنهوري خلال رحلته إلى مصر سنة ١٥٨٥م.

كما استوطن مصر خلال القرن السابع عشر ما يزيد عن عشرين عالما مغربيا من أبرزهم: سعيد بن مسعود الماغوسي الذي درس هناك وحصل على عدة إجازات من علمائها، محمد بن عبد الرحمن الرسيفي الذي أخذ عن شيخ المالكية بمصر علي الأجهوري وأجازه، علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي الذي درس بمصر قبل أن يعود إلى سلا، عبد العزيز بن الحسن الزياتي الذي درس علم القراءة عن الشيخ سلطان بن أحمد المزاحي، الذي كان له مجلس بالأزهر أُطلق عليه" إمام قراء المشرق"، وأبو عبد الله محمد الدلائي الذي رحل إلى القاهرة سنة ١٦٦٩م، وأيضا نور الدين حسن بن أحمد بن العباس المكناسي الذي التحق بالقاهرة عام ١٦٦٣م، وبها مكث حتى وافاه الأجل، أين درس على أشهر العلماء المصريين كالشبرمالسيوالبشبيشي ويحي الشهاوي وغيرهم.

استمر توافد العلماء المغربيين على مصر خلال القرن الثامن عشر ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري، عبد المجيد الزبادي الذي جمعته عدة لقاءات بالعديد من علماء مصر كالشيخ محمد كشك المصري، والشيخ محمد الحفناوي، أبي عبد الله محمد بن سودة المري الفاسي الذي استطاع عقد بعض الدروس برواق المغاربة بالأزهر، العلامة أحمد الورزازي الذي تمكّن من الحصول على إجازة من علماء مصر، محمد السقاط الخلوتي المغربي الذي جاور الأزهر درس الفقه المالكي بمصر عن العديد من الشيوخ المصريين كالشيخ محمد الكردي .ومن هؤلاء العلماء المغربيين من آثر المكوث في مصر، ولم يعد في موكب الحج الذي ذهب فيه قصد التفرغ للدراسة ومن ثمة العودة إلى المغرب مثل أبي بكر بن يوسف السكتاني الذي رحل إلى مصر ثلاث مرات وبقي بها مدة طويلة قبل العودة لبلاده ومباشرة التدريس .هذا فضلا عن مجموعة أخرى من العلماء رحلت إلى مصر واستقرت بصفة نهائية دون قطع الصلة بوطنها كعلي بن العربي الفاسي المشهور بالسقاط، عمر بن عبد السلام التطاوني، يحي الشاوي الذي استقر بالقاهرة للتدريس .ويعود استقرار هؤلاء بمصر بشكل نهائي خلال هذا القرن إلى عدم الاستقرار السياسي الذي خيّم على المغرب آنذاك، لاسيما منذ نهاية عهد مولاي إسماعيل سنة ١٧٢٧ وإلى غاية بداية حكم محمد بن عبد الله سنة ١٧٥٧.

أما القرن التاسع عشر فقد شهد تراجعا

كبيرا في عدد العلماء المغربيين القاصدين مصر للدراسة؛ حيث لم يعد المكوث بها لفترة طويلة يستهوي العلماء والطلبة المغربيين على حد سواء، نظرا لعدة أسباب أهمها نشوء الدولة الحديثة في المغرب، وما أفرزه من نشوء نمط جديد من التعليم تولّى الإشراف عليه المغربيون أنفسهم.

وحريٌّ بنا في الأخير، أن نشير إلى دور الجالية المغربية بمصر في توافد واستقرار العلماء والطلبة المغربيين بمصر، واعتكافهم لطلب العلم؛ حيث سهروا على استقبال الطلبة القادمين من المغرب، وتوفير ظروف الإقامة والدراسة الحسنة لهم لاسيما بالقاهرة، وهو ما نستنتجه من قول الزياني..."ولما سافرنا من الإسكندرية أرسينا بمرسى رشيد، وبتنا بها، ومن الغد توجهنا في النيل لمصر أربعة أيام، وبلغنا مرسى بولاق فمن التيسير ولطف الله وجدنا صاحبا من أهل فاس قائما على الشط يترقّب من يأتي من حجاج المغرب، فلما رآنا في المركب عرفنا وقدم علينا، وبعد السلام كلفته أن يكترى لنا بيتا بمصر قريبا من جامع الأزهر ومشهد الحسنين، فتوجّه في الحين وبتنا في المركب ومن وصلنا، فنزلنا وحملنا بضائعنا وما معنا ودخلنا مصر، وبلغنا المنزل الذي عيّنه لنا ".

ث -تبادل المؤلفات العلمية بين المغرب ومصر:

عني الحجاج المغاربة عموما عند وصولهم القاهرة بالبحث عن المخطوطات النادرة لجلبها إلى بلادهم، وضرب عبد الرحمن الجبرتي مثالا عن ذلك بأحد الجزائريين، الذي عرض عليه شراء كتاب" زيج الراشد السمرقندي "الذي يملكه، فرفض بيعه إياه بأي ثمن، فإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على ولع أهل المغرب عامة بالكتب، وحرصهم على اقتناء المخطوطات النادرة والقيّمة.

وقد لعبت رحلات الحج دورا مهما في تبادل المؤلفات بين علماء المغرب عامة وعلماء مصر، وهنا يبرز دور العلماء الجزائريين تحديدا، الذين يعود لهم الفضل في انتشار العديد من المؤلفات المصرية في المغرب، سواء خلال الحقبة العثمانية، أو الفترة التي سبقتها؛ حيث نقلوها إلى الجزائر أولا، ثم نشروها لاحقا في المغرب كله، ونخصّ بالذكر مؤلفات الفقه المالكي، مثل: "مختصر ابن الحاجب"، و"مختصر خليل"، و"شرح الدردير"؛ إذ كتب البقاء للمؤلفين الأخيرين البقاء في المغرب إلى وقتنا الراهن، وخلال القرن التاسع الهجري، أدخل محمد بن إبراهيم بن الإمام التلمساني" شامل بهرام"، وشرح المختصر له، وحواشي التفتازاني على" العضد"، وابن

هلال على ابن الحاجب الفرعي، وغيرهما من الكتب الغريبة على بلاد المغرب.

ويتجلى اهتمام علماء المغرب بتبادل المؤلفات العلمية، بما نقله لنا هؤلاء أثناء رحلتهم لأداء مناسك الحج وتوقفهم بمصر، وتواصلهم مع علماء مصر، كما جاء على لسان العياشي:أنه التقى بعدد لا بأس به من علماء مصر بالأزهر غداة عودتهم من البقاع المقدسة أمثال الشيخ علي الدمشيتي، الشيخ الميموني، الذي سمع عنه أوائل أبي داود والترمذي والنسائي والموطأ، إضافة إلى الشيخ سلطان الذي سمع عنه حديثا من أول البخاري وحصل منه على إجازة للبخاري ومسلم، فضلا عن الشيخ الشبراميلي الذي وصفه بقوله":فما أغزر علمه وأوسع حلمه وأكثر احتماله وأجمل أفضاله، والشيخ عبد النور الشافعي، والشيخ البابلي، والشيخ القاني، والشيخ أحمد البشيشي، والشيخ محمد الخرشي، وكلهم حصل منهم العياشي وجماعته على إجازات.

ورغم مشاق السفر، والأخطار التي واجهتهم، إلا أن العياشي لم يغفل عن شراء ما تيسّر له من الكتب أثناء مكوثه بالقاهرة، يقول في ذلك..."‌:وكنت طول نهاري ذاهبا وجائيا في قضاء الأوطار، وتهيئة أسباب الأسفار وشراء كتب، وقد يسّر الله منها جملة اشتريتها نحو الخمسين من جملتها نسخة الكشاف قرئت على العلامة الجرابردي، اشتريتها ليلة خروجنا بواسطة محبنا وأخينا الشيخ علي الدميتي."

كما عني العديد من العلماء المغربيين بمصر أيضا بنسخ واقتناء العلماء الآخرين، لاسيما المصريين؛ إذ عكف هؤلاء على نسخ الكثير من المؤلفات التي كتبت بمصر، أو تلك التي وجدت في مكتبات مصر في تلك الفترة، وقد كان لوجود نُسّاخ محترفين من المغربيين بالغ الأثر في تزايد هذا النشاط، وقد ساهم كل ذلك في نقل العديد من المؤلفات إلى المغرب العربي، ومنه إلى مكتبات أوربا والولايات المتحدة الأمريكية . وأصبحت هذه النسخ التي نسخها المغربيون هي النسخ الوحيدة لكثير من المؤلفات العلمية المهمة، بعد اندثار النسخ الأصلية نتيجة الإهمال، أو الاضطرابات السياسية، خاصة خلال الفترة المملوكية، وخلال الغزو الفرنسي، وفترة الاضطراب السياسي التي تمخضت عنه.

٣- المغربيون ودورهم في الحياة الاجتماعية بمصر:

تفرض أية دراسة تتناول الحياة الاجتماعية

المصرية خلال العهد العثماني التوقف عند الدور الكبير الذي لعبته الجالية المغربية في حياة المجتمع المصري تأثيرا وتأثّرا، سواء كان ذلك في المدينة أو الريف .ففي المدينة ارتبطت الجالية المغربية بعلاقات قوية ووطيدة بمختلف أطياف المجتمع المصري، كنتيجة لطبيعة النشاطات التي كانوا يزاولونها، في مقدمتها التجارة، الحرف المهنية الصناعية، طلب العلم والتدريس، مما سهّل اندماجها وانصهارها داخل المجتمع المصري، وقد ظهر ذلك جليا في عدة مظاهر أهمها:

أ -التزاوج والتصاهر:

رغم العلاقة القوية التي جمعت أفراد الجالية المغربية بمصر، إلا أنّ ذلك لم يحُل دون انفتاحهم على المجتمع المصري؛ إذ انتشرت ظاهرة زواج المغاربة عموما بالمصريات أو الشاميات على نطاق واسع، وبالمقابل تزايدت أيضا تزويج بنات المغاربة للمصريين والشوام، ومن أمثلة ذلك أن" البدري حسن بن المرحوم الحاج محمد المغربي الرهوني " يتزوج ببنت محمد بن الحاج إبراهيم الغزاوي، في حين تزوجت عائشة بنت السيد محمد المغربي من عمر بن رمضان ديب المصري، ولم ينأ حتى العلماء عن هذا العرف؛ حيث شهدت تلك الفترة زواج العديد من طلبة العلم والعلماء المغاربة بمصريات، ومن ذلك المقري صاحب نفح الطيب، الذي تزوج بمصرية بعدما استقر بمصر سنة ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م.

ب -انتشار العادات والتقاليد المغربية في وسط المجتمع المصري:

ساهم اشتغال أبناء الجالية المغربية بالحرف المهنية والصناعية والخدمات في جل أحياء المدن المصرية التي عاشوا بها في التأثير في المجتمع المصري؛ إذ سمح مزاولتهم لحرف تمس حياة المجتمع كالطحانة، والقصابة، والسمسرة، وصناعة المنسوجات، وعصر الزيتون في انتشار العادات والتقاليد المغربية، كانتشار الزي المغربي، والأطعمة المغربية، فضلا عن اللهجة المغربية، لاسيما في القاهرة والإسكندرية، وما لبث أن توسعت لتشمل مناطق مصرية أخرى كمدن الدلتا.

ت -مكانة وتأثير التجار المغربيين في المجتمع المصري:

استطاع التجار المغربيون التنفُّذ داخل المجتمع المصري، نتيجة استثماراتهم الكبيرة، علاقاتهم الوطيدة مع الطبقات العليا في المجتمع المصري، لاسيما مع الأمراء المماليك، ورجال الإدارة، وباشوات مصر وعلمائها؛ إذ تمكنوا من خلق فئة اجتماعية متميزة، ضمت

في مقدمتها أسرة الشرايبي، والمحروقي، وحدق، والكهن، والسقاط، سواء في القاهرة أو الإسكندرية، وبذلك أصبحت علامة بارزة في تاريخ مصر الاجتماعي خلال العهد العثماني، نتيجة ارتباطها الوثيق بفئات المجتمع المصري.

ث -العلماء والطلبة:

تمكّن العلماء والطلبة المغربيون بصفة عامة من تبوّء مكانة مرموقة وسط المجتمع المصري؛ إذ وبعد مزاولتهم لدراستهم بالأزهر والمدارس المصرية، أصبح العديد من هؤلاء أئمة ومفتون، بل وأصبح لهم رواد وطلبة من المصريين، وعلاوة عن ذلك، فقد استطاع العلماء المغربيون تبوء الكثير من المناصب الإدارية العليا في مصر مثل نيابة القضاء، مشيخة رواق المغاربة ونظارة أوقافه، كما انصهر العديد من العلماء المغربيون داخل المجتمع المصري، خاصة الذين طالت إقامتهم هناك؛ حيث تأثروا وأثروا في العادات والتقاليد، لاسيما بعد زواج العديد منهم بمصريات كما سبق ذكره.

خاتمة:

في نهاية هذه الدراسة خلصنا إلى بعض النتائج نوجزها فيما يلي:

-أنّ العلاقات المصرية المغاربية عموما، والمغربية تحديدا قديمة جدا؛ إذ تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، لتستمر بعدها بزخم أكبر عبر كل المراحل التي تلتها .

-أنّ العلاقات المصرية المغربية اتّسمت دوما بالتواصل والتفاعل متأثرة في ذلك بالدرجة الأولى بوحدة العقيدة الإسلامية واللسان العربي، مما أنتج علاقة تأثير وتأثر بين المغرب ومصر، تعزّزت أكثر خلال الفترة العثمانية.

-ساهمت الرحلات الحجازية بشكل كبير وفاعل في تعزيز العلاقات بين المغرب ومصر خلال الحقبة العثمانية، وذلك نتيجة عدة عوامل دينية، علمية، سياسية، وحتى اقتصادية في أحيان كثيرة.

-إن التواصل المغربي المصري خلال العهد العثماني تجلّت ملامحه أكثر في الحضور المغربي الفاعل بمصر في مختلف مناحي الحياة، لاسيما الجانبين الثقافي والاجتماعي.

مصادر ومراجع الدراسة:

أ /المصادر:

-أبو راس الجزائري محمد: فتح الإله ومنّته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦.

-الزياني أبو القاسم: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا..، تحقيق وتعليق: عبد الكريم الفيلالي، ط٢، دار نشر المعرفة للنشر

والتوزيع، الرباط، ١٩٩١.

-العياشي عبد الله بن محمد: الرحلة العياشية ١٦٦١-١٦٦٣م، ج١٠، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط١٠، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٦.

-الورتيلاني الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المجلد الأول، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦.

ب /المراجع:

-أميل فيليكسغوتييه: ماضي شمال إفريقيا، ترجمة: هاشم الحسيني، مؤسسة توالت الثقافية، ليبيا، ٢٠١٠.

-حركات إبراهيم: المغرب عبر التاريخ، المجلد الثاني، دون طبعة، دار الرشاد الحديثة، المغرب، دت.

-حسام محمد عبد المعطي: المغاربة في مصر خلال القرن الثامن عشر، تقديم: إسماعيل سراج الدين، مكتبة الإسكندرية، مصر، ٢٠١٥.

-الحمدي العربي: التأليف التاريخي في العصر العلوي أبو القاسم الزياني نموذجا، ندوة الحركة العلمية في عصر الدولة العلوية إلى أواخر القرن التاسع عشر أيام ٩و١٠و١١ ديسمبر ١٩٩٣، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة.

-عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر،منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، تونس، ١٩٨٢.

-سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج٢، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧.

-بوشعراء مصطفى: صور من العلائق المصرية المغربية عبر التاريخ، ندوة العلاقات التاريخية المصرية المغربية، إعداد: نجاة المريني، دار الثقافة للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٨٩.

-بن شنهو عبد الحميد: الملك العالم يوبا الثاني وزوجه كليوباطرة سيليني، طبع وزارة الثقافة الجزائرية، ٢٠٠٧.

-غانم محمد الصغير: نظرة في العلاقات الحضارية الفنيقية الليبية القديمة من خلال المصادر المادية، مجلة سيرتا، السنة السادسة، العدد ١٠، رمضان ١٤٠٨هـ/أفريل ١٩٨٨م، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة.

-ماهر سعاد: الأزهر أثر وثقافة، دراسات في الإسلام، العدد ٢٢، ١٥ جمادى الأولى ١٣٨٢هـ /١٤ أكتوبر ١٩٦٢، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الثقافة، مصر، ٢٠٠١.

-مسعود العيد: العلاقات الثقافية بين الجزائر والمشرق في العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد ١٠، جمادى الأولى ١٣٩٩هـ/ماي ١٩٧٩م، مطبعة البعث، قسنطينة.

-يونان لبيب رزق، محمد مزين: تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب.

الخلفيات الاستعمارية للتمثيل الدبلوماسي بطنجة
خلال القرن ١٩م

توفيق عزوز

طالب باحث

.

ملخص الدراسة :

أتت محاولتنا بموضوع موسوم الخلفيات الاستعمارية للسلك الدبلوماسي الممثل بمدينة طنجة بين سنتي خلال القرن ١٩م، فهل هذا العمل في حاجة إلى الدراسة؟ .إن الشيء الذي شجعني عن الخوض فيه هو شح الدراسات التي اعتنت به ولم تتطرق إليه ما يكفي ويستحق، فقد كانت رسالة" جمال الدين الشطيار "المعنونة ب"جوانب من تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بطنجة "بين سنتي ١٩٠٠م-١٩١٢م تحت إشراف الدكتور محمد الأمين البزاز، قد غطت الجانب المنوغرافي للمدينة، ويمكن اعتبارها في إطار الرصيد التراكمي للدراسات الأكاديمية التي أحاطت بالمدينة، وانطلاقا من ذلك فمدينة طنجة بأهميتها على عدة مستويات، فلكونها أولا واجهة المغرب من الضفة الشمالية من حوض البحر الأبيض المتوسط، وثانيا مركزا تجاريا تتم من خلالها المبادلات التجارية مع أوربا، و التي كان من الضروري الوقوف على الحركات التجارية المختلفة والمتنوعة، وثالثا العاصمة الدبلوماسية للمغرب عن طريق وجود تكتل قنصلي بالمدينة، الذين سعوا إلى إبرام مجموعة من الاتفاقيات والمعاهدات وقفنا على بعضها في موضوعنا، وقد خول لنا ذلك الانقضاض على جانبها الأساسي الذي كان البوصلة التي تتحرك فيه مؤسسة المخزن، وهو السلك الدبلوماسي الممثل بالمدينة الذي لم يحظ بدراسة علمية جادة كما سلف الذكر.

٢-١ نبذة عن تطور السلك الدبلوماسي بأوربا:

إن الحديث عن السلك الدبلوماسي بين الدول هو الحديث عن أحد الأسس التي من خلالها يمكن فهم العلاقات الاستراتيجية التي تربط بينها، وهذا المعطى غير جديد على مستوى العلاقات الدولية بل هو ضارب في عمق التاريخ .فالوقوف عند المؤسسة الدبلوماسية في أوربا وفهم تطورها أمام التغيرات التي كانت تفرضها الأحداث التاريخية، هو في حد ذاته يساعدنا على تفكيك تنظيماتها لفهمها الآن .من هذا المنطلق يمكن الإشارة أن المراحل الأولى التي مرت منها المؤسسة الدبلوماسية عبر التاريخ نخص بالذكر المرحلة الإغريقية والمرحلة الرومانية، فالبعثات الدبلوماسية عند الإغريق كانت من الحقوق الأساسية لدولة المدينة، فقد سعى الإغريق إلى ربط علاقات دبلوماسية مع المدن الأخرى، حيث كان يحظى المبعوث بامتيازات منها أن الجهة الممثل بها هي من تتكلف بنفقات السفر، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتم مكافأته إذا نجح في مهمته، لكن في الوقت ذاته كان يمنع عليه أية هدية مادام مهمته رسمية وألا يخضع للقانون والقضاء الداخلي للدولة التي يبعث إليها، وأيضا لا يحق أن ترفض الدول الدخول في علاقات دبلوماسية ويحتم عليها استقبال المبعوث وتوفير ظروف إقامتة .وإذا كانت الحضارة الإغريقية وضعت القوانين الأولى للمؤسسة الدبلوماسية فإنها أرست قواعدها بشكل كبير في العصر الكلاسيكي الذي يطلق عليه بالمعجزة الإغريقية كتعبير عن انصهار الثقافات المختلفة التي لعبت فيها أثينا دور الريادة.

لقد عرفت الدبلوماسية عند الرومان تقدما ملحوظا، من خلال تنظيم الاتفاقيات واللقاءات والمعاهدات ..وذلك لخدمة مصالح روما التي ارتكزت على مبدأ السيطرة، وإخضاع الشعوب الأخرى وكيفية استيعابها وصهرها في البوتقة الرومانية .لذا نستطيع أن نميز عند الرومان مرور الدبلوماسية بمرحلتين:

_المرحلة الأولى :عرفت الامبراطورية الرومانية مرحلة قوة وازدهار فسادت خلاله سيطرة القوي على الضعيف، فكانت هي السمة المميزة لهذه المرحلة والتي امتدت إلى قرون بسبب غياب الأساليب والطرق الدبلوماسية.

_المرحلة الثانية :تميزت بتراجع نفوذ الإمبراطورية فالتجأت إلى طرق المفاوضات والعلاقات الدبلوماسية للحفاظ على

مصالحها، فتطورت إدارة خاصة للشؤون الخارجية، وكان من واجبها الأول تنظيم العمل الجاري أثناء الاتصال القانوني مع الدول الأجنبية .

وبمرور العصور وبفعل توسع مفهوم المؤسسة الدبلوماسية، أصبحت هذه تعرف تطورا يمكن فهمه بشكل ملحوظ مرحلة النهضة الأوربية ما بين القرنين ١٤م و١٧م الفترة التي زاد الطلب على فهم البعد الاستراتيجي للبلدان الأوربية من خلال بوابة العلاقات الدولية، وبالتالي وضع شروط لاختيار السفير الذي عليه الإلمام بالمصالح العليا للبلد الذي يمثله، ويذكر لنا المؤرخ **عبد المجيد القدوري** مثالا على ذلك، الذي يشير إلى الشروط الضرورية التي يجب توفرها في الممثل الدبلوماسي .

إن مرور الجهاز الدبلوماسي الأوربي بهذه المحطات الكبرى خول له اكتساب أبعاد وبنية المجتمعات عامة، لأنها هي من تحكمت في المبادرة الدبلوماسية على غرار الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط بفعل التفوق المادي والتقني للأولى.

٢-٢ خونطة القناصل وذرائع تدخلها:

لم يكن اختيار المخزن المغربي لطنجة مقرا لإقامة الهيئة الدبلوماسية اختيارا اعتباطيا، بقدر ما أملته ظروف وإكراهات داخلية وإستراتيجية، فطنجة هي أقرب نقطة يلتقي فيها المغرب مع الخارج، كما أنها نقطة ساحلية بعيدة عن العاصمتين فاس ومراكش، فقد كانت هذه الهيئة تقيم في البداية في مدينة تطوان وباقي المدن الأخرى كلما تيسر لها ذلك، إلا أنه بعد تحرير المدينة من الاحتلال الانجليزي سنة ١٦٨٤م، انتقل القناصل إليها لتصبح منذ القرن الثامن عشر المقر الدائم لجميع قناصل الدول الأجنبية، ليعيش المغرب عامة ومدينة طنجة خصوصا، تدخلا أجنبيا في شؤونه الداخلية على مستوى توقيع معاهدات غير متكافئة الأطراف، الشيء الذي جعل الجالية الأوربية تتمتع بامتيازات سياسية وقضائية واقتصادية سخرتها للتغلغل في معظم الحياة اليومية بالمدينة، وأدى ذلك بالبلاد إلى ما لا يحمد عقباه، ومن ثم برزت أزمة عويصة عجزت السلطة المركزية على تجاوزها، وبالتالي جعلت المخزن المغربي يستجيب في غالب الأحيان إلى مطالب القناصل، متنازلا لهم عن بعض الحقوق، وقد اقترن ذلك بصيغة قانونية بالقناصل المعتمدين بمدينة طنجة وباقي المدن الساحلية ذات الطابع التجاري، كسلا والصويرة وطنجة، التي حظيت بحصة الأسد بهذه الممارسات .

كان تجمع القناصل في مدينة واحدة من شأنه أن يضفي نوعا من الفعالية على مواقفهم وقراراتهم المشتركة، حيث كان القناصل المعتمدين في المغرب يعقدون جلسات واجتماعات فيما ما بينهم للنظر في المشاكل التي يعاني منها الأجانب في المغرب، وخاصة تلك التي تخص المصالح المشتركة .وقد تم على إثر هذه الجلسات تأسيس مجلس يضم قناصل الدول المعتمدة في المغرب، والذي عرف ب"خونطة القناصل ."انعقد أول اجتماع لهذه الهيئة بتاريخ ٢ ماي ١٧٩٢م، وحضره ممثل البرتغال والسويد والدانمرك وإنجلترا وإيطاليا وهولندا، ليصبح عددهم سبعة بعد انضمام ممثل إسبانيا في السنة الموالية، ثم إلى تسعة بانضمام كل من ممثل فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٧٩٧م. وأما بخصوص عمل هذه اللجنة، فهي جاء مرضيا لكل الأطراف، إذ من الجانب الإداري، عملت اللجنة على المساواة ما بين جميع الأعضاء، حيث كان كل قنصل يشغل منصب الرئاسة لمدة ٣٠ يوما، ويطلق عليه" قنصل الشهر"، وكان بذلك يتولى المراسيم باسم الخونطة ويقوم بإرسال الدعوات لحضور الاجتماعات التي كانت تعقد في القنصلية التابعة لدولته،

كما كانت القضايا المطروحة للمناقشة يتم الحسم فيها بأغلبية الأصوات .وفي ما يلي، كان القناصل الممثلين في المغرب على الشكل التالي :

الدولة	اسم القنصل
إنجلترا	Ma. Maltra
إسبانيا	J.M. Salmón
هولندا	J.H Van NieuWerkerke
قنصل فرنسا المقيم في سلا	J.P. du Rocher
البندقية	G.G. Chiappe
البرتغال	J.Colajso
الدانمارك	M.Clafsen

الجدول رقم ١ :القناصل الممثلين في المجلس.

في السياق ذاته، كانت الاجتماعات التي يعقدها المجلس على الشكل التالي:

- النوع الأول يتعلق بالاجتماعات التي تعقد في قصر عامل طنجة بناءا على طلبه، سواء لتبليغ التعليمات السلطانية أو لاستشارتهم في قضايا تهم المخزن .وكمثال على ذلك، الجلسة التي انعقدت في قصر العامل عبد الرحمان أشعاش - شملت

ولايته تطوان وطنجة ونواحيها -بهدف إخبار القناصل ببعض الامتيازات التي أنعم بها عليهم السلطان مولاي سليمان، والتي جاء بها مبعوث خاص من فاس، وقد نصّت هذه الامتيازات على " تأكيد حق القناصل في التوجه إلى أوربا متى أرادوا ذلك دون الحاجة إلى إشعار حتى السلطان نفسه، وحرية الخروج للقنص في البادية أو للصيد متى أرادوا ذلك .علاوة على هذا، أكد مبعوث السلطان أن رغبة جلالته هي أن يشعر القناصل اتجاهه بالرضا والارتياح، وأنه مكلف من قبله بأن يتقبل بصدر رحب الشكاوي التي يرغبون في رفعها إليه .هذا يدل إلى أن الاهتمام بأمر الأجانب ودعاويهم وأعمالهم في البلاد، كانت من أهم الانشغالات التي أولاها السلاطين المغاربة كامل اهتماماتهم، لأن وجود الأجنبي بين ظهرانينا يقلق راحتهم ... مما دعا إلى الاهتمام بهم، خصوصا الذين يملأون الثغور.

يمكن أن نستشف من هذه المعطيات زيادة التكتل الأجنبي واتحاده، مما سيؤثر على الجهاز المخزني ويشكل ضغطا عليه، وهذا ما تبينه إحدى الجلسات التي تم عقدها مع عامل طنجة، والمؤرخة في ٢٩ دجنبر ١٨١٥م، والتي أوضح فيها للخونطة موقف السلطان المولى سليمان من اليهود، فأحاطهم علما بأنه " **لا يقبل أن تحتضن مملكته إلا من رغب منهم في الامتثال لقوانين البلاد وتقاليدها وأن على اليهود سواء كانوا مولودين في المغرب أو الوافدين عليه أداء الضريبة كباقي السكان واعتبار أنفسهم رعايا مغاربة."**

- النوع الثاني من هذه الاجتماعات، هي التي كان القناصل يعقدونها للنظر في شؤونهم الخاصة بالجاليات الأوربية، بغية الدفاع عن المصالح المشتركة، والضغط على السلطة المحلية لانتزاع بعض الامتيازات . وبالفعل، فقد تمكنوا من إرغام المخزن على التراجع عن كثير من القرارات التي لم تكن في صالحهم، حيث سيصدر قرار في شتنبر ١٨١٧م متعلق بإخضاع الأمتعة التي يبعث بها القناصل إلى أوربا إلى التفتيش الجمركي، وقد جاء إلغاء هذا القرار بعد الرسالة الجماعية التي بعث بها القناصل إلى المولى سليمان للاستفسار حول هذا الإجراء الغريب والذي يتنافى مع الأعراف الديبلوماسية .هذا من جهة، أما من جهة أخرى، ما يلفت النظر

ويبين مدى النفوذ الذي اكتسبته الهيئة القنصلية إلى حد التدخل في تشريع البلاد . فحسب سجل هذا المجلس، تعرض ملاح إسباني لاعتداء شنيع على يد بعض المغاربة سنة ١٨٣٢م، وعلى ما يبدو فإن قنصل إسبانيا لم يتمكن في البداية من إقناع العامل، وهو" العربي السعيدي"، بتنفيذ الشروط التي أملاها عليه، مما دفعه إلى توجيه رسالة لزملائه لشد عضده وممارسة ضغط جماعي من أجل معاقبة مدبري هذا الاعتداء حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر، ولإفشال محاولة الضغط هاته، اتخذ العامل تدابير فورية، فقام بجلد سبعة مغاربة ممن اشتركوا في الاعتداء، واعتقال المتهم الرئيسي واعدا بمعاقبته بكيفية نموذجية، إلا أن الهيئة لم تقتنع بهذا الإجراء، وقامت بعقد جلسة خاصة لتحديد الطريقة التي تراها مناسبة لحمل السلطة المحلية على معاقبة المتهمين، حيث وجهوا رسالة إلى العامل يعبرون فيها عن مدى استيائهم وامتعاضهم من الحادث، وقد تم تسليم الرسالة إلى العامل من طرف ترجمان كل من قنصل الشهر وقنصل إسبانيا، اللذين كلفا بتبليغ العامل بأن جمع الهيئة القنصلية لن ينفض إلا بعد الحصول على جواب .نتيجة لذلك، وأمامالضغوط المفروضة على المخزن، تم في النهاية الخضوع لإرادة الهيئة واقتياد المتهم لجلده أمام قصر العامل.

يتضح من كل هذا أن التكتل القنصلي كان مؤثرا على قرارات المخزن، وقد استغل هذه الحوادث كذريعة للانطلاق في تنفيذ مخططاته من أجل الضغط على المغرب لفتح سلسلة من المفاوضات الرسمية، الشيء الذي منحهم امتيازات متعددة، وسيظهر هذا جليا من خلال قضايا أخرى ستطرح أمامهم، نخص منها بالذكر الجانب المتعلق بالصحة وما كانت تطرحه المرحلة، خصوصا خلال فترة حكم المولى سليمان، مم خوّل لهم تكوين حزام صحي على طول ثغور البلاد .

-النوع الثالث من الاجتماعات كان يتعلق بالوضعية الصحية للثغور، حيث كانت قضية الحجر الصحي في مقدمة القضايا التي استأثرت باهتمام بالغ لدى الهيئة القنصلية بالمدينة، وهذا راجع إلى ضعف المخزن المغربي.

في هذا الصدد، يمكننا طرح السؤال التالي : لماذا كانت الثغور على وجه الخصوص في واجهة اهتمامات التكتل القنصلي؟

السبب يعود إلى أن المراسي المغربية،

والشمالية على وجه الخصوص، كانت أكثر تعرضا لتفشي الأمراض والأوبئة، إذ في هذا السياق، تفشى وباء في سنة ١٨١٨م عبر المراسي الشمالية بعد عودة الحجاج في شهر مايو -يونيو، والذي كان أكثر فتكا من الذي سبقه سنة ١٨٠٠م، فقد قدرت الإحصائيات أن نسبة الوفيات تراوحت ما بين الثلث والثلثين مقارنة مع ما تم تسجيله في الحالة السابقة، ويعود سبب ذلك، إلى تراجع النمو الديموغرافي، حيث كان عدد السكان الذين تعرضوا إلى الوباء عام ١٨١٨م، أقل منه قبل ثماني عشرة سنة بعد التراجع الديمغرافي .

بسبب هذه الوضعية، سعت الهيئة الممثلة في المدينة إلى الضغط على المخزن من أجل الحصول على تفويض رسمي للقيام بما يلزم للحد من انتشار الأوبئة والأمراض في البلاد، وذلك من خلال رسالة بعثتها إلى المولى سليمان، الذي وافق على الطلب، وهذا راجع إلى تيقن السلطان الأكيد بجهل المغرب في تدبير شؤون الحجر الصحي، وهذا ما أورده المؤرخ " محمد الأمين البزاز "في إحدى الرسائل السلطانية التي أوردها، حيث يخاطب فيها الهيئة القنصلية الأجنبية بما يلي: «**فأنتم تعرفون كيف تتعاملون مع أهل الوباء في بياعتكم ومشترياتكم وتجعلون الدراهم في الخل وتتحفظون كل التحفظ والمسلمون لا يعرفون ذلك، ولا يتحفظون مثل تحفظكم منه وذلك ضرر على المسلمين وعلى قنصوات النصارى الذين بطنجة**».

فمن خلال هذه الإجراءات، يتبين بوضوح البدايات الأولى لفقدان المخزن سيطرته على أحد أهم مميزاته الجغرافية، وفقدان تدبير شؤون الرعية، ويمكن اعتبار هذا الضعف هو مرآة عاكسة لبنيته العتيقة، والتي ستجعل الأوبئة والمجاعات الضاربة به أحد الأسلحة الفتاكة لتفكيك هرم السلطة .فقد كثرت المهام والمسؤوليات الموكولة إلى القنصل، إذ بفعل اتساع نطاق التحركات التي يمارسها، وتعدد الأدوار التي يقوم بها، كانت هذه المهام في الغالب متداخلة ومتشابكة يختلط فيها ما هو دبلوماسي بما هو سياسي أوتجاري، وحتى ديني ...لكنها لم تخرج عن إطار ما أكدت عليه العديد من الاتفاقيات المبرمة ب "السهر على مصالح رعايا دولته"، بما تتضمنه هذه العبارة من معنى واسع، ومع ذلك، يمكن رصد بعض المهام التي يقوم بها الممثلون الأجانب بالمغرب في مايلي:

تعددت مهام القناصل من خلال تنوع أساليب تدخلاتهم، وذلك بموازاة ارتفاع عدد المحميين، واتساع نطاق الحماية من الناحيتين البشرية والجغرافية إثر تصاعد المبادلات التجارية البحرية وإدماج المغرب التدريجي في السوق العالمية وربطه بالنظام الرأسمالي . كما استلزم تكثيف تدخلاتهم على المستوى القضائي، حيث كان الفصل في هذه القضايا غالبا ما يتم بعيدا عن القضاء المغربي، الشيء الذي سيفتح باب التفريط في السيادة الوطنية.

٢-٣ الخلفيات الاستعمارية للمجلس الصحي بطنجة:

تجندت الهيئة القنصلية المعتمدة في طنجة لتلعب دور الدركي الصحي في المراسي المغربية التجارية، فعند تمركزها في مدينة طنجة، بدأت وظيفتها تتبلور منذ إعلان طنجة كعاصمة دبلوماسية للمغرب، فمن جملة القضايا التي كان تستأثر باهتمامهم، قضية السلامة الصحية للجاليات الأوربية بالمدينة، وكان من شأن غياب سلطة مغربية تتولى مهمة المراقبة الصحية في المراسي التجارية للتأكد من سلامة السفن الواردة عليها قبل الترخيص لها بالدخول أن تترك الباب مفتوحا أمام تدخل الأجانب في هذا الميدان، ومحاولة التحكم فيه، وهذا راجع إلى المعطى الاستراتيجي للمدينة التي كانت هي صلة الوصل بين جنوب أوربا وشمال إفريقيا، إذ من جملة التدخلات في الشأن المغربي نجد قضية السفن العائدة بالحجاج المغاربة إلى بلادهم، حيث يتم عقد اجتماعات تتعلق بكيفية الوقاية من الوباء، وذلك بعد قدوم أخبار بظهور وباء في إحدى الجهات المتوسطية، فيتم تحديد مكان رسو السفينة والإحاطة بكل ما يلزم لتجنب انتشار الوباء بالمدينة، وكان يتم إخبار السلطة المحلية من طرف قنصل الشهر، وإخبار سلطات المراسي الأخرى عن طريق نواب القناصل فيها، وهو ما يشير إلى امتداد نفوذهم في البلاد، واتخاذ الصرامة اللازمة في أي مكان انتشر فيه الوباء .

من هذا المنطلق، يمكننا طرح السؤال التالي : هل كانت الهيئة القنصلية تنوي فعلا حماية البلاد من تفشي الوباء؟ أم كان هدفها ممارسة الضغوط على المخزن ؟

سعت الهيئة القنصلية إلى لعب دور الشرطة الصحية في الموانئ التجارية، وهذا ما تنم عنه من خلال رسالة وجهتها إلى عامل طنجة سنة ١٨١٠م، يتساءلون فيما إذا كانوا ما يزالون مكلفين بمهة الشرطة الصحية

في المراسي، وكان الجواب تأكيد هذه المهام الصحية بالنسبة القناصل، حيث تكفل قنصل الشهر بتمرير مذكرة إلى النواب القنصليين في المراسي المغربية التجارية "لإخبارهم بأن الهيئة القنصلية ستظل، بناء على جواب الباشا، مكلفة بالسهر على الصحة العمومية .ومن خلال هذا، يتبين بأن المولى سليمان كان قد وافق بالفعل على أن تلعب الهيئة القنصلية دور الشرطة الصحية في موانئه التجارية، وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية سياسة هذا السلطان التي وصفت تاريخيا بسياسة الاحتراز؟، وهل بالفعل تم إسناد هذه الهيئة تفويضا رسميا؟ هذا ما سنتتبع أطواره .مع ذلك، ترك المولى سليمان الباب مفتوحا على مصراعيه أمام التدخلات الأجنبية في جانب خاص بالسيادة الوطنية، وذلك بسبب غياب المراقبة الصحية المهولة التي تميز بها الجهاز المخزني العتيق، وفي وقت كانت الواجهة البحرية مهددة بانتشار الأوبئة، وهو ما أعطى للقناصل سلاحا فعّالا لحمل المخزن على إبداء مزيد من التسامح أمام ممارستهم الصحية.

وهذا يدفعنا أيضا إلى التساؤل حول ما مدى بقاء هذه المكتسبات الأوربية، حيث نجد الجواب في رسالة موجهة إلى باريس بتاريخ ٣١ غشت ١٨١٤م، يخبر فيها القنصل" فورني " بأن عامل تطوان اتخذ موقفا معارضا للتدابير الصحية المتخذة ضد جبل طارق، وأنه كتب : «إن الأمراض بلايا ينزلها الله بالعباد وليس بمقدورهم درؤها، وأن صاحب الجلالة لا يرغب في أن يفرض الحجر الصحي في مملكت». يظهر جليا من خلال الرسالة أن المخزن في أصل هذه المسألة كان رافضا لأي مساعدة من طرف السلك الدبلوماسي الممثل في المدينة .فإذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن فهم استقدام أجانب لمكافحة الوباء في المغرب؟، وذلك عبر استنجاده بخبرة الهيئة القنصلية الممثلة في المدينة لإيقاف زحف الوباء، وجعله ينحصر في مجال جغرافي محدود للسيطرة عليه.

من خلال هذه المعطيات تتضح فكرة أساسية، مفادها غياب الوضوح في سياسة المخزن تجاه القناصل، إذ يظهر أنه بالرغم من تشبث السلطان بموقفه الرامي إلى إرساء سياسة الاحتراز، إلا أن الضغط الدبلوماسي كان يجعله يغير موقفه والتراجع عنه، وهذا بالضبط ما سيسفر المزيد من التنازلات على السيادة الوطنية للبلاد.

بعد أخذ موافقة المولى سليمان بلعب دور الشرطة الصحية في الموانئ، ولكن

بدون تفويض رسمي، قدم القناصل مجددا إلى المولى عبد الرحمن مشروع قانون تأسيسي لهذه الشرطة في ٢٨ أبريل ١٨٤٠م، ويدعي أعضاء هذا المجلس أن هذا المشروع حظي بموافقة السلطان المولى سليمان، الذي أصدر، حسب مزاعمهم، ظهيرا خاصا أذن فيه رسميا للهيئة القنصلية بممارسة صفة الشرطة الصحية في مراسيه التجارية .فإذا كانت الهيئة الدبلوماسية أخذت في عهد السلطان مولاي سليمان موافقة صفة الشرطة الصحية في الموانئ، فقد تحكمت في سياسة هذا السلطان ظروف فرضتها المرحلة، حيث كان مقابل ذلك أن قام بتصدير القمح بالرغم من الاحتجاج الشعبي لأنه كان في حاجة ملحة لمداخل يثبت بها حكمه .وهذا لا يجعلنا نستغرب في أخذ الهيئة التفويض من المولى عبد الرحمن لما كان يعرفه المغرب من ضغوط تجارية أوربية، وهذا ما أشار إليه ابن زيدان **" أن السلطان أذن لسفراء الدول بطنجة في النيابة عنه في شأن الحجر الصحي على المراكب البحرية الواردة على مراسي المملكة وتسريحها على مقتضى القانون الدولي الجاري به العمل وقد أقر هذا العمل من بعده حفيده السلطان المولى الحسن ."**

فهل يمكن اعتبار هذا الامتياز المتاح للهيئة القنصلية الممثلة بالمدينة ينحصر فقط في الجانب البحري؟ أو بصيغة أخرى، هل الغاية من المراقبة الصحية للموانئ هي في حد ذاتها تجنب تسرب الوباء؟ أو خلفيات أخرى لديها علاقة بالحصول على امتيازات خاصة بجوانب متقاطعة التي تفرضها المحطة؟

إن الملاحظ في القانون التأسيسي للمجلس الصحي، يجده يتكون من ثلاثة عشرة فصلا، كل فصل يحدد اختصاصات أعضاءه ويؤطر مهامهم، فكيف كان المخزن يتعامل مع هذا المجلس؟ أو بصيغة أخرى، ما هي حدود اشتغاله؟ ما يزيد من مشروعية تساؤلنا هو عندما ننظر إلى القانون التنظيمي للمجلس الصحي نجد أنه لم ينص على التدابير التي يمكن أن تتخذ ضد السفن القادمة من مناطق موبوءة، وكذلك، لم ينص على التدابير المتعلقة بالسفن الناقلة للحجاج، فقط اكتفى بتبني القوانين الصحية الجاري بها العمل في جبل طارق، وعلى الرغم من أنه حاول سد هذه الثغرة عن طريق القرارات التي أصدرها فيما بعد تحت ضغط الظروف، فإن هذه القرارات اتسمت بعدم الانتظام، وبنقص الخبرة، وما يعزز كلامنا أنه لا يوجد بين أعضاءه خبير في شؤون الحجر الصحي .

وهذا ما يحيل إلى خلفيته الاستعمارية المتماشية مع الظروف التي فرضتها المرحلة، وإن تدخل المخزن في صلاحيات المجلس الصحي، يمكن ربطه بالقدرة على إلزام الأجانب بها، رغم أن تدخلاته لم تكن فعّالة، خصوصا فيما يتعلق بالتدابير المطبقة على الرعايا الأجانب، وفي المقابل، نجد نقيضا لها تطبق على الرعايا المغاربة، وهذا يمكن فهمه في إطاره العام خلال هذه المرحلة التي تميزت بسنّ فرنسا مخطط استعماري على شمال إفريقيا، وذلك من أجل إنشاء إمبراطورية استعمارية، وذلك بعد الهزيمة التي ألحقتها بالمغرب في معركة إيسلي سنة ١٨٤٤م، في موازاة ذلك، سنت بريطانيا مخططا دبلوماسيا عبر ممارسة ضغوط قوية على المخزن من أجل إحداث تغييراته على سياسته الخارجية .

عمل المجلس الصحي منذ تأسيسه على توفير بيئة مناسبة لشرعنة نفوذه، فبدأ بالعمل على توفير أجواء مناسبة للحياة التجارية بالموانئ المغربية تحت غطاء صحي، ومن أولى اهتماماته الحد من التسرب الوبائي الآتي من الحج، وقد سعى على إثر ذلك لاستحداث محجر صحي خاص بهذه الفئة، وذلك عبر فرض ضغوط على السفن الحاملة للحجاج، كإشارة للمخزن كي يستجيب لمطالبه، وبحكم علاقة المغرب القديمة بالمشرق عن طريق الحج، حيث الطريق الذي يتخذه الوباء لدخول للمغرب، كان يشكل نوعا من الحصانة والوقاية على حد سواء، فالمغاربة كانوا يقضون حوالي أربعة أشهر للعودة من الإسكندرية إلى بلادهم، وهي مدة طويلة يمضون قسما كبيرا منها في الصحراء وتحت شمس محرقة، بحيث كان الركب يتخلص من جميع الأفراد الموبوئين، غير أن المعطيات تغيرت بعد أن أصبحوا يستعملون الطريق البحري، الذي أدى إلى تقليص مدة السفر ب٣٠ أو ٤٠ يوما، قبل أن يزداد تقلصا مع ظهور السفن البخارية في عرض الشواطئ المغربية في حدود الخمسينات من القرن الماضي، وبذلك بات الحج المغربي إلى الديار المقدسة مصدر تهديد مستمر في غياب أضعف الوسائل الوقائية.

أمام هذا التطور على مستوى النقل والتنقل، كان لزاما على الهيئة القنصلية على مستوى ممثليها في المجلس الصحي الرفع من سقف اهتماماتهم بمسألة الوقاية الصحية على مستوى الواجهة البحرية، فتم وضع اللبنة الأولى لهذا التنظيم الخاص بالحج، وبالتالي عمل المجلس على إشعار زملائهم

في موانئ دول المشرق، وإلزام ربابنة السفن الذين ينقلون الحجاج بضرورة قضاء حجر صحي في إحدى المحطات قبل التوجه إلى المغرب، ومن بين تدخلاتها في هذا الشأن، أن قامت الهيئة الدبلوماسية بالإسكندرية بعدم تسليم جوازات صحية لطنجة وتطوان، حيث أصبح على الحجاج لزاما أن يقضوا حجرهم الصحي تنفيذا لقرار المجلس الصحي الدولي في المغرب .وبوضع الهيئة القنصلية هذا القانون، تكون قد توجت تدخلاتها في جانب من شؤون البلاد، وانتظمت بصفة رسمية داخل مجلس صحي دولي يمتد نشاطه إلى جميع المراسي التجارية .معنى هذا أن المغرب أصبح يعيش فيما يخص الجانب الصحي، تحت الوصاية الدولية حتى ولو لم يكن ممثلا فيها، مما ألحق مساسا كبيرا بسيادته، وقد وقفنا على رسائل مخزنية تنص على طريقة استقبال الحجاج والاتخاذ ما يلزم من الإجراءات، فقد جاء فيها :

"خديمنا الأرضى الحاج محمد بن العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، وصل كتابك بمباشرتك مع النواب أمر شؤون الحجاج عند رجوعهم ... بما يتعين الموافقة على إنزال الحجاج بعد تمام مدة الإقامة لهم بساحل البحر ... إن النواب المذكورين أرادوا إحداث بناء برج من أبراج طنجة ... وفاوضتك بأنك لا توافق على البناء بالبرج إلا بأمرنا الشريف ."..

نستنتج ما سبق الحضور القوي للدول الممثلة في المغرب، ومكانة طنجة كبوابة لاستقبال هؤلاء الممثلين، الشيء الذي انعكس على ملامحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأيضا خول للمدينة أن تكون الحزام الأمامي للمخزن، ولعب الوجه المشرق للمنطقة، وتغطية أعطاب المخزن وبنيته المشكلة له، إذ بالرغم من هذا، كان لضغط التسرب الأجنبي من خلال مؤسسة دار النيابة نتائج وخيمة على البلاد، بحيث من خلالها اكتسب مجموعة من الامتيازات التي ستخول له الشرعية الدولية مستقبلا .

فرانسيس همفريز بين عبد العزيز آل سعود وفيصل بن الحسين
٢٣/٢٢ فبراير ١٩٣٠

دراسة في دبلوماسية الوساطة

أ.د. جمال محمود حجر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية الأسبق

انتهى النزاع القائم بين عبد العزيز آل سعود والشريف حسين على الحجاز بانتصار عبد العزيز وضم الحجاز إلى ممتلكاته في عام ١٩٢٥. كما انتهى نزاع عبد العزيز مع الإخوان النجديين المتمردين على سياسته الودية تجاه بريطانيا بالقضاء عليهم في عام ١٩٢٩. وترتب على استسلام الإخوان، أن حُلت واحدة من المشاكل الرئيسة التي كانت تؤثر على أجواء العلاقات البريطانية ــ السعودية.

أما المسألة الرئيسة التي لم تكن قد وجدت حلاً بعد، فهي فشل الدبلوماسية البريطانية في العمل على تحقيق مصالحة بين السعوديين، الذين وضعوا أيديهم على الحجاز، والهاشميين الذين طردوا منه، رغم كثير من المحاولات التي بُذلت عبثا من جانب البريطانيين في هذا الاتجاه منذ عام ١٩٢٢.

وجاء تعيين سير جلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton، العارف بشخصية الملك عبد العزيز معرفة جيدة منذ أرسلته حكومته مبعوثا خاصا إلى الملك في عام ١٩٢٥، خطوة جيدة للوقوف على مستوى درجة الخصومة التي نشأت بين سلطان نجد (عبد العزيز آل سعود) وقتئذ والهاشميين (الملك حسين وأولاده علي وعبد الله وفيصل). وبعد أن أنهى كليتون مهمته الأولى في عام ١٩٢٥، جاء للتفاوض من جديد مع الملك عبد العزيز في مهمة أخرى استغرقت منه عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ بعدما صار عبد العزيز ملكا على الحجاز فضلا عن كونه سلطانا على نجد.

وخلافا لما تعثر في إنجازه أي مسؤول بريطاني آخر، تمكن كلايتون من الوصول إلى لُب المشاكل التي واجهت عبد العزيز؛ فقد وجده محاطا في بلاده بجيران من

الأعداء، الذين ترعاهم بريطانيا وتمولهم، في كل من العراق وشرق الأردن. ومن وجهة النظر البريطانية، فإن مثل هذا التوتر كان يعيق عملية إقامة علاقات ودية بين عبد العزيز والمسؤولين البريطانيين في تلك البلدان.

للأسباب السابقة، رأت بريطانيا أنّ تَعْيين سير جلبرت كلايتون في منصب المندوب السامي البريطاني في العراق، يمكن أن يكون علاجا دبلوماسيا ناجعا لتلك المشكلة العربية ــ العربية ذات الطابع السياسي. كان هدف الحكومة البريطانية يتمثل في محاولة إقناع الملك عبد العزيز آل سعود أن له صديقا بريطانيا في بغداد (كلايتون)، على غير ما كان سائدا من قبل، حيث كان ينظر دوما إلى المسؤولين البريطانيين هناك على أنهم أعداء. فقد استشعر عبد العزيز بعد تعيين كلايتون في منصب المندوب السامي في بغداد عام ١٩٢٩ أنه صار في مأمن، وأنه لم يعد يخشى الأخطار المحتملة من الأشراف الذين يحكمون في العراق، ولا من المسؤولين البريطانيين الذين يساندونهم هناك.

ومع هذا الإحساس بالاستقرار النسبي نحو الجيران، قرر عبد العزيز أن يعاقب قوات الإخوان الذين كانوا سندا له من قبل، والذين رأتهم بريطانيا خارجين على القانون في أراضيه المجاورة للحدود مع مناطق الانتداب البريطاني. وبدا وكأنه يسعى لضمان الاستقرار لنظامه في المقام الأول. وفي المقام الثاني، يسعى لكسب ود بريطانيا، وتأمين سلامة مصالحها في مناطق الانتداب في كل من العراق وشرق الأردن. ومن هنا بدأت الجهود الدبلوماسية البريطانية تُكثّف لإقامة جسور مع جيران عبد العزيز الهاشميين من أجل بناء علاقات أفضل. في هذه الظروف، وعلى غير ما كان متوقعا، تُوفي سير جلبرت كلايتون قبل شهرين من القضاء نهائيا على حركة تمرد الإخوان النجديين، وتُركت مهمته الدبلوماسية لسير فرانسيس هنري همفريز (١٨٧٩- ١٩٧١) Sir Francis Henry Humphreys المفوض السامي البريطاني الجديد في العراق (١٩٢٩-١٩٣٢)، لإنجاز ما لم يُتح للراحل كلايتون أن ينجزه من المصالحة بين الهاشميين والسعوديين.

كانت بريطانيا حريصة على تحقيق السلام والتفاهم بين العراق (الواقع تحت الانتداب) ونجد (التي انكسرت فيها شوكة معارضة الإخوان). بحيث صارت الأجواء أكثر ملاءمة من أي وقت مضى لتحقيق مثل ذلك التفاهم. فقد كانت جميع الأطراف المعنية حريصة

على التخفيف من حالة الفوضى والارتباك الجارية على أطراف حدود نجد الشمالية، نتيجة لظهور حكام الأسرة الهاشمية (التي كانت تحكم في الحجاز سابقا) في كل من العراق وشرق الأردن المجاورتين لنجد من ناحية، واشتداد الأزمة نتيجة وصول الإخوان في محيط هاتين الدولتين اللتين أُنْشئتا حديثا من ناحية أخرى، ووجود بريطانيا كدولة منتدبة عليهما منذ عام ١٩٢٢ من ناحية ثالثة. من هنا كانت بريطانيا طرفا مباشرا في الأزمة[1]، وحريصة على تعزيز التهدئة بين الأطراف المتشاكسة. أو كما علقت جريدة التايمز اللندنية في ١٨ يناير ١٩٣٠ " لدينا علاقات خاصة مع العراق، وهناك كذلك مصالح طبيعية لمواطنينا المسلمين في الهند وأفريقيا الراغبين في رؤية ازدهار الأرض المقدسة في مملكة الحجاز بعد أن يلتقي الملكان (فيصل وعبد العزيز). ولعل هذا يفسر الفائدة التي يرجوها العديد من الرجال الناطقين باللغة الإنجليزية، والذين وضعتهم ظروف الحرب أو التجارة أو السفر في اتصال مباشر مع العرب منذ عام ١٩١٤".[2]

الواقع أن العراقيين هم من اتخذوا المبادرة في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٩ لعقد مثل هذا اللقاء، حين كان الملك عبد العزيز يطارد عناصر الإخوان المتمردين في مناطق نجد الشمالية المجاورة للحدود مع العراق. وقتئذ. فقد كتب الدكتور ناجي السويدي (١٨٨٢-١٩٤٢) رئيس الوزراء العراقي (١٨ نوفمبر ١٩٢٩- ٢٣ مارس ١٩٣٠) بناء على تعليمات من الملك فيصل، رسالة عاجلة وسرية إلى المفوض السامي البريطاني في بغداد، يقول: "من الضروري في الوقت الحاضر تسوية المسائل العالقة بين العراق ونجد... لأن عبد العزيز مشغول الآن مع المتمردين قرب الحدود العراقية، وهذه فرصة جيدة لمقابلته"[3]. وفي وقت لاحق ذكر همفريز Humphreys أن فيصل كان "حريصا جدا على اغتنام هذه الفرصة لعمل مصالحة ودية مع جاره الملك عبد العزيز، وإنه مستعد للقائه ...".[4]

[1] حول نشأة الدولة القومية في العراق تحت الانتداب، ودور بريطانيا في ذلك، انظر: باسم جمال محمود، "الأقليات في العراق تحت الانتداب البريطاني١٩٢٠-١٩٣٢"، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد ٩، (يونيو ٢٠٢٠) ص ١٢٠- ١٣٩.

[2] The Times, 18 Feb. 1930.

[3] Iraqi Prime Minister to the High Commissioner, 28 Dec. 1929, E621/111/91. F.O. 371/14462.

[4] High commissioner (Baghdad) to C.O., 7 Jan. 1930, E111/111/91, F.O. 371/14462.

هكذا طلب ملك العراق من بريطانيا، أو هكذا بدا الأمر ظاهريا، توجيه الدعوة للملك عبد العزيز لعقد اجتماع شخصي بين الملكين (فيصل بن الحسين وعبد العزيز آل سعود).

وأوضح السويدي أن الملك فيصل كان "حريصا على تبديد أجواء عدم الثقة القائمة بين حكومتي العراق ونجد، واقترح أن يكون سير فرانسيس همفريز حاضرا". فقد كان هم الملك فيصل يتركز في تسوية مسألة الحدود العراقية مع نجد، واقترح لتحقيق ذلك برنامجًا من سبع نقاط، تُطرح على مائدة الحوار. تتلخص هذه النقاط فيما يلي:[1]

- التخلص من المتمردين النجديين اللاجئين في الأراضي العراقية؛
- العمل على إعادة المنهوبات التي استولى عليها المتمردون النجديون من العراقيين؛
- وقف تجاوزات المتمردين التي أدت إلى خرق المادة ٤ من اتفاقية بحرة في ١ نوفمبر ١٩٢٥؛
- عقد معاهدة لتسليم المجرمين؛
- عقد اتفاقية حسن جوار بين العراق ونجد؛
- مناقشة مسألة الاعتراف المتبادل بين البلدين؛
- النظر في تأمين نقاط الدفاع القائمة في الصحراء على الحدود بين البلدين.

ليس من المستغرب أن قدمت الحكومة البريطانية دعما عاجلا لعقد مثل هذا الاجتماع المقترح، وأكد همفريز ذلك حين قال: "حتى وإن فشل مثل هذا المؤتمر في حل أي من المسائل العالقة بين الطرفين، فإن الطريق سيصبح ممهدا لتحقيق فهم أفضل بين الطرفين من خلال الاتصال الشخصي المباشر" بين عبد العزيز آل سعود وفيصل بن الحسين.[2]

كانت مسألة اللاجئين النجديين في العراق أكثر المسائل إلحاحا على الإدارة البريطانية في العراق، ولهذا وُضِعت على رأس قائمة الموضوعات الطروحة للنقاش[3]. فقد كانت لندن تهدف إلى تحقيق بعض التقدم في هذه المسألة من أجل تشجيع أعداء الأمس على التقارب فيما بينهم والتعايش جنبا إلى جنب، ليتمكنوا من متابعة مناقشة المزيد من المسائل الصعبة وحلها في وقت لاحق،

[1] Jeddah Report, Jan. 1930, F.O. 371/14460.

[2] High Commissioner (Baghdad) to C.O., 29 Jan. 1930, E535/111/91, F.O. 371/14462.

[3] C.O. to F.O., 8 Jan. 1930, E133/1/91, F.O. 371/14449.

وإقناع الطرفين بأن لا شيء مستحيل، وأن إمكانية خلق أجواء من الصداقة وحسن الجوار يمكن أن تتحقق في نهاية المطاف. ووفقا لتلك الاستراتيجية، قرر البريطانيون طرح مسألة اللاجئين النجديين للمناقشة في اجتماع تمهيدي خاص في الكويت في أواخر فبراير ١٩٢٩، يضم ممثلين من العراق ونجد. وعلى الرغم من تعثر اتخاذ أية قرارات في هذا الاجتماع التمهيدي بشأن هذه المسألة الحساسة، فقد أفاد اللقاء في توضيح وجهات نظر الطرفين.[١]

ولعل من اللافت للانتباه أن تلقى فكرة مبادرة السلام العراقية ترحيبا واضحا من الملك عبدالعزيز في فبراير ١٩٣٠[٢]. وكان لهذا الترحيب نتائج إيجابية يسرت على المسؤولين البريطانيين في كل من الشرق الأوسط ولندن السير في طريق رعاية مبادرة السلام رعاية نشطة، ترتب عليها سلسلة من الاتصالات، تناولت السياسات والترتيبات العملية التي ستقع على عاتق الوزارات البريطانية المعنية وهي وزارات الخارجية، والمستعمرات، والهند، والأدميرالية. بما كان يجري في تلك المنطقة المضطربة من الشرق الأوسط.

في هذه الأجواء التفاؤلية، جرى البحث بعناية بين البريطانيين عن اختيار مكان مناسب لعقد هذا اللقاء الملكي بين الزعيمين العربيين. وانتهى الأمر إلى أن يتم اللقاء على أرض محايدة، وليكن ذلك على متن سفينة بريطانية. ووفقا لذلك الترتيب، وجب على الأدميرالية أن توفر تلك السفينة وكذلك وسائل النقل البحري بينها وبين الشاطئ.

وفي سياق الاستعدادات، واستكمالا لشكل هذه المنظومة الاحتفالية، وافق المفوض السامي البريطاني على شراء هدايا للملكين من أموال الخدمة السرية البريطانية[٣]. وهكذا تم التحضير للاجتماع بسرعة وسلاسة. وبدا واضحا أن بريطانيا كانت وراء فكرة اقناع الملك فيصل بتوجيه الدعوة لعقد هذا المؤتمر.[٤] ومهما يكن من أمر، فإن حجم الاستعدادات التي جرت لا يعني أن بريطانيا كانت تتوقع اتفاقا تاما، أو حلولا جذرية لكل المسائل المطروحة في هذه القضية العربية

---

[1] Jeddah Report, Jan. and Feb. 1930, F.O. 371/14460; High Commissioner (Baghdad) to C.O. 29 Jan. 1930, E535/111/91, F.O. 371/14462.

[2] C.O. to F.O., 15 Feb. 1930, E854/111, 91, F.O. 371/14462.

[3] Humphreys (Baghdad) to C.O., 6 Feb. 1930, C.O. to F.O. 7 Feb. 1930, E704/91, F.O. 371/14462; C.O. to Humphreys 12 Feb. 1930, C.O. to F.O. 14 Feb. 1930, E893/111/91, F.O. 371/14473.

[٤] **المنار**، العدد ٣٠ (١٩٢٩- ١٩٣٠) ص ٦٣٦

الشائكة، ولكنها كانت تسعى لكسر الحواجز بين الطرفين، وتقريب وجهات النظر بحيث يصير في وسعهما التواصل مباشرة، وتحقيق شيء من الاستقرار في مناطق الانتداب، كي لا تُتهم بريطانيا بالفشل في إدارة تلك المناطق أمام عصبة الأمم.

استبشرت صحيفة التايمز اللندنية خيرا حين علقت على المؤتمر بتفاؤل قائلة: " لعل التميز وسحر الشخصية... جعل من المؤكد أن كل طرف سيغادر اللقاء مع تقدير حار لصفات منافسه ... وإذا لم يتحقق غير هذا ... فإن ما يمكن الحصول عليه بعد ذلك كثير".[1] كما أشادت التايمز بمبادرة الملك فيصل حين كتبت تقول: "مهما كانت نتيجة حواراتهم، فإن أصدقاء السلام سيذكرون بامتنان مبادرة الملك فيصل بتنحية النزاع العائلي طويل الأمد جانبا من أجل تحقيق مصالح أوسع لمملكتة".[2] وكان همفريز قد وصل إلى نتيجة مماثلة عندما أشار إلى أن ما يمكن أن يتفق عليه الطرفان لن يكون بأي حال ضارا بالمصالح البريطانية في المنطقة.[3]

[1] The Times, 18 Jan. 1930.

[2] Ibid.

[3] Humphreys (Baghdad) to C.O., 16 Feb. 1930, E894/111/91, F.O. 371/14462.

استقر الأمر في بغداد على أن يتكون فريق المستشارين الذي سيرافق الملك فيصل من كل من: ناجي السويدي (رئيس مجلس الوزراء العراقي)؛ وسير فرانسيس همفريز (المفوض السامي البريطاني؛ وكيناهان كورنواليس (١٨٨٣- ١٩٥٩) Cornwallis (مستشار وزارة الداخلية العراقية منذ تأسيس أول حكومة عراقية في عهد الملك فيصل ١٩٢١-١٩٣٥)؛ وهولت Holt (الوزير الشرقي)؛ والسير جون باجوت جلوب (١٨٩٧- ١٩٨٦) Glubb (المفتش الإداري للصحراء الجنوبية)[4]. وضع هؤلاء المستشارون مجموعة من المبادئ التوجيهية التي تعكس مرونة الجانب العراقي، والتي تتمثل فيما يلي:

١. الحكومة العراقية مستعدة لقبول التحكيم بشأن مسألة نقاط الحماية الحدودية.

٢. الملك فيصل مستعد لإقناع الملك عبد العزيز بقبول فكرة وجود محكمة للفصل في المسائل الخلافية بين القبائل على جانبي الحدود.

[4] The Times, 14 Feb. 1930.

٣. الملك فيصل مستعد للاعتراف بعبد العزيز آل سعود ملكا على الحجاز.[1]

جرى التجهيز للقاء الملكين في عرض البحر على متن السفينة الملكية لوبين Lupin H.M.S.، على بعد حوالي ١٥ ميلا من مدخل شط العرب يومي ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٣٠. وخُصصت السفينة البريطانية البخارية "باتريك ستيوارت" Stewart Patrick لإحضار الملك عبد العزيز وحاشيته المكونة من ١١٨ فردا من ميناء رأس تنورة إلى حيث ترسو السفينة الملكية لوبين. كان الملك عبد العزيز أول من قدم إلى السفينة الملكية لوبين يرافقه اثنان من وزرائه الرئيسين، هما حافظ وهبة (١٨٨٩- ١٩٦٧) مستشاره السياسي ووزيره المفوض إلى لندن منذ عام ١٩٣٠، وفؤاد حمزة (١٨٩٩- ١٩٥٢) مدير الشؤن الخارجية للملك عبد العزيز اعتبارا من عام ١٩٢٨ وسكرتيره الخاص، ومعهما يوسف ياسين (ت ١٩٦٢) مدير صحيفة أم القرى ومستشار الملك عبد العزيز، وثلاثة آخرون. بينما حضر الملك فيصل على متن سفينة عراقية إلى حيث تقف السفينة الملكية لوبين وبصحبته حاشية مكونة من اثني عشر فردا، من بينهم رئيس وزرائه ناجي السويدي.

وبدأت المواجهة عندما جاء همفريز بالملكين معا ليواجه كل منهما الآخر لأول مرة، "فنظر كل منهما إلى الآخر بمزيج من الفضول والشك، ولكنهما احتفظا ظاهريا بشيء من الود الذي تفرضه التقاليد العربية".[2] رحب همفريز نيابة عن الحكومة البريطانية بالملكين، وبدأ في اتخاذ الإجراءات الأولية لعقد الاجتماع. وهنا أعرب الملكان عن تقديرهما للمساعي البريطانية الحميدة لتعزيز قضية الصداقة بين البلدين العربيين.

وخلافا لما سبق الترتيب له، ألقى الملك فيصل بيانًا مطولًا حول الظروف التي أدت إلى الأزمة في العلاقات بين العراق ونجد. استمع الملك عبد العزيز إلى هذا البيان "بصبر وظل صامتا". وأفادت التقارير أنه لم يكن يرغب في أن يكون هذا الاجتماع الودي مشوبا بطرح مناقشات مثيرة للجدل. وأنه قد قبل الدعوة لاجتماع ودي، وأنه لن تكون هناك أية مناقشات رسمية، فالغرض من الاجتماع تهيئة الفرصة لكل منهما ليتعرف على الآخر. فهم همفريز، بذكائه الدبلوماسي، أن صمت الملك

---

[1] Humphreys to C.O., 20 Feb. 1930 ،E966/111/91, F.O. 371/14462.

[2] Humphreys to Passfield (C.O.) 15 March 1930, E2171/111/91, F.O. 371/14463.

عبد العزيز هذا يعني أن الملك ليس لديه نية للتفاوض حول التفاصيل في حضور أعضاء الوفود. وبناء عليه، رتب همفريز لمغادرة المندوبين وترك الملكين وحدهما في معيته.

عندئذ "فتح كل من الملكين قلبه للآخر، واقتصر الحوار بينهما على مناقشة المبادئ".[1] في الوقت نفسه، شكل ممثلو الجانبين لجنة لمناقشة تفاصيل المسائل العالقة.[2]

وفي اليوم التالي، تم استئناف اللقاء، وبدأ الملكان، بحضور همفريز، مناقشة مسألة الحصون المقامة على الحدود العراقية - النجدية. ورفض الملك عبد العزيز اقتراحا بأن تتولى بريطانيا دور المحكم في النزاع بين الطرفين في هذا الأمر تحديدا، لأنها هي التي أنشأت تلك الحصون، وهي القائمة على تفعيلها. وبرر رفضه بأنه طالما أن الحكومة البريطانية سبق وأعلنت بالفعل وجهة نظرها بشأن تفسير المادة ٣ من بروتوكول العقير (٢ ديسمبر ١٩٢٢)، فإن أي محكّم ترشحه بريطانيا سيطرح وجهة النظر الأصلية نفسها، ولن يكون قادرا على التعامل مع هذه المسألة بعقل مفتوح، وبالطبع لن يكون محايدا.[3]

بدلا من ذلك الاقتراح الذي يوحي بأنه تم بالتنسيق بين الطرفين البريطاني والعراقي، اقترح الملك عبد العزيز أن يكون رئيس هيئة التحكيم عربيا، ولكن الملك فيصل لم يقبل بهذا الاقتراح، وانسحب من الجلسة، تاركا همفريز وحده مع عبد العزيز. وأسفر هذا الاجتماع الخاص عن التوصل إلى حل وسط، اقترحه الملك عبد العزيز نفسه، ويقضي بأن ترشح بريطانيا المحكم، بشرط أن تحاول "الأطراف المعنية مرة أخرى خلال الأشهر الستة المقبلة التوصل إلى حل يقبله الجانبان".[4] تم قبول هذا الاقتراح، وجرى تبادل الرسائل بين الملكين وفقا لذلك، وإذا فشل الطرفان في التوصل إلى اتفاق، فإن لكل طرف حق تعيين عضوين اثنين يمثلانه في اللجنة التي ستتولى التحكيم، وإذا لم يتوصل الطرفان إلى حل، فإن عليهما أن يتعهدا بالموافقة على أي شخص تعينه بريطانيا لرئاسة لجنة التحكيم".[5]

توقعت لندن أن يرفض الملك عبد العزيز

---

[1] ليس لدى الباحث أية تفاصيل عما جرى في هذا الاجتماع المغلق.

[2] Ibid; The Times, 25 Feb. 1930.

[3] Humphreys to Passfield, 15 March 1930 ،op. cit.

[4] Ibid.

[5] Jeddah Report, Feb. 1930, F.O. 371/14460. See also : Humphreys to C.O. 23 Feb. 1930, E1076/111/91, F.O. 371/14463; Humphreys to C.O. 24 Feb. 1930, 79006, C.O. 732/42.

الاقتـراح الأول للتحكـيم. وكـان جـورج رنـدل G. Rendel (رئـيس دائـرة الشـرق فـي وزارة الخارجيـة البريطانيـة ١٩٣٠- ١٩٣٨) قـد سـجل فـي ٢١ فبراير ١٩٣٠، أي قبل يـوم واحد فقـط من لقاء الملكين، أن الملك عبد العزيز كان طموحا، وأنه "لم يسحب أبدا طلبه الرسمي بشأن التعامل مع عدم قانونية مواقع الحصون الحدودية، بل طالب كذلك بالنظر في إمكانية تعديل الحدود". وفي حال حافظ الملك على تبني هذا الموقف، قال رندل: "قد نجد أنفسنا مرغمين على دعم وجهة نظر العراق"[1]. وعلى انفراد أكد عبد العزيز لهمفريز أنه "لا ينبغي عمل أي شيء للتدخل في مسألة الحماية المناسبة لخط أنابيب النفط العابر للصحراء"، وأقر بأن القلاع الحدودية "ليست مؤذية بدرجة كبيرة" لنجد، لكنه ظل معارضا لها لأنه كان قد تعهد لشعبه بعدم قبول وجود تلك القلاع، وأنه "لا يمكن أن يرجع في كلمة وعد بها"[2]. كان الملك يأمل في أن تُحل هذه المسألة في غضون ستة أشهر.

كان البند التالي على جدول الأعمال هو مسألة التخلص من ابن مشهور، آخر قادة الإخوان النجديين المتمردين الهاربين إلى العراق والباقين فيه. وكان قد سبق لهمفريز نفسه أن أثار نقاشًا حول هذا الموضوع في بغداد، حينها أخبره الملك فيصل، أنه ليس في حاجة إلى أي مساعدة من المفوض السامي في هذه المسألة، لأنها تجري في سياق من التقاليد العربية، وأنه يشعر بالثقة في أنه سيكسب النقاش مع عبد العزيز حول هذا الموضوع لأن كلاهما يعرف تلك التقاليد جيدا. وتفاديا للجدل، أعلن الملك فيصل أن المسؤولية في الاجتماعْ تقع على عاتق سلطة الانتداب. ولكن همفريز كرر مقولة أن أمر استسلام ابن مشهور لم يسبق لأي مسؤول بريطاني في حكومة صاحب الجلالة أن وعد به، وأن هذه المسألة يجب أن تُسوى بين الملكين عبد العزيز وفيصل. وفي محاولة لكسر الجمود جاء همفريز بالملكين معا لمناقشة المسألة من جديد. وفي نهاية المطاف، وافق الملك عبد العزيز على مبدأ العفو عن ابن مشهور، بينما أصر (الملك) فيصل على أن يترك ابن مشهور الأراضي العراقية "[3]. وفي هذا الإطار، تم

[1] Minute by Rendel 21 Feb. 1930, E966/111/91, F.O. 371/14463.

[2] Humphreys to passfieid, 15 March 1930 ،op. cit.

[3] Quotes from :Ibid. See also; Humphreys to C.O., 23 Feb. 1930 E1076/111/91, F.O. 371/14463.

ترحيل ابن مشهور إلى سوريا، وعفي عنه الملك عبد العزيز لاحقا. وفي نهاية المطاف، عاد ابن مشهور إلى موطنه نجد عام ١٩٣١.[١]

تتعلق آخر المسائل المهمة التي ناقشها الملكان بالمطالبات التي رفعها كل طرف ضد الطرف الآخر نتيجة الغارات والغارات المضادة في الفترة السابقة، بدءا من الغارة التي شنها فيصل الدويش وأتباعه من الإخوان، المتمردين ضد عبد العزيز آل سعود، على حصن البوصية Busaiyah الحدودي مع العراق في نوفمبر ١٩٢٧. وبعد تردد من جانب الملك عبد العزيز تم الاتفاق على أن يتولى ممثل بريطانيا رئاسة المحكمة التي سيتم تشكيلها بموجب المادة الثانية من اتفاقية بحرة، وللمحكمة أن تجتمع في الكويت في شهر يونيو التالي.[٢] وعلى الرغم من أن عبد العزيز قد أبدى بالفعل استعداده في ٢٧ يناير ١٩٣٠ على تسوية المطالبات الناشئة عن الغارات السابقة، إلا أنه أبلغ همفريز على انفراد أن "ليس لديه ثقة في قدرة المحكمة على التوصل إلى تسوية مُرضية لكلا الطرفين. وحرص همفريز على إقناع الملك فيصل بأن يكون مستعدا لدفع مبلغ معقول من المال لأجل التوصل إلى تسوية نهائية لجميع المطالبات[٣]. ووعد همفريز بالنظر في هذا الاقتراح لدى عودته إلى بغداد، لأن مثل هذه الخطوة تجنب الوسيط البريطاني كثيرا من الجدل.

في غضون ذلك، تمكنت لجنة من الوزراء من إعداد مشروع اتفاقية حسن الجوار، التي وافق الملكان عليها من حيث المبدأ. فقد أقر هذا المشروع الاعتراف بعبد العزيز ملكا على "الحجاز ونجد" وبفيصل ملكا على العراق. وعلاوة على ذلك، يتبادل الطرفان البعثات الدبلوماسية. تم قبول هذا المشروع فقط كأساس لاتفاق مبدئي، يؤدي في النهاية إلى اتفاق رسمي يتم إنجازه خلال ثلاثة أشهر.[٤] تسبب مشروع الاتفاقية في بعض المناقشات العاصفة. وعلى الرغم من أن فيصل وافق من حيث المبدأ على الاعتراف بعبد العزيز ملكا، إلا إنه لم يكن مستعدا لاتخاذ عبد العزيز لقب "ملك الحجاز" كلقب رسمي.

---

[١] السوداني، العلاقات العراقية - السعودية ١٩٢٠- ١٩٣١، ص ٣٤٠

[2] Jeddah Report, Feb. 1930, F.O. 371/14460.

[3] Humphreys to Passfield, 15 March 1930 ،op. cit.

[4] Ibid.

وتبين أن فيصل كان "غاضبا من رئيس وزرائه بسبب التنازل الذي قدمه في المسودة كمبدأ للاعتراف المتبادل، والذي كان من المفترض رفضه منذ البداية في معاهدة حسن الجوار، ورفض بشكل قاطع التوقيع على خطاب حسن النوايا".[1] وأدت وساطة همفريز في النهاية إلى أن وقَّع فيصل على الخطاب بعد حذف الصفة الرسمية لعبد العزيز كملك على الحجاز، وبدلا منها خاطبه بـ "أخي العزيز".

على الرغم من أن اجتماع الملكين استمر لمدة يومين فقط، إلا أنه نجح في طرح جميع المسائل العالقة. وتم التوصل إلى اتفاقات أولية حول كثير من الأمور، ولكنه لم ينجح في حل أي من المسائل المطروحة بشكل نهائي. لقد انتهى المؤتمر على وعد بتحقيق أهداف الطرفين في غضون الأشهر الستة التالية.[2] وقد اعتبر عبد العزيز المؤتمر انتصارا له، إذ كتب إلى همفريز أثناء العودة عن طريق الوكيل السياسي في البحرين، معربا عن امتنانه له شخصيا وللحكومة البريطانية، وطالب بتفعيل الاتفاقات المبرمة على متن السفينة "لوبين" وخاصة تلك المعنية بالاعتراف المتبادل.[3] وردا على ذلك أعرب همفريز عن أمله في أن "يمهد الاجتماع الطريق لعلاقات الصداقة الدائمة بين الملكين وأن يتم التوصل إلى تسوية مرضية لجميع المسائل المعلقة".[4]

وإلى جانب ما تحقق من إنجازات لعبد العزيز، كان المؤتمر انتصارا كبيرا لهمفريز، ونجاحا ملحوظا للسياسة البريطانية. فقد انتهت حقبة من العداء والكراهية، فتحت عهدا جديدا من الصداقة بين البلدين، وكان ذلك مَعْلَمًا مهما في تاريخ الجزيرة العربية، أو كما قال فيصل بن الحسين عندما صافح عبد العزيز آل سعود لأول مرة: "أنا الآن فيصل بن الحسين يتحدث إلى عبد العزيز آل سعود، أنا ملك العراق وأنت ملك الحجاز و نجد ... ".[5]

لقد كان فيصل يحاول عمدًا نسيان ذكريات الخلاف السابق بين العائلتين السعودية والهاشمية. وليس من

[1] Ibid.

[2] Ibid.

[3] Ibn Saud to Humphreys, 26 Feb. 1930, E2171/111/91, F.O. 371/14463.

[4] Humphreys to Ibn Saud, 27 Feb. 1930 ،op. cit. Humphreys wrote a similar letter to King Faisal on 28 Feb. 1930, E1778/111/91, F.O. 371/14463.

[5] صادق حسن السوداني، العلاقات العراقية السعودية ١٩٢٠- ١٩٣١، ص ٣٣٦.

المستغرب أن يتلقى التهنئة من الحكومة البريطانية على بعد نظره ومرونته في هذا اللقاء. وتلقى همفريز رسالة شكر من وزارة المستعمرات المعنية بمناطق الانتداب على الوصول بالمؤتمر إلى نهاية ناجحة.[1] أما الحكومة البريطانية فكانت ممتنة لهذا الإنجاز غير المتوقع، والذي وصفته بأنه "لا يصدق".

ومع ذلك، لم يمر المؤتمر من دون نقد، فبعض الذين عاصروا الخلاف الطويل بين السعوديين والهاشميين، قللوا من شأن نتائج المؤتمر التي توقعوا لها الفشل. وبالفعل، فعلى الرغم من تميز المؤتمر في تحقيق كثير من الود بين الطرفين المتشاكسين، واصل عبد العزيز في محادثاته الخاصة مع همفريز التعبير عن عدم ثقته في فيصل.[2] كان همفريز يدرك تماما أن عبد العزيز وفيصل ينظران إلى بعضهما نظرات شك وريبة، لكنه كان لا يزال واثقا من أنه حتى لو لم يتم تحقيق الكثير، فسيكون كل ملك أكثر استعدادا في المستقبل لتقريب المسافات وتلبية وجهة نظر الطرف الآخر".[3]

[1] C.O. to Humphreys, 27 Feb. 1930, 79006, C.O. 732/42.

[2] Jeddah Report, Feb. 1930, F.O. 371/14460.

[3] Humphreys to Passfield, 15 March 1930, E2171/111/91, F.O. 371/14463

ولعل همفريز كان على صواب في هذا التوصيف.

ومن بين أفضل المؤهلين للتعليق على ما جرى في هذا اللقاء بين الملكين، يأتي جورج أنطونيوس (١٨٩١- ١٩٤٢) George Antonius في المقدمة بما لديه من المعارف والخبرات العربية، إذ أعرب في رسالة الى صحيفة التايمز اللندنية في ٢٦ فبراير، ونشرته في ٢٨ منه قائلا: إن كل الباحثين وأصدقاء العرب سيكونون ممتنين لما تم إنجازه في المؤتمر الذي عقد مؤخرا على متن السفينة البريطانية لوبين. ولعل أهمية هذا المؤتمر لا تكمن فقط في النتائج والأوراق التي صدرت عنه، ولكن كذلك في ما تعد به في المستقبل، أي في إنشاء اتصال مباشر وودي بين ملك العراق وجاره الملك الوهابي. وأضاف أنطونيوس: "إن هذا المؤتمر يبشر بعصر جديد لتحقيق فهم أفضل لابد منه الآن أكثر من أي وقت مضى، لأنه يتوافق مع ذكرى الراحل سير جلبرت كلايتون، الذي خطط لمشروع المصالحة بين الملكين في خريف عام ١٩٢٥، وقت اختتام أول زيارة له بصفته وزيرا مفوضا لبريطانيا لدى حاكم نجد".[4]

[4] The Times, 28 Feb. 1930.

وعلى الرغم من أن الصحافة البريطانية والعراقية أظهرت بشكل بارز أخبار المؤتمر، فإن صحيفة "أم القرى" الحجازية لم تعلق عليه إلا بعد مرور أكثر من سبعة أشهر، ففي أكتوبر اعترفت أم القرى بأن العراقيين كانوا ودودين للغاية تجاه نجد، وقد تجلى هذا الود من خلال التهاني التي تلقاها الملك عبد العزيز عقب انتصاره على الإخوان، ومن خلال توجيه الدعوة لعقد مؤتمر الملكين.[1] وقد فسر بوند W.L Bond (الوكيل البريطاني في جدة) صمت أم القرى الطويل بأنه "مخيب للآمال، ويدفع إلى الميل إلى إثارة الشكوك فيما يتعلق بصدق الدوافع التي دفعت الملك عبدالعزيز إلى حضور الاجتماع، أو قد تفسر على أنها الرغبة في نسيان حلقة من حلقات السياسة العربية".[2]

لم يكن لتشاؤم بوند ما يبرره، فالعلاقات بين الطرفين بعد المؤتمر تحسنت باطراد، وجاء أول دليل ملموس على ذلك في ٩ مارس ١٩٣١، عندما التقى مندوبو العراق ونجد في بغداد لوضع التصور المبدئي لاتفاق حسن الجوار بين البلدين، الذي تم التوقيع عليه في مكة المكرمة في ٧ إبريل ١٩٣١. وتبع ذلك أدلة أخرى في مايو، عندما بدأ البلدان المفاوضات حول معاهدة تسليم المجرمين، التي تم التوقيع عليها في ٨ أبريل ١٩٣١ في مكة المكرمة.[3] كان هذا في الواقع إنجازا هائلا. فبريطانيا لم تلعب دورا مباشرا في هذه الإجراءات وإن كانت قد مهدت الطريق إليها، تاركة الفرصة كي تأخذ الأحداث مجراها كما خُطط لها. لقد كان هدف بريطانيا الرئيس يتمثل في تسوية الخلافات بين عبد الله وعبدالعزيز لتحمي مصالحها في المنطقة وتحسن صورتها في عيون العرب، ولتحقيق ذلك مارس البريطانيون مستوى عال من مهارات دبلوماسية الوساطة.

[1] أم القرى، العدد ٣٠٨، ٣١ أكتوبر ١٩٣٠.

[2] Jeddah Report, March, 1930, F.O. 371/14460.

[3] F.O. 371/14477; C.O. 732/44.

مخاطر الحفر غير الشرعي على مواقع التراث الثقافي

ريهام محمود زكي السيد

باحث دكتوراه

كلية الدراسات والبحوث الأفريقية العليا

جامعة القاهرة

ملخص:

دائماً ما يقع التراث الثقافي ضحية الأزمات سواء الطبيعية أو البشرية، فحماية وحفظ التراث قد لا تكون ذات الأولوية للدول والمجتمعات وقت الأزمات. ويزداد الضرر في حالة الأزمات التي تستغرق وقتاً طويلاً - مثل النزاع المسلح وعدم إحكام القبضة الأمنية على المواقع الأثرية. وهنا يصبح الضرر أكبر، وعلى المدى الطويل، كما قد يصعب رصده وتوثيقه وبالتالي معالجة آثاره. ويتنوع هذا الضرر الواقع على المواقع الأثرية، مثل: التعديات على حرم المنطقة الأثرية سواء بالحفر للتنقيب غير الشرعي عن الآثار، أو بالزراعة أو بالبناء أو بالتحجير أو حتى بالتدمير عن طريق إنتزاع العناصر المعمارية أو الزخرفية من الموقع.

تلقى هذه الورقة البحثية الضوء على ظاهرة الحفر غير الشرعي، الأسباب والدوافع، ومدى خطورتها على المواقع الأثرية من خلال دراسة وتتبع بعض الحالات كنموذج، بالإضافة إلى تسليط الضوء على الجهود الدولية المبذولة لإسترداد بعض القطع المسروقة من المواقع الأثرية ناتج أعمال الحفر غير الشرعي، في ضوء إتفاقية اليونسكو الخاصة بالتدابير اللازمة لحظر تداول ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطريقة غير مشروعة (باريس ١٩٧٠).

كلمات مفتاحية:

الحفر غير الشرعي- آليات الاسترداد - إتفاقية اليونسكو ١٩٧٠ - تجارة الممتلكات الثقافية.

Illicit digging in cultural heritage sites

Reham Mahmoud Zaky El Sayed

PhD candidate, Post Graduate Faculty of African Studies, Cairo University

Abstract:

Cultural heritage is victimized by natural and human crises as it could not be a first priority for governments during crisis. As a result, cultural heritage faces increasing damages, especially during the long period crises like armed conflicts and lake of security in the archaeological sites. On the long term, it is hard to monitor, document and restore the damages. Damages on archaeological sites could be: encroachments by illicit digging for antiquities, agriculture, modern buildings, quarrying or even sabotage and removing architectural elements from archaeological site.

This paper discusses illicit digging, its motivations and consequences on archaeological sites through some case studies as an example, in addition to highlight international efforts to repatriate some stolen objects from archaeological sites as a result of illicit digging according to UNESCO Convention on the Means of Prohibiting and Preventing the Illicit Import, Export and Transfer of Ownership of Cultural Property (Paris 1970).

Keywords:

Illicit digging – cultural heritage repatriation – UNESCO 1970 – Cultural Heritage trade.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على الآثار السلبية للحفر غير الشرعي في مواقع التراث الثقافي، مع تتبع أسباب هذه الظاهرة، وكيفية رصدها في مواقع التراث الثقافي- لا سيما المواقع الأثرية- مع تقييم آثارها السلبية على المدى القريب والبعيد، لا سيما على الجانبين الإجتماعي والإقتصادي.

أهمية البحث:

نظراً لتعرض الكثير من مواقع التراث الثقافي للعديد من الظواهر السلبية - ومنها الحفر غير الشرعي وإرتباطه بتجارة الممتلكات الثقافية وتهريبها - فيلقي البحث الضوء على الحفر الغير الشرعي من خلال تحليل الظاهرة، وأسبابها، وتتبعها من خلال بعض النماذج، والدراسات السابقة التي تناولتها.

إشكالية البحث:

يناقش البحث خطورة الحفر غير الشرعي على مواقع التراث الثقافي، وما هى مظاهر هذه الخطورة؟ وآثارها، وكيفية رصدها؟

مقدمة: التراث الثقافي وقت الأزمات

دائماً ما يقع التراث الثقافي ضحية الأزمات سواء الطبيعية مثل الزلازل والبراكين والتسونامي أو الكوارث البشرية مثل الحروب والنزاعات المسلحة، فحماية وحفظ التراث قد لا تكون ذات الأولوية للدول والمجتمعات وقت الأزمات. ويزداد الضرر في حالة الأزمات التي تستغرق وقتاً طويلاً - مثل الأزمات السياسية وعدم إحكام القبضة الأمنية على المواقع الأثرية. وهنا يصبح الضرر أكبر، وعلى المدى الطويل، كما قد يصعب رصده وتوثيقه وبالتالي معالجة آثاره[1].

ويتنوع هذا الضرر الواقع على المواقع الأثرية، مثل: التعديات على حرم المنطقة الأثرية سواء بالحفر للتنقيب غير الشرعي عن الآثار، أو بالزراعة أو بالبناء أو بالتحجير[2] أو حتى بالتدمير عن طريق إنتزاع العناصر المعمارية أو الزخرفية من الموقع. وفي وقت الأزمات يكون من الصعب السيطرة على المواقع الأثرية وحمايتها من هذه التعديات، كما - في بعض الأوقات- لا يمكن ملاحظة أو تتبع هذا الضرر إلا بعد فترة وبعد حدوث الضرر بالفعل. وهنا تظهر أهمية رفع الوعي الثقافي والأثري

---

[1] Ikram, S. et al.(2013). Threats to cultural heritage. *ARCE Bulletin* 202. pp. 33- 47

[2] Holmes, D. L.(1992). Archaeological Cultural Resources and Modern Land-use Activities: Some Observations Made during a Recent Survey in the Badari Region, Egypt. *Journal of the American Research Center in Egypt* 29. pp. 67-80

للمجتمع المحلي بجميع فئاته للمحافظة على التراث الثقافي للأجيال القادمة خاصة حينما توجد مواقع التراث الثقافي في وسط ومحيط المدن والقرى السكانية المحلية حيث يكون هناك إتصالاً مباشراً بين الأثر والبشر. وقد أظهرت السنوات الأخيرة مدى ما يتعرض له التراث الثقافي من أخطار جسيمة، وأضرار قد لا يمكن إصلاحها أو حتى التخفيف منها.

الحفر غير الشرعي: الظاهرة وأصلها

يعتبر الحفر خلسة غير الشرعي من أهم التهديدات التي تواجه مواقع التراث الثقافي، وأخطرها. وهى ظاهرة معروفة منذ العصور القديمة حيث كان ولا يزال البحث والتنقيب عن الكنوز القديمة حلماً يراود الكثيرين من أجل تحقيق الربح المادي السهل السريع. ولعل أقدم الأمثلة هى سرقات المقابر المصرية القديمة خلال عصر الإنتقال الثالث في عصر الملك رمسيس التاسع حيث تذكر لنا "بردية أبوت" (*Abbott Papyrus*)[1] المعروفة أيضاً باسم "بردية سرقات المقابر" عن قيام لصوص المقابر بسرقة محتوياتها. استمرت هذه الظاهرة خلال العصور اللاحقة ولعل مثل هذه السرقات تبرر لنا عدم العثور على الجزء الأكبر من كنوز فراعنة مصر العظام.

كما تذكر المصادر القديمة قيام عدد من الملوك والحكام خلال العصور الإسلامية أمثال الخليفة العباسي المأمون الذي حاول دخول الهرم الأكبر (المدخل المستخدم حالياً لدخول الهرم الأكبر هو الذي أقامه الخليفة المأمون)، كذلك أحمد بن طولون الذي حالفه الحظ في العثور على عدد كبير من ذهب الفراعنة، وقام بصهره وإعادة صبه لسك ديناره الشهير، المعروف باسم "الدينار الأحمدي". فقد ظهر في عصره ما يسمى بـ ''المطالب'' ويقصد به البحث في مقابر الفراعنة عن مقتنياتهم الذهبية، وعثر في تلك الفترة على كميات كبيرة من المشغولات الذهبية. وحسب بعض الروايات التاريخية فإن ابن طولون اهتم بتجويد دنانيره استجابة لتحدي كتابة هيروغليفية عثر عليها في كنز قديم وكان صاحبها ملك يباهي نظراءه بجودة ذهبه[2].

---

[1] بردية أبوت محفوظة في المتحف البريطاني تحت رقم EA10221,1، انظر: https://www.britishmuseum.org/research/collection_online/collection_object_details.aspx?objectId=117400&partId=1 (accessed: 15th March 2018)

[2] أحمد الصاوي: الدينار الأحمدي فخر الدولة الطولونية، الإتحاد، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٧

=

ولعل كنوز الملك الصغير توت عنخ أمون (أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر) تعد دليلاً على مدى غنى المقابر الملكية المصرية بالكنوز الذهبية، فإذا كانت كل هذه الكنوز لهذا الملك صغير السن، فكيف سيكون الحال مع أحد الفراعنة العظام مثل تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني؟

ولم يقتصر الأمر على استغلال ذهب الفراعنة في العصور الإسلامية، بل استمر واشتدت وطأته مع قدوم الأوربيين إلى مصر حيث الحملة الفرنسية (١٧٩٨- ١٨٠١)، وإهتمامهم بالآثار المصرية التي أثارت شغفهم، وإزداد هذا الشغف مع فك رموز الكتابة المصرية القديمة على يد الفرنسي شامبليون. وتوالت أعمال التنقيب الأوربية في مصر ليس فقط للتنقيب عن الذهب، ولكن كان يتم ملىء الصناديق بالآثار المصرية سواء القطع الحجرية كأجزاء معمارية من المقابر أو المعابد المصرية، أو اللقى الأثرية المنقولة. وكانت تجارة الآثار نشاطاً مزدهراً خلال القرن التاسع عشر[١]، ومن أشهر العائلات المصرية التي عملت في الحفر والتنقيب وبيع وتجارة الآثار هى عائلة عبد الرسول بالقرنة[٢]. ونتيجة لذلك أصدرت الحكومة المصرية بعض القوانين المحلية التي تنظم هذه التجارة، وذلك حتى صدور قانون حماية الآثار رقم ١١٧ لسنة ١٩٨٣ الذي قام بتجريم الإتجار في الآثار[٣]. ومن أهم

=

www.alittihad.ae/details.php?id=137101&y=2007&article=full. (accessed: 15th March 2018)

وأيضاً: المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار (الجزء الثالث) - الذخائر ٥١، القاهرة.

[١] انظر صورة رقم ١ تمثل بائع المومياوات في صعيد مصر عام ١٨٧٠.

[٢] تعتبر عائلة عبد الرسول من أشهر العائلات التي عملت في البحث والتنقيب عن كنوز الفراعنة وبيعها خلال القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٧٠ عثر أحد أفراد عائلة عبد الرسول على مقبرة رقم TT320 بالبر الغربي في طيبة، المعروفة بإسم (خبيئة الدير البحري) والتي كانت تضم مومياوات لعدة ملوك وأميرات من الأسرات السابعة عشر وحتى الأسرة الحادية والعشرين. وقد تكتمت أفراد العائلة على خبر الاكتشاف، وقاموا ببيع محتوياتها شيئاً فشيئاً إلى المتاحف الأوربية، وهو ما استرعى إنتباه السلطات المصرية ومصلحة الآثار. وقد تم اكتشاف أمر هذه العائلة بعد الإختلاف فيما بينهم، وقامت مصلحة الآثار المصرية تحت إشراف العالم الألماني "إميل بروجش" عام ١٨٨١ بنقل محتويات المقبرة للمتحف المصري.

[٣] قامت الحكومة المصرية بإصدار عدة قوانين منظمة لأعمال الحفائر والتنقيب عن الآثار والإتجار فيها، وأقدم هذه القوانين قانون رقم ١٤ لسنة ١٩١٢ (وكان يعرف أيضاً بقانون حماية الآثار)، ثم قانون رقم ٢١٥ لسنة ١٩٥١، حتى صدور قانون حماية الآثار رقم ١١٧ =

المؤلفات التي تسجل نهب الآثار المصرية هو: " نهب آثار وادي النيل" الذي كتبه بريان فاجان، والذي يسجل فيه مثل هذه الأعمال[1]. هذا بالإضافة إلى ما تزخر به المتاحف العالمية من الآثار المصرية المتنوعة، والتي لا شك أثرت على المواقع الأثرية المصرية سلبياً، فلم يكن خروج كل هذا الكم الهائل من القطع الأثرية المصرية عن طريق حفائر علمية منظمة.

ولعل تعريف مصطلح الحفائر العلمية يحتاج هنا لإيضاح، فالحفائر هى عملية تدمير منظم للطبقات الأثرية، ومعيار التنظيم هنا هو التسجيل والتوثيق للطبقات الأثرية بشكل دقيق[٢]. فالحفائر العلمية لا تهدف إلى العثور على اللقى الأثرية في حد ذاته بل لفهم حياة الإنسان القديم، ودور هذه اللقى في حياته، ووظيفتها، وأهميتها، بل وتطورها عبر الزمن، وغيرها، وهو ما يمكن تسميته "بالسياق الأثري". ولعل هذا التعريف يبرز خطورة الحفر غير الشرعي الذي يقوم بتدمير الطبقات الأثرية، وإنتزاع اللقى من سياقها الأصلي. على سبيل المثال: كثيراً ما يتم العثور على أواني فخارية في الكثير من المواقع الأثرية، لكن في أي سياق؟ ديني (مثل الأواني النذرية)، أو جنائزي (كقرابين لروح المتوفى) أم دنيوي (لاستخدامها في الحياة اليومية).

الأسباب والدوافع:

لم تقتصر ظاهرة الحفر على الحضارة المصرية دون غيرها، فجميع الحضارات القديمة قد تعرضت - ولا تزال تتعرض- للنهب والتخريب. وفي هذا السياق يطلق على الدول أصحاب التراث الثقافي المنهوب (دول المصدر أو Source countries) وهي عادة مناطق ذات ماضي عريق، لكنها تواجه مشكلات في الحاضر مثل: ضعف الإقتصاد، إنخفاض مستوى المعيشة أو تتعرض لأزمات مثل النزاع المسلح[٣]. بينما وعلى الطرف

=

لسنة ١٩٨٣ والمعدل بالقانون رقم ٣ لسنة ٢٠١٠. ويمكن الإطلاع وتحميل نصوص القوانين المصرية المعنية بالآثار والتراث الثقافي عبر الرابط التالي:

http://www.unesco.org/culture/natlaws /

(accessed: 15th March 2018)

[1] بريان م. فاجان: نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر، ترجمة أحمد زهير أمين، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣

[2] Archaeological site manual. Museum of London. Archaeology Service. Third Edition. 1994.

https://achill-fieldschool.com/wp-content/uploads/2016/01/molasmanual942.pdf

[٣] إتفاقية لاهاي لحماية مواقع التراث الثقافي وقت النزاع المسلح، وتم توقيعها عام ١٩٥٤. يمكن الإطلاع

=

المقابل بالمعادلة توجد الدول الغنية التي يؤول إليها هذا التراث بطريقة غير مشروعة، ويطلق عليها (دول السوق أو Market countries). وما بين الطرفين، يوجد العديد من المساهمين في هذه العملية وهم الحفارون (diggers أو looters)، والوسطاء (dealers) حتى تصل القطع الأثرية المنهوبة إلى التاجر (trader) وهو عادة يكون من خارج دولة المصدر، وداخل دولة السوق وهناك يتم بيع القطع الأثرية، بل وتداولها أكثر من مرة. ويكون الغرض من إعادة التداول هو صعوبة تتبع القطعة الأثرية وربطها بالمصدر الأصلي. بل وأحياناً يتم "إختلاق" معلومات وأوراق غير حقيقية عن مجموعة خاصة "وهمية" يتم نسب القطع الأثرية إليها كما حدث في القضية الشهيرة الخاصة بتاجر الآثار الأمريكي "فريدريك شولتز" الذي قام بالإشتراك مع البريطاني "جان باري توكلي" بإختلاق مجموعة خاصة وهمية أسموها "مجموعة توماس ألكوك Thomas Alcock collection" وأدعوا أنها ترجع للعشرينات من القرن العشرين. وقد تم إدانتهما في المحاكم البريطانية والأمريكية. وقضى "توكلي" ثلاث سنوات في السجن، وتم إدانة "شولتز" عام ٢٠٠٢ وإجباره على إرجاع القطع الأثرية إلى مصر بصفتها قطع مسروقة[1].

ونظراً للإنتشار ظاهرة الحفر غير الشرعي في العديد من الدول، فإنه يوجد عدد من التقارير التي قامت بدراسة هذه الظاهرة - ضمن الظواهر السلبية الأخرى التي تقوم بها المجتمعات المحلية تجاه المواقع الأثرية- تناول بعضها عرض ورصد المشكلة في العديد من المواقع الأثرية، كما حاول البعض تفسير هذه الظاهرة ومعرفة أسبابها

=

على نص الإتفاقية مترجمة باللغة العربية على موقع منظمة الإلكسو:

www.alecso.org/newsite/images/2016files/2017-05-23-15-00.pdf (accessed: 15th March 2018)

[1] ب. غير شتنبليث: مبدأ ماكلين \ شولتز: خطوة أخرى في مكافحة الإتجار بالتحف الأثرية، شهود على التاريخ: مجموعة من الوثائق والكتابات عن إعادة القطع الثقافية، تحرير: ليندل. ف. بروت، منشورات اليونسكو، باريس، ٢٠٠٩، ص: ٣٦٨-٣٧١.

وللمزيد عن وقائع القضية، وتفاصيل وحيثيات حكم المحكمة الأمريكية، انظر:

Watson, P. (2002). The investigation of Frederick Shultz 10 culture without context. 2002.p.21. See also: Gerstenblith, P. (2002). United States v. Shultz 10 culture without context. p.27.

لحل المشكلة من جذورها. ومن هذه التقارير، ما قام به بعض الباحثين من جامعة بنسلفانيا من رصد لحالات الحفر غير الشرعي في المواقع الأثرية، وتهريب القطع الأثرية في مصر خلال الأحداث التي أعقبت ٢٥ يناير ٢٠١١ بالإضافة إلى الاعتداءات وأحداث السرقات التي شهدتها بعض المتاحف ومخازن الآثار المصرية مثل المتحف المصري في التحرير (٢٨ يناير ٢٠١١)، متحف ملوي بمحافظة المنيا (أغسطس ٢٠١٣)، متحف الفن الاسلامي بباب الخلق بوسط القاهرة (٢٥ يناير ٢٠١٥). وقد اعتمد هذا التقرير على الأخبار المنشورة في هذا الخصوص في وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة لتوثيق هذه الأحداث خاصة أنها تحتوي على صور توثق حالة الإعتداء[1].

ولا يقتصر الحفر غير الشرعي على المنطقة العربية، أو حتى في وقت الأزمات فقط. فهناك العديد من الدول تعاني من هذه الظاهرة مثل دولة مالي الواقعة في غرب إفريقيا. ولعل أهم هذه الدراسات، ما قام به (تيربا توجولا Tereba Togola[2])، وكان وزيراً للفنون والثقافة في مالي. وقد قام في عام ٢٠٠٢ بتحديد أهم الأسباب التي تؤدي إلى قيام المجتمع المحلي بالحفر غير الشرعي. ويمكن تلخيص نتائج دراسة (توجولا) عن الوضع في مالي كالآتي: بوجود ما يسمى بـ (Subsistence digger أو Subsistence looter) ويقصد بهذا المصطلح قيام الشخص بالحفر بشكل غير شرعي بحثاً عن اللقى الأثرية، وذلك لكسب قوت يومه.

---

[1] Daniels, Brian I, et al.(2014). position Paper in Support of a Memorandum of Understanding with The Arab Republic of Egypt Under the Convention On Cultural Property Implementation Act". URL: http://savingantiquities.org/wp-content/uploads/2015/03/Prof.-Richard-Leventhal-Mr.-Brian-Daniels-Penn-Cultural-Heritage-Center-Egypt-MoU.pdf (accessed: 10th March 2018).

[2] ت . توجولا Tereba Togola (١٩٤٨ - ٢٠٠٥) ، وقد كان يشغل منصب مدير التراث الثقافي بوزارة الثقافة في مالى ، وقام بالعمل مع أستاذه Michel Raimbault في منطقة وسط النيجر ومنطقة ميما وعمل مسح أثري وتسجيل للعديد من المواقع . ومن أهم أعماله البحثية مشروع مسح أثاري لمدينة تمبكتو القديمة وما حولها بمشاركة كل من : Roderick and Susan Macintosh عام ١٩٩٦ ، انظر: Dedicated to the Memory of Tereba Togola 1948-2005. newsletter no. 58, winter 2005-06-spring 2006, *Mansa: Association des Études Mandé*. Pp. 1-4

وذلك تمييزاً عن commercial digger) أو grave robbers) الذي يقوم بالنهب والحفر غير الشرعى لتحقيق مكاسب مادية. والأمر الخطير أنه يوجد في مالي ما يزيد عن ١٣% من الأسر المحلية تعتمد على دخلها من خلال الحفر غير الشرعي لكسب قوت يومها، مما أدى إلى حدوث تدمير ونهب للكثير من المواقع الأثرية في مالي[١].

أما عن أسباب ودوافع الحفر غير الشرعي التي ذكرها (توجولا)، فيمكن تلخيصها كالآتي:

- أسباب إقتصادية Economic insecurity: عدم الاستقرار الاقتصادي مع قلة الموارد الإقتصادية، وإنخفاض مستوى المعيشة، خاصة مع إزدياد الجفاف، وتحول المنطقة إلى التصحر.
- الكوارث الطبيعية والبشرية: وأهمها النزاع المسلح الذي يؤدي إلى ضعف القبضة الأمنية على المواقع الأثرية.
- أسباب إجتماعية: مثل قلة التعليم، إنخفاض مستوى الوعي الثقافي والأثري، بالإضافة إلى الفساد الحكومي وعدم تطبيق القانون[٢].

الجدير بالذكر أن دولة مالي تشتهر بثقافة النوق Nok التي تمثل النقلة الحضارية بين العصور الحجرية إلى العصر الحديدي. وقد تم رصد الحفر غير الشرعي في بعض المواقع منذ الأربعينات مثل موقع Jenne – Jeno الذي يقع في دلتا نهر النيجر بوسط مالي. كما تم رصد بعض عمليات النهب والسرقة في جنوب غرب مالي حيث تشتهر ببعض القطع التي ترجع للعصور الوسطى Medieval Bankoni artefacts، كذلك في منطقة ميما Mema (وهى تؤرخ للعصر الحديدي) الواقعة شمالي مالي، حيث شهدت السبعينات إرتفاعاً كبيراً في معدل الحفر غير الشرعي، الذي أصبح على نطاق واسع حيث يشير (هاردي Hardy) أن النهب في المواقع الأثرية في مالي يتراوح ما بين ٤٥% في بعض المواقع، ٧٥% بل ويصل أحياناً إلى ٨٠ - ٩٠ %، بل ولم تسلم حتى المواقع المسجلة في قائمة اليونسكو للتراث العالمي UNESCO World Heritage Sites

---

[١] Togola, T. (2002). "The rape of Mali's only resource". In Brodie, N and Tubb, K W, (Eds.). Illicit antiquities: The theft of culture and the extinction of archaeology. London: Routledge. pp. 250-256.

[2] Togola, T. (2002). p252

من الحفر والنهب[1]. ولا يمكن القول أن هذا النمط من السرقة موجود في المنطقة العربية، فنهب التراث الثقافي - في الغالب- يكون مرتبطاً بغياب الأمن، ولتحقيق أحلام الثراء السريع، وبهذا يكون - حسب تصنيف توجولا - من النوع الثاني وهو: (commercial digger أو grave robbers). ولعل أهمية تلك الدراسات أنها تشير لمدى الدور الذي يلعبه الوعي الأثري والثقافي لدى المجتمعات المحلية عن قيمة التراث الثقافي بشكل عام والآثري بشكل خاص.

الآثار السلبية للحفر غير الشرعي، وتهريب الممتلكات الثقافية:

يمكن تلخيص أهم الآثار السلبية للحفر الغير شرعي وتهريب الممتلكات الثقافية إلى:

الجانب الأثري:

يعتبر الحفر غير الشرعي تدميراً للطبقات الأثرية بشكل عشوائي لأجل الحصول على القطع الأثرية للإتجار بها، ويكون الناتج هو مجموعة من القطع فقدت جزءاً من قيمتها الأثرية والتاريخية نظراً لإنتزاعها من السياق الأثري الأصلي، فلن يتم تفسير الموقع الأثري وفهمه نظراً لتدمير الطبقات الأثرية، وهو تدمير لا يمكن إصلاحه. أي أن الموقع قد تدمر للأبد[2]. وفقدان السياق الأثري، هو إحدى الأسباب التي قد تدفع البعض بمطالبة الدول من أصحاب التراث الثقافي (دول المصدر) ببيع بعض القطع الأثرية في مزاد علني، وذلك بعد ضبطها نتيجة خروجها بطريقة غير شرعية. فهذه القطع - رغم كونها أثرية أصلية ولها قيمة تاريخية فنية - لكنها تفقد جزءاً هذه القيم بإنتزاعها من سياقها الأثري الأصلي[3]، فأصبحت- في

---

(1) Hardy: Comment on the Proposal to Extend Agreement with Republic of Mali: Import Restrictions on Archaeological Material from the Paleolithic Era to Mid-Eighteenth Century, 2012. URL; https://conflictantiquities.files.wordpress.com/2012/04/hardy-2012-mali-illicit-antiquities-trade-1204031.pdf (accessed: 15th March2018)

(2) Brodie, N. (2008). Law\ Illicit Antiquities, ARCH:00162, Elsevier.

(3) Anna Somers Cocks. (2015). Why Italy should sell the antiquities recovered by the police." The Art Newspaper. March 15, 2015. http://ec2-79-125-124-178.eu-west 1.compute.amazonaws.com/articles/Why-
=

نظرهم- سلعة تجارية لها قيمتها الاقتصادية بفضل عامل الندرة، ووسيلة جيدة لحفظ المال.

وعلى الجانب الآخر من المعادلة، فإن هذه القطع "المنتزعة" من سياقها الأصلي دون معلومات عن مصدرها، تصل إلى المجموعات الخاصة في "دول السوق"، وهناك قد يتم تفسيرها حسب الأهواء الشخصية. ففي الآونة الأخيرة، أصبحنا نسمع عن العثور على تابوت أو خاتم ينتمي للحضارة المصرية القديمة في مناطق خارج مصر دون أي ذكر معلومات كافية عن السياق الأثري لهذه القطع، في أي موقع عثر عليها؟ مستوطنة بشرية أم جبانة لدفن الأموات؟ وما هو تأريخ هذا الموقع؟ وهل هذه القطعة تنتمي لفترة استيطان الموقع الأولية أم في فترة تالية لاحقة؟ وما هى علاقة القطعة بالموقع ككل؟ وغيرها من الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها عن طريق تسجيل وتوثيق العثور على هذه القطعة من باطن الأرض بالأساليب العلمية المتعارف عليها.

=

Italy-should-sell-the--antiquities-recovered-by-the-police/37159.(Accessed March 09, 2018)

١. الجانب الإجتماعي والإقتصادي:

لا تقتصر الآثار السلبية للحفر غير الشرعي وتهريب القطع الأثرية على الجانب الآثري- الذي قد يرى البعض أنه يهم المتخصصين أكثر من غيرهم- لكن أيضاً يوجد جوانب إجتماعية وإقتصادية خطيرة فالممتلكات الثقافية – في نظر سوق الآثار – هى سلعة تزداد قيمتها حسب عوامل كثيرة (أهمها عامل الندرة وكون القطعة فريدة من نوعها). ولعل أهم عوامل استمرار تجارة الممتلكات الثقافية هو وجود من يرغب في الحصول عليها وبأي ثمن وهم (جامعي التحف) في دول السوق، وفي هذا السياق يجب ذكر الدراسة القيمة التي أجراها د\ كولن رينفرو Colin Renfrew الرئيس الأسبق لمعهد ماكدونالد للأبحاث التابع لجامعة كامبريدج حيث يذكر أن الجناة الحقيقيون هم جامعي التحف (Collectors) حيث أن شغفهم المتواصل للحصول على القطع الأثرية وشرائها كوسيلة لحفظ المال، نظراً لقيمتها الأثرية والتاريخية التي لا تتأثر بالتقلبات الإقتصادية كأي "سلعة" أخرى. وأن المجتمعات المحلية تقوم بتلبية "احتياجات السوق" نظراً للظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها مجتمعات دول المصدر

Countries Source نتيجة للعقبات الاقتصادية أو النزاع المسلح. ويذكر في دراسته أن الحفارين في تلك المجتمعات الفقيرة عادة ما يحصلون على أقل من ٢% أو حتى ١% من السعر النهائي للقطعة الأثرية، بينما يحصل الوسيط والتاجر على ٩٨% من قيمتها، بل أنهم أحياناً يقومون بتأجير عمال المناجم أو المهاجرين الفقراء لحصولهم على أجور ضئيلة هى قوت يومهم بالكاد. وعلى المدى الطويل، فبعد تدمير الموقع الأثري تخسر هذه الدول أي فرص مستقبلية لإدارة الموقع وفتحه للسياحة. لذا فإن سوق الآثار يساعد على زيادة الفجوة بين الفقراء (دول المصدر) والأغنياء (دول السوق). (انظر شكل رقم ١)

رصد الحفر غير الشرعي في مواقع التراث الثقافي:

من المنطقي زيادة معدل الحفر غير الشرعي خلال وقت الأزمات نظراً لغياب أو قلة الوجود الأمني، خاصة في أوقات الأزمات السياسية أو الحروب حيث يصبح تأمين المواقع الأثرية أمراً صعباً. وقد تم رصد العديد من التعديات – سواء الحفر أو غيره- على المواقع الأثرية في العديد من دول المنطقة. وتتم عملية الرصد إما من خلال التصوير الفوتوغرافي أو من خلال الخرائط الجوية عن طريق الوسائل التكنولوجية. والأمر الخطير بخصوص الحفر غير الشرعي هو تدمير الطبقات الأثرية في المواقع التي لم يتم حفرها من قبل، مما يؤدي إلى تدمير الطبقات الأثرية دون رجعة، وإنتزاع القطع من سياقها الأثري الأصلي. يوجد العديد من التقنيات والوسائل التكنولوجية الحديثة لرصد آثار الحفر الغير شرعي في مواقع التراث الثقافي على سبيل المثال: التصوير الجوي للمواقع الأثرية من خلال الأقمار الصناعية وتقنية الاستشعار عن بعد[١]. وقد تم استغلال هذه التقنية في رصد أعمال الحفر غير الشرعي في العديد من المواقع الأثرية في مصر. إلا أن الخطر الأكبر يتمثل في خروج القطع الأثرية من باطن الأرض، وتدمير الطبقات الأثرية وتسلسلها مما يؤدي إلى عدم فهم طبيعة الموقع وتفسيره. فعند خروج القطع الأثرية دون إجراء حفائر علمية وتوثيق وتسجيل الطبقات وتتابعها، وتسجيل

(١) Parcak, S. (2007). Satellite Remote Sensing Methods for Monitoring Archaeological Tells in the Middle East. *Journal of Field Archaeology* 32 (1). pp. 65-81.

السياق الأثري للقطع وقت الاكتشاف، تفقد القطع الأثرية جزءاً هاماً من قيمتها الأثرية والتاريخية.

من باطن الأرض إلى صالات المزادات:

تتنوع الأنماط المختلفة لنهب المواقع الأثرية ما بين جمع اللقى الأثرية الموجودة على سطح الموقع الأثري، أوإنتزاع العناصر الزخرفية والقطع الأثرية أو عمليات الحفر الممنهج التي تتم بمعدات الحفر الحديثة. تصل هذه القطع الأثرية إلى صالات المزادات العالمية التي كثيراً ما تعلن قيامها بالتحري الدقيق عن مصدر هذه القطع الأثرية، وأنها خرجت من موطنها الأصلي بشكل مشروع. ولعل إلمام هذه الصالات بالقوانين المحلية لدول المصدر، بالإضافة إلى الاتفاقيات الدولية المعنية باسترداد التراث الثقافي المنهوب هو مفتاح هذه العملية. وتعتبر إتفاقية اليونسكو الموقعة بباريس الخاصة بالتدابير اللازمة لحظر تداول ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطريقة غير مشروعة عام ١٩٧٠ هى الإطار القانوني الرئيسي لعملية الاسترداد – رغم كونها إتفاقية استرشادية وليست ملزمة بالمقارنة مثلاً بإتفاقية اليونسكو الموقعة عام ١٩٧٢ الخاصة بمواقع التراث الطبيعي والثقافي- حيث تبرهن العديد من القضايا إلمام هذه الصالات بتفاصيل القوانين المحلية والإتفاقيات الدولية بل وبعض الثغرات بها[1].

وفيما يخص إتفاقية اليونسكو الخاصة بالتدابير اللازمة لحظر تداول ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطريقة غير مشروعة (باريس ١٩٧٠)، فإن أهم ثغراتها هى أنها ليست بأثر رجعي، بمعنى أن بنود الإتفاقية لا تسري على القطع التي خرجت من دولة المصدر قبل عام ١٩٧٠. ويقوم البعض باستغلال هذه النقطة حيث الإدعاء بخروج القطع الأثرية قبل هذا التاريخ، كما تلقي الإتفاقية بالمسئولية على كاهل دولة المصدر لإثبات عدم شرعية خروج هذه القطع – وليس العكس أي مسئولية الحائز إثبات شرعية حصوله عليها، كما تعتبر إتفاقية اليونسكو ١٩٧٠ اتفاقية استرشادية وليست ملزمة بمعنى أنه في حالة تعارض نص الإتفاقية مع القانون المحلي للدولة (غالباً يكون هذا التعارض في صالح دولة السوق، على حساب دولة المصدر) فإن السيادة تكون للقانون المحلي. ويوجد العديد

[1] انظر، وللمزيد: تاريخ تطور عمليات استرداد التراث الثقافي، شهود على التاريخ: مجموعة من الوثائق والكتابات عن إعادة القطع الثقافية، تحرير: ليندل. ف. بروت، منشورات اليونسكو، باريس، ٢٠٠٩، ص: ١٣-١٩

من الأمثلة على ما سبق، سواء ما يتعلق بالآثار المصرية أو من الحضارات الأخرى، على سبيل المثال القضية التي سبق ذكرها الخاصة بفريدريك شولتز وجان باري توكلي. وفي السنوات الأخيرة كان هناك إحدى القضايا المشابهة في المحاكم البريطانية عام ٢٠١٣ تخص مواطنا إنجليزياً وهو موظف سابق لدى هيئة الإذاعة البريطانية يدعى (نيل كينجسبيري Neil Kingsbury) الذي قام بعرض مجموعة من القطع الأثرية التي تنتمي للحضارة المصرية القديمة في صالتي مزادات كريستيز، وبونهامز الشهيرتين في لندن. قام "نيل" بالإدعاء أنه حصل على تلك القطع بالوراثة عن عمه الذي زار مصر في الأربعينات من القرن العشرين[1]. وقد تم كشف زيف إدعائه نظراً لأن إحدى القطع الأثرية التي قام بعرضها للبيع هى في الحقيقة مكتشفة بواسطة عام ٢٠٠٠ من خلال البعثة الألمانية العاملة في المعبد الجنائزي للملك أمنحتب الثالث بالأقصر.

تكمن أهمية هذه القضية في عدة نقاط:

- رغم أن القضية هى قضية تهريب في المقام الأول، حيث تهريب القطع الأثرية وخروجها بشكل غير شرعي خارج دولة المصدر[2]، إلا أنها دليل قاطع على عدم صحة إدعاء صالات المزادات بأنها تتحرى الدقة في شرعية حصول حائز القطع، بل أن كتالوج صالة مزادات كريستيز (مايو ٢٠١٣) الذي قام بعرض ٦ قطع أثرية لصالح (نيل كينجسبيري) إكتفى بوصف معلومات الحائز بأنها:

’Property of a gentleman’ and ‘Private collection, UK, acquired Egypt 1940s; thence by descent’

دون أية تفاصيل أخرى.

- تشير هذه القضية إلى أهمية تسجيل وتوثيق القطع الأثرية ناتج أعمال الحفائر

[1] Brodie, Neil. 2015. “Egyptian objects sold at Bonhams and Christie's London in 2013.” *Egyptian objects sold at Bonhams and Christie's London in 2013 « Trafficking Culture*, 6 Nov. 2015, www.traffickingculture.org/encyclopedia/case-studies/egyptian-objects-sold-at-bonhams-and-christies-london-in-2013/ (accessed 10\3\2018)

[2] قامت جمهورية مصر العربية بتجريم الإتجار في الآثار من خلال قانون حماية الآثار رقم ١١٧ لعام ١٩٨٣ المعدل بقانون رقم ٣ لعام ٢٠١٠.

بشكل دقيق، مهما صغر حجمها. فقد ثبت كذب الإدعاء عن طريق قطعة صغيرة من الجرانيت الأحمر ناتج أعمال حفائر البعثة الألمانية بمعبد أمنحتب الثالث. ولولا تسجيل هذه القطعة لم يكن اكتشاف زيف إدعاء الحائز.

- يعكس إدعاء الحائز بحصوله على القطع الأثرية في الأربعينات على درايته بالقوانين المحلية لدولة المصدر صاحبة التراث (في هذه الحالة مصر التي قامت بتجريم الإتجار في الآثار منذ عام ١٩٨٣)، والإتفاقيات الدولية المعنية (إتفاقية اليونسكو ١٩٧٠) حيث إختياره لتاريخ يسبق صدور القانون وتوقيع الإتفاقية.

ومن الأخبار المتداولة حديثاً فيما يخص تهريب القطع الأثرية وجهود دول المصدر في استرداد تراثها المنهوب: ما أعلنته السلطات الليبية بالإعلان عن قرب استرداد مجموعة من القطع ذات الطابع اليوناني تم تهريبها من ليبيا وتحديداً من مدينة الشحات (قوريني) إلى اسبانيا[1]. وقد تم تأكيد أثرية تلك القطع وتأريخها بالفترة من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد حيث كانت قوريني مستعمرة إغريقية، ونظراً للقيمة الأثرية والتاريخية الاستثنائية فهى مسجلة ضمن قائمة اليونسكو لمواقع التراث الثقافي العالمي.

النتائج:

من خلال ما سبق، يمكن استخلاص التالي:

- يعتبر الحفر غير الشرعي من أهم الأخطار التي تهدد مواقع التراث الثقافي، في وقت الأزمات من الجانب الأثري، الإقتصادي والإجتماعي.
- يوجد أسباب عديدة لظاهرة الحفر غير الشرعي، أهمها: قلة الوعي الأثري في المجتمعات المحلية، واستغلال عدم الوعي بالقيمة التاريخية للقطع الأثرية في تهريبها للدول الغنية (دول السوق)، وبيعها في صالات المزادات. لذا لا يمكن إلقاء عبء المسئولية على المجتمعات المحلية فقط، وإنما تلعب (دول السوق) دوراً بارزاً في استمرار عمليات الحفر غير الشرعي والتهريب.
- يمكن توثيق بعض الآثار السلبية لظاهرة الحفر غير الشرعي في مواقع التراث الثقافي من خلال الوسائل

---

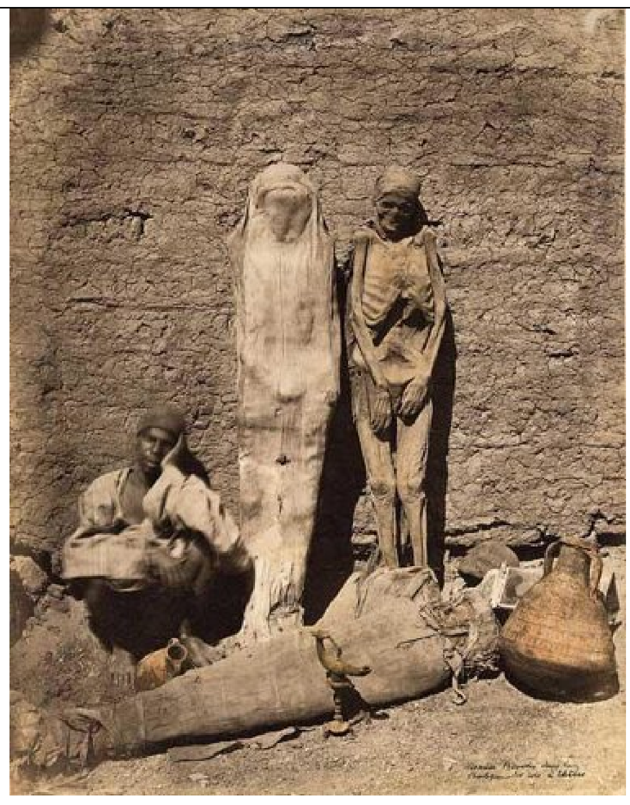
(١) http://www.xinhuanet.com/english/2018-03/14/c_137037066.htm?platform= hootsuite (accessed: 16\3\2018)

العلمية الحديثة مثل التصوير الجوي، والاستشعار عن بعد.

- تلعب الإتفاقيات الدولية دوراً كبيراً في عملية استرداد التراث الثقافي المنهوب. وتعتبر إتفاقية اليونسكو ١٩٧٠ هى الإطار الرئيسي لعملية الاسترداد، ومن خلالها تم استرداد العديد من القطع الأثرية المسروقة.

- رغم أهمية إتفاقية اليونسكو ١٩٧٠، إلا أنه يوجد بها بعض القصور مثل: كونها إتفاقية استرشادية وليست ملزمة للدول الأعضاء، وأنها ليست ذات أثر رجعي (أي لا تسري على القطع التي خرجت من موطنها الأصلي قبل عام ١٩٧٠)

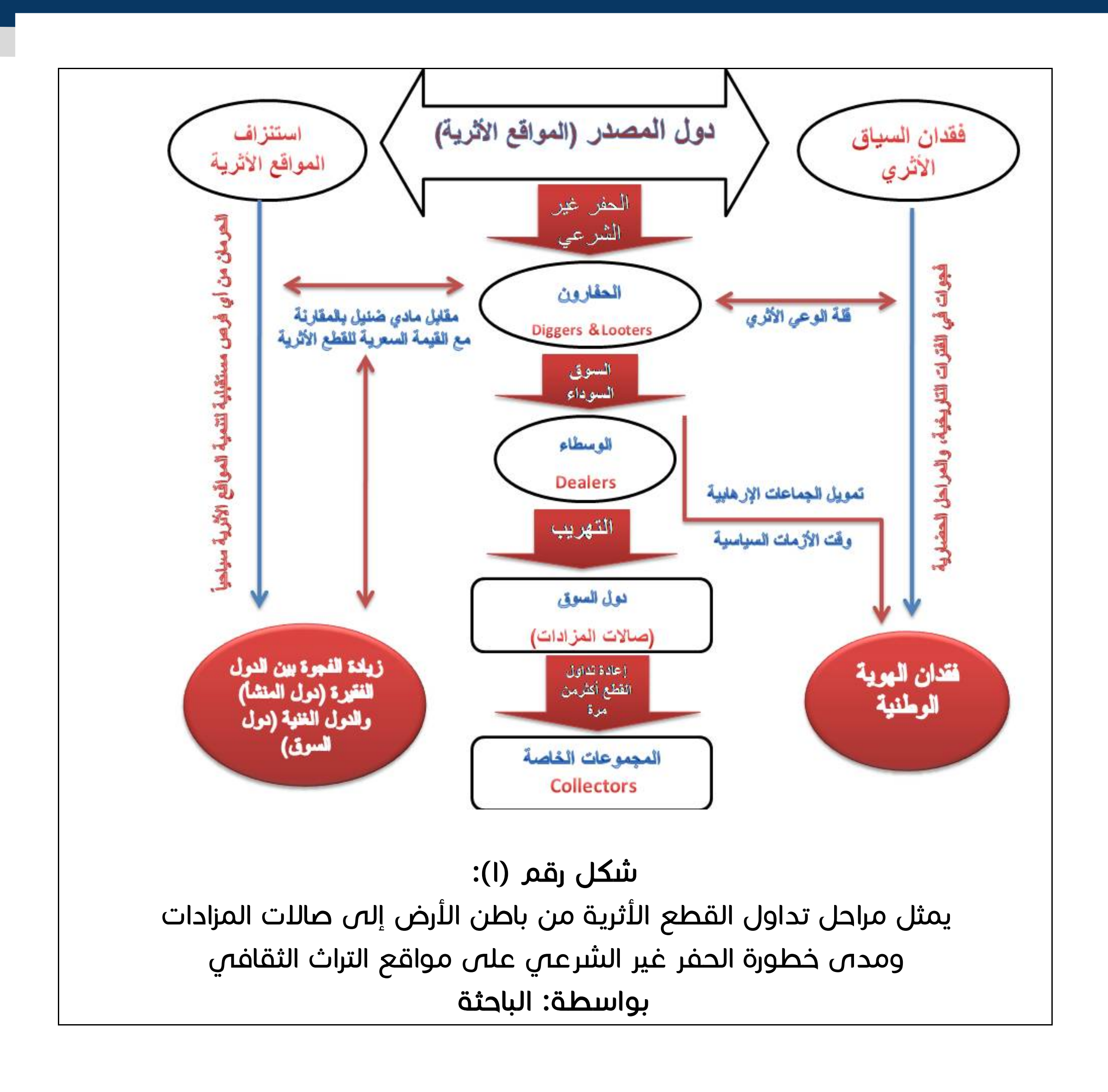
ملحق الصور



صورة رقم ١: صورة مؤرخة لعام ١٨٧٠ لبائع المومياوات في صعيد مصر، إلتقطها المصور الفرنسي Félix Bonfils

المصدر: https://www.pinterest.com/pin/513903007470442015/

Accessed: 15th March 2018



شكل رقم (١):

يمثل مراحل تداول القطع الأثرية من باطن الأرض إلى صالات المزادات ومدى خطورة الحفر غير الشرعي على مواقع التراث الثقافي

بواسطة: الباحثة

قائمة المراجع: (العربية والمعربة) :

- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار (الجزء الثالث)، الذخائر ٥١، القاهرة.
- بريان م. فاجان (٢٠٠٣) نهب آثار وادي النيل ودور لصوص المقابر، ترجمة أحمد زهير أمين، مكتبة الأسرة.
- ب· غير شتنبليث (٢٠٠٩). مبدأ ماكلين \ شولتز: خطوة أخرى في مكافحة الإتجار بالتحف الأثرية، شهود على التاريخ: مجموعة من الوثائق والكتابات عن إعادة القطع الثقافية، تحرير: ليندل. ف. بروت، منشورات اليونسكو، باريس، ص: ٣٦٨-٣٧١.
- عدة مؤلفين: تاريخ تطور عمليات استرداد التراث الثقافي، شهود على التاريخ: مجموعة من الوثائق والكتابات عن إعادة القطع الثقافية، تحرير: ليندل. ف. بروت، منشورات اليونسكو، باريس، ٢٠٠٩، ص: ١٣-١٩

قائمة المراجع الأجنبية:

- Archaeological site manual. (1994). Museum of London, Archaeology Service. third edition.
- Brodie, N. (2008). Law\ Illicit Antiquities. ARCH:00162. Elsevier.
- Daniels, Brian I, et al. (2014). position Paper In Support Of A Memorandum Of Understanding With The Arab Republic Of Egypt Under The Convention On Cultural Property Implementation Act".
- Gerstenblith, P. (2002). United States v. Shultz 10. culture without context.
- Hardy, T. (2012). Comment on the Proposal to Extend Agreement with Republic of Mali: Import Restrictions on Archaeological Material from the Paleolithic Era to Mid-Eighteenth Century.
- (2006). Dedicated to the Memory of Tereba Togola 1948-2005. *Mansa 58. Association des Études Mandé*. pp. 1-4.
- Togola, T. (2002) "The rape of Mali's only resource". In Brodie, N and Tubb, K W, (Eds.). Illicit antiquities: The theft of culture and the extinction of archaeology. London: Routledge. Pp. 250-256.
- Parcak, S. (2007). Satellite Remote Sensing Methods for Monitoring Archaeological Tells in the Middle East. *Journal of Field Archaeology* 32 (1). pp. 65-81.
- Watson, P. (2002). The investigation of Frederick Shultz 10. culture without context,
-

المراجع الالكترونية:

- https://www.britishmuseum.org/research/collection_online/collection_object_details.aspx?objectId=117400&partId=1 (accessed: 15th March 2018)
- www.alittihad.ae/details.php?id=137101&y=2007&article=full. (accessed: 15th March 2018)
- http://www.unesco.org/culture/natlaws/(accessed: 15th March 2018)
- www.alecso.org/newsite/images/2016files/2017-05-23-15-00.pdf (accessed: 15th March 2018)
- Anna Somers Cocks. "Why Italy should sell the antiquities recovered by the police." The Art Newspaper. March 15, 2015. http://ec2-79-125-124-178.eu-west 1.compute.amazonaws.com/articles/Why-Italy-should-sell-the--antiquities-recovered-by-the-police/37159. (Accessed March 09, 2018)
- Brodie, Neil. “Egyptian objects sold at Bonhams and Christie's London in 2013.” *Egyptian objects sold at Bonhams and Christie's London in 2013 « Trafficking Culture*, 6 Nov. 2015, www.traffickingculture.org/encyclopedia/case-studies/egyptian-objects-sold-at-bonhams-and-christies-london-in-2013/ (accessed 10\3\2018)
- http://www.xinhuanet.com/english/2018-03/14/c_137037066.htm?platform=hootsuite (accessed: 16\3\2018)
- https://www.pinterest.com/pin/513903007470442015/(accessed: 15th March 2018)
- http://uk.businessinsider.com/sarah-parcak-wins-the-2016-ted-prize-2015-11 (accessed 10\3\2018)



الصرة السلطانية «الرومية» لأهالي بيت المقدس
(دفتر رقم ٤١)

د. مروان محمد حمدان الاقرع*

ملخص

يتناول هذا البحث الهدية المالية التي كان يرسلها السلطان العثماني والتي كانت تعرف بالصرة الرومية الى أهالي مدينة بيت المقدس عام ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م بموجب دفتر رقم (٤١) من مجموع دفاتر الصرة السلطانية الخاصة بأهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس التي وصل عددها في الأرشيف العثماني الى ٤١٧٠ دفترا تبدأ عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م وتنتهي عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م[1]، يتضمن الدفتر قائمة بأسماء ٧٣ قسما يتلقون المخصصات من الصرة العثمانية ومقدار ما يتلقونه.

شملت الأسماء عينة متنوعة من أهالي المدينة يمكن فرزها الى قسمين: القسم الأول يتعلق بالعاملين في المسجد الأقصى المبارك من خطباء وأئمة للمسجد الأقصى وقبة الصخرة ومقرئين ومؤذنين وكتاب وخدام ومبلغين وبوابين، والقسم الثاني خاص بمجاوري المسجد الأقصى حيث يضم حارات المدينة المختلفة والمساجد والزوايا والمقامات الصوفية والاربطة والمدارس وهذا القسم يضم أيضا مجاوري الحرم من النساء اللواتي توزعن على ١٨ قسما موزعة على مختلف حارات المدينة، والزوايا والاربطة والمدارس.

الكلمات الدالة: الصرة الرومية، الحرم القدسي، الدولة العثمانية، القدس الشريف.

---

[1] صابان، سهيل، صرة أهالي مكة، مجلة الدارة، عدد ٣، السنة ٣٤، ص١.

المقدمة:

يعود اهتمام الدولة العثمانية بمدينة بيت المقدس الى وجود المسجد الأقصى المبارك اولى القبلتين وثاني الحرمين الشريفين وثالث المساجد التي تشد الرحال اليها، ولهذا اهتم العثمانيون بالمدينة وخصصوا لها الأوقاف المختلفة التي كان يذهب ريعها الى المساجد والمدارس والزوايا والأربطة كما خصصوا لها الصرة السلطانية والصرة المصرية التي كانت ولاية مصر التابعة للدولة العثمانية تدفعها الى أهالي بيت المقدس.

تهدف هذه الدراسة الى بيان دور الدولة العثمانية في دعم أهالي مدينة بيت المقدس والذين كانوا يتلقون مخصصاتهم السنوية من الصرة الرومية بشكل منتظم وكانت هذه المخصصات تساهم في دعم مسلمي المدينة أمام منتسبي الأديان الأخرى الذين كانوا يتلقون الدعم والتأييد من مختلف دول العالم.

كان السلطان بايزيد الأول (١٣٨٨-١٤٠٣م) أول من أرسل الصرة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس ثم تبعه في ذلك السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) حيث أصبحت الصرة ترسل سنويا لمستحقيها الذين كانوا يورثون حصصهم الى أبنائهم[١].

[١] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ١٠٦٧/١٦٥٦م، ص٨٦.

اتخذت الصرة السلطانية في العهد العثماني شكلا نظاميا خصصت له مؤسسة خاصة مثل قافلة الصرة التي اشتملت على عدد من الموظفين يترأسهم شخص يطلق عليه أمين الصرة، وكان يتم اختياره من العسكريين من أصحاب الرتب العالية او من الموظفين الإداريين او علماء الدين، ويشترط في اختياره أن يكون مشهودا له بالتدين والخلق الحسن، وكانت وظيفة أمين الصرة وظيفة تشريف يطمح لها كثير من رجال الدولة حيث إن الراتب الذي يحصل عليه قليل وكان عدد منهم يضطر الى الانفاق من جيوبهم الخاصة.

دفاتر الصرة

الصرة: جاء في لسان العرب تعريف الصرة لغة: "شرج الدراهم والدنانير وقد صرها صرا غيره الصرة صرة الدراهم وغيرها معروفة وصررت الصرة شددتها[٢] " ومما جاء أيضا حول تعريفها "ما تعقد فيه الدراهم. والجماعة المنضم بعضهم لبعض كأنهم صروا أي جمعوا في وعاء"[٣]. وأما اصطلاحا فهي: المعاش الذي

[٢] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١٠م) لسان العرب، ٩ مج، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م، م٥، ص ٢٤٣٠.

[٣] الحدادي، زين الجين بن محمد(١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعريف، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢١٥.

يستمله أهل مكة والمدينة وبيت المقدس والمدينة المنورة من القسطنطينية أو من القاهرة[1]، وجاء في كتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية لمؤلفة محمد فريد بك حول تعريف الصرة: الصرة عبارَة عَن قدر معِين من النُّقُود نرسل إِلَى الامير لتوزيعه على فُقَرَاء مَكَّة وَالْمَدينَة لَكِن لم تكن بِالْقدرِ الَّذِي بلغته الْآن وَقد قَالَ بعض المؤرخين ان السُّلْطَان سُلَيْمَان الاول هُوَ اول من ارسل الصرة فِي سنة ٩٢٣ هـ سنة ١٥١٧ م بعد فتح مصر وَلَكِن اتّفق من يوثق بهم من المؤرخين خُصُوصا صولاق زَاده على ان السُّلْطَان مُحَمَّد جلبي هُوَ اول من ارسلها وَدفن السُّلْطَان بعد مَوته فِي مَدِينَة بورصة"[2].

يعود تاريخ بدأ ارسال الصرة الى العهد العباسي واستمر في عهد الفاطميين والايوبيين والمماليك واتخذت شكل نظامي في العهد العثماني حيث خصصت لها مؤسسة خاصة وأصبحت تدار من عدد من الموظفين الذين كانوا يتولون أرسالها الى مكة والمدينة وبيت المقدس، وكانت قافلة الصرة تخرج من إسطنبول في شهر رجب من كل عام في احتفال رسمي وتصل الى مدينة بيت المقدس وتوزع أموالها وما تتضمنه من هدايا على مستحقيها الذين كانوا يرثون نصيب ابائهم في الصرة[3]، وأحيانا كان الأبناء يرثون نصيب امهاتهم من الصرة[4].

التعريف بالدفتر رقم (٤١) من دفاتر صرة أهالي بيت المقدس.

يوجد هذا الدفتر في الأرشيف العثماني في إسطنبول تحت تصنيف رقم EV.HMK.SR DEFTER NO:00041 ويحتوي على ٤٧ صفحة تضم كل صفحة ٢١ اسما (٣ أعمدة وسبعة صفوف) وأدرجت الأسماء بدأ من الصفحة الرابعة وبدأ الدفتر بعبارة " دفتر صرة شريفة خانقانية رومية جديدة الواجبة المرسلة في 1068ه" وختمت في ورقة رقم ٤٧ بعدة عبارات الأولى " حرر هذا الدفتر بمعرفة الافقر محمد آغا دار السعادة الناظر بأوقاف الحرمين الشريفين"، وعبارة "ما في هذا الدفتر السلطاني الخاقاني وقع لدى العبد الفقير الى الملك المتعال مصطفى بن عوض

[1] دوزي، رينهات بيتر آن (ت ١٣٠٠هـ)، تكملة المعاجم العربية، الجزء، وزارة الثقافة والاعلام العراقية، ١٩٧٩م، ٦، ص ٤٣٣.

[2] المحامي، محمد فريد بك(ت١٣٣٨هـ)، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: احسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٥٢.

[3] صابان، سهيل، صرة أهالي مكة، مجلة الدارة، عدد ٣، السنة ٣٤، ص ٣.

[4] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص١٥٧.

المامور على اوقاف الحرمين الشريفين" وعبارة "صرفت الانعامات السلطانية بمعرفة العبد الفقير الى الله تعالى ابي البركات محمد شرف الدين الخالدي خليفة القاضي بمدينة القدس الشريف عفى عنه"[١].

يضم الدفتر أسماء المستفيدين من أهالي مدينة بيت المقدس الذين يمكن تقسيمهم الى ثلاثة أقسام" داخل الحرم القدسي الشريف، مجاورين قدس شريف، نساء مجاورات قدس شريف" وهناك أيضا قسم خاص بمدينة خليل الرحمن، ويبلغ عدد المستفيدين من دفتر الصرة الرومية في الدفتر ١٢٩٣ من سكان مدينة بيت المقدس و١٢٠ من سكان مدينة خليل الرحمن.

ويمكن تقسيم الدفتر الى ثلاثة أقسام **الأول:** خاص بمدينة بيت المقدس يحتوي على ٦٢ جماعة والقسم **الثاني:** خاص بمدينة خليل الرحمن ويضم ١٠ جماعات والقسم **الثالث:** خاص بمقام موسى عليه السلام ويضم جماعة واحدة.

القسم الأول: أهالي مدينة بيت المقدس.

يشمل هذا القسم العاملين في المسجد الأقصى المبارك من خطباء وأئمة ومؤذنين وفراش وخدام وبوابين ويشمل أيضا مجاوري مدينة بيت المقدس ممن كانوا يتلقون الصرة العثمانية ومجاوري المدينة من النساء اللواتي كن يأخذن من الصرة.

أولاً: العاملين داخل المسجد الأقصى المبارك ويضم جماعتين الأولى تضم ١٣ جماعة وهذه الجماعات كانت تتلقى الصرة من الخليفة العثماني وهي على النحو الاتي:

- الجماعة الأولى تضم ثلاثة من القائمين على رعاية المسجد الأقصى المبارك وهم الشيخ محمد هبة الله بن مولانا عبد الغفار مفتي بيت المقدس السابق والسيد تاج العارفين والسيد علي ابن مولانا عبد القادر ابن أبو الوفا الحسني والشيخ صالح شيخ الحرم والشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ محمد ابن الشيخ احمد المقدسي ويبلغ مجموع مخصصاتهم ١٨ عشر سكة[٢] حسنة من الذهب[٣].
- جماعة خطباء المسجد الأقصى المبارك، ويبلغ عددهم أربعة: مولانا الشيخ يوسف بن رضى الدين والشيخ علي بن الشيخ

---

[١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، الأرشيف العثماني، إسطنبول، ص٤٦.

[٢] السكة في اللغة الدينار والدرهم المضروبان، سمي كل واحد سكة لأنه طبع بالحديدة المعلمة، وهي القالب الذي كانت تصب فيه العملات النقدية، مصطفى الخطيب، معجم المصلحات والالقاب التاريخية.

[٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣.

جاد الله عن مولانا أبو الفضل ومولانا الشيخ عبد الرحمن بن ظهر الدين ومولانا الشيخ عبد الحق بن جماعة، وكان كل واحد منهم يتلقى ٤ سكات ويبلغ مجموع ما كانوا يتلقوه ١٦ سكة[١].

- جماعة أئمة قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وجامع المغاربة ويبلغ عددهم ١٢ وكان كل واحد منهم يتلقى ١٣ سكة ويلغ مجموع ما كانوا يتلقوه ١٥٦ سكة[٢].
- جماعة مصدرين ومقرئين المسجد الأقصى المبارك ويبلغ عددهم ٣٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ونصف[٣].
- جماعة خدام قبة الصخرة المشرفة وعددهم يبلغ٢٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[٤]، وشغل صالح الاسعردي وظيفة الخدمة في الصخرة المشرفة مقابل عثماني عن كل شهر[٥].
- جماعة خدام المسجد الأقصى المبارك ويبلغ عددهم ٢٠ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[٦]، وشغل فارس بن داود بن فارس وظيفة السقاية في الحرم القدسي[٧]، وكان موسى بن إبراهيم المؤقت يشغل وظيفة الفراشة والكناسة والشعالة ويتلقى عثماني ونصف عن كل يوم[٨].
- جماعة مؤذنين الحرم القدسي الشريف ويبلغ عددهم ٣٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[٩]، وشغل الشيخ موسى بن غضية وظيفة رئيس المؤذنين في الحرم القدسي وكان راتبه من ربعة[١٠] سنان باشا عثمانيان عن كل يوم[١١].
- جماعة الكتاب وغيرهم ويبلغ عددهم ٣٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[١٢].
- جماعة بوابين الحرم القدسي الشريف ويبلغ عددهم ٢٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[١٣].

---

[١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣.

[٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣-٤.

[٤] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٥.

[٥] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص١٦٨.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٥-٦.

[٧] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص١٤١.

[٨] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٣٦٠.

[٩] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٦-٧.

[١٠] الربعة: ثلاثون جزء من المصحف الشريف كل واحد مفصول عن الاخر، يقرأ بها الناس على الشخص المتوفى أيام العزاء، الخطيب، معجم المصلحات والالقاب التاريخية.

[١١] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٤٩.

[١٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٧.

[١٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٨.

- جماعة مبلغين[1] الحرم القدس الشريف ويبلغ عددهم ٢٠ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[2].
- جماعة قراء الحرم القدسي الشريف ويبلغ عددهم ١٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[3]، وشغل صالح بن عبد الحق الحسباني وظيفة قراءة القران في الصخرة المشرفة[4].
- جماعة قراء المسجد الأقصى المبارك مع دروس الجمعة ١٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[5].
- جماعة جباة الأوقاف ويبلغ عددهم ٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة واحدة[6].

أما القسم الثاني فيضم ٤ جماعات:

- جماعة قراء القران الكريم عن روح السلطان سليم خان وقبة الصخرة المشرفة وكانت تتلقى المساعدة بالبارة المصرية ويبلغ عدد من تلقاها ٩٢ وكان كل واحد منهم يتلقى ٥ بارات مصرية باستثناء اثنين تلقوا ٦ بارات[7].
- جماعة صلحاء ومجاورين ويبلغ عددهم ١١٩ وكان مقدار ما يأخذه كل واحد منهم بين بارة[8] مصرية الى ٧[9].
- جماعة قراء القران الكريم عن روح السلطان سليم خان من أوقاف جامعة درنة ويبلغ عددهم ٣٣ وكان مقدار ما يأخذه كل واحد منهم ١٢ بارة مصرية[10].
- جماعة قراء القران الكريم عن روح والدة السلطان عن جامع شريف وعمارات وقف دار سكدار ويبلغ عددهم ٣٥ وكان كل واحد منهم يتلقى ٦ بارات مصرية باستثناء ٣ اشخاص تلقوا ٩ بارات[11].

ثانياً: دفتر توزيع الصدقات السلطانية الجديدة،

"جماعة مجاوري مدينة بيت المقدس"، حيث يضم مجموعتين الأولى: سكان محلات "حارات" مدينة بيت المقدس المختلفة والثانية:

---

[1] المبلغ: هو الشخص الذي يقوم بترديد التكبيرات خلف الامام في اثناء الصلاة لبصل الصوت الى الأماكن البعيدة عن الامام، محمد الحزماوي، الصرة السلطانية.

[2] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٨-٩.

[3] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٩.

[4] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٩٤.

[5] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٩-١٠.

[6] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ١٠.

[7] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص١٠-١٢.

[8] البارة: عملة عثمانية مصنوعة من الفضة تعد من أصغر وحدات النقد المتداولة في العصر العثماني، صكت في القرن الحادي عشر الهجري، معجم المصلحات والالقاب التاريخية.

[9] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص١٢-١٥.

[10] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص١٥-١٦.

[11] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص١٦-١٧.

المقامات الصوفية والاربطة[١] والجوامع.

- جماعة مجاوري قدس شريف حيث يبلغ عددهم ٥٢ وكان يخصص لكل واحد منهم سكة ذهبية[٢].
- جماعة مجاوري محلة باب القطانين[٣] ويبلغ عددهم ٥٥ وكان يخصص لكل واحد منهم سكة ذهبية[٤].
- جماعة مجاوري محلة باب حطة[٥] وبلغ عدد من كان يتلقى الصرة ٦٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٦]، وكان الحاج محمود يعمل كجاويش في الباب ويتلقى مخصصاته من الصرة الرومية[٧].
- جماعة مجاوري وحجرات عمارات المرحومة خاصكي سلطاني[٨] حيث بلغ عدد من يتلقون المخصصات ٢٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٩].
- جماعة مجاوري باب العمود[١٠] وباب الغوانمة وكان يبلغ عددهم ٢٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١١].

---

[١] الرباط: من المنشآت المعمارية في مدينة القدس الشريف، وهي ذات بعد ديني، فكانت الاربطة مخصصة كنزل للكثير من اهل الزهد والتصوف القادمين من مناطق مختلفة، معجم المصلحات والالقاب التاريخية.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص ١٧-١٩.

[٣] باب القطانين: سمي بهذا الاسم لانه يطل على سوق القطانين، جدد بنائه الأمير سيف الدين تنكز الناصري في عام ٧٣٧ه\١٣٣٦م، رائف نجم، كنوز القدس.

[٤] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص ١٩-٢٠.

[٥] باب حطة: من أقدم أبواب الحرم الشريف، جدد بنائه آخر مرة في عهد الملك المعظم عيسى في عام ٦١٧ه\١٢٢٠م، رائف نجم واخرون، كنوز القدس.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٠-٢٢.

[٧] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٢٩.

[٨] زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني، أنشأت تكية حملت اسمها وكانت توزع الطعام على الفقراء والمحتاجين، وخصصت لها عدد كبير من الاوقاف التي تشمل بيوت ومحلات تجارية واراضي ومزروعات في مختلف مناطق الدولة العثمانية.

[٩] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٢.

[١٠] باب العمود ويعرف بباب دمشق أيضاً يعود تاريخه إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، له مدخل متعرج، تزين واجهته قوس قائمة بين برجين. يعتقد أن هذا الباب أقيم فوق باب يعود إلى العهد الإفرنجي. جرت حوله تنقيبات أثرية في عام ١٩٣٦ وفي عام ١٩٦٦ بقايا كشفت بابين يعود أحدهما إلى زمن الإمبراطور هادريانوس الذي أسّس مدينة إيليا كابيتولينا بين سنتي ١٣٣و١٣٧والثاني يعود إلى عهد هيرود اغريبا في منتصف القرن الأول الميلادي. وقد سمي هذا الباب باسم باب العمود لأن الإمبراطور هادريان أقام عموداً داخله وبقي ذلك العمود حتى الفتح الإسلامي، وسمي بباب دمشق لأن القوافل التجارية كانت تخرج منه متجهة إلى دمشق، شوقي شعث، القدس الشريف.

[١١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٢-٢٣.

- جماعة مجاوري باب السلسلة[١] مع خط داوود عليه السلام ويبلغ عددهم ٢٠ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٢]، وكان جعفر بن إبراهيم الحلبي يعمل في وظيفة البوابة والشعالة والكناسة في باب السلسلة ويتلقى راتب عثمانيان عن كل يوم مع ما يتبع ذلك الصرة الرومية والصدقات المعتادة[٣].
- جماعة مجاوري باب حطة تحتاني وقرب باب الحرم القدسي الشريف ويبلغ عددهم ١٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٤].
- جماعة مجاوري محلة الشرف[٥] ويبلغ عددهم ٩وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٦].
- جماعة مجاوري محلة الجوالدة[٧] ويبلغ عددهم ٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٨].
- جماعة مجاوري محلة الريشة ويبلغ عددهم ١٣ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٩]، وتلقى احمد جلبي بن عبد النبي الطوبجي سلطاني في العام من جماعة مجاوري محلة المغاربة والريشة[١٠].

وفيما يتعلق بمن كان يتلقى الصرة الرومية من القائمين على المقامات الصوفية والزوايا والمدارس والجوامع والاربطة فقد جاءوا على شكل ١٦ جماعة على النحو الاتي:

- جماعة خدام ومجاوري مقام حضرة داوود عليه السلام[١١] وقد بلغ عددهم ١٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٢].

---

[١] باب السلسلة: يقع في الجهة الجنوبية من الحرم الشريف، أسس في العهد الايوبي، رائف نجم، كنوز القدس.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٣.

[٣] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٢٠.

[٤] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٢٤.

[٥] محلة الشرف: تقع الحارة غربي المسجد الأقصى المبارك في أطراف حي المغاربة وتبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠ دونما، وسميت بهذا الاسم نسبة الى الامام شرف الدين موسى الذين عرفت ذريته ببني شرف وكانت تعرف قبل ذلك بحارة الاكراد وحارة العلم وورد ذكرها في سجلات المحكمة الشرعية بمحلة بني حارثة.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٤.

[٧] محلة الجوالدة: تقع بين محلتي عقبة الست والشرف، محمد اليعقوب، ناحية القدس الشريف.

[٨] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٥.

[٩] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٥.

[١٠] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص١٠٧.

[١١] زاوية النبي داوود: تقع خارج السور في الجهة الجنوبية الغربية مقابل باب النبي داوود، حيث سميت حارة من حارات المدينة باسمه، وكان يتولى الزاوية أناس من عائلة الدجاني، مروان الاقرع، الحياة الاجتماعية في منصرفية القدس الشريف.

[١٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٥-٢٦.

وشغل الشيخ أبو بكر بن داود وظيفة قراءة القران في المقام وكان يتلقى عثمانيان ونصف من وقف السلطان سليمان[1].

- جماعة مولانا أبو السعود وشيخ أبو الهدى وبلغ عددهم ١٠ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[2].
- جماعة شيخ أبو الهدى بن داوود وشيخ المحا الرسول عليه الصلاة والسلام وبلغ عددهم ٩ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[3].
- جماعة فقراء شيخ الصامت وبلغ عددهم ١١ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[4].
- جماعة الشيخ محمد القرمي[5] قدس سره العزيز وبلغ عددهم ١١ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[6].
- جماعة مجاوري رباط المنصوري[7] وبلغ عددهم ٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[8].
- جماعة مجاوري رباط علاء الدين البصيري[9] وبلغ عددهم ٩ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[10].
- جماعة مجاوري رباط بيرام جاويش[11] وبلغ

---

(1) سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٧٥.

(2) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٦.

(3) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٦.

(4) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٦-٢٧.

(5) تقع في حارة الواد ويتبع لها اوقاف عديدة، مروان اللاقرع، الحياة الاجتماعية في متصرفية بيت المقدس.

(6) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٧.

(7) الرباط المنصوري: ويقع في الجهة الجنوبية من طريق باب الناظر، بناه السلطان الملك المنصور قلاوون =

= الصالحي عام ٦٨١ه/ ١٢٨٢م وقد أوقفه على الزوار والفقراء. شوقي شعث، القدس الشريف.

(8) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٧.

(9) رباط علاء الدين البصير: يقع هذا الرباط في الجهة الشمالية من الطريق الموصلة إلى حرم المسجد الأقصى بالقرب من باب الناظر والرباط المنصوري، وأوقفه الأمير علاء الدين بن عبد الله الصالحي النجمي عام ٦٦٦ه/١٢٦٧م في عهد الملك الظاهر بيبرس، أوقف هذا الرباط على الفقراء من القادمين لزيارة القدس، له محراب، استعمل هذا الرباط في العهد العثماني كسجن تحول إلى دار سكن وأضيفت إليه عدة غرف، يقطنه اليوم عدد من السودانيين الذين وفدوا إلى القدس، شوقي شعث، القدس الشريف.

(9) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٧.

(10) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٢٨.

(11) رباط بيرم: بناه الأمير بيرم شاويش بن مصطفى سنة ٩٤٧ه/ ١٥٤٠م في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، كما تشير كتابة على واجهته، يتكون من طابقين تزين واجهته صنج مزررة ومقرنصات يعتبر بناء رباط بيرم مركباً معمارياً لا مثيل له بالقدس. رمّم هذا الأثر عدة مرات وسمي في آخر العهد العثماني باسم المدرسة الرصاصية وتشغله =

عددهم ٣ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١].

- جماعة مجاوري رباط حاجي قاسم مع حوش العبد وبلغ عددهم ٦ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٢].
- جماعة مجاوري المدرسة الامينية[٣] والمدرسة الجوهرية[٤] وقد بلغ عددهم ٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٥].
- جماعة محلة عقبة الست مع باب العمود فقد بلغ عددهم ١٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٦].
- جماعة خدام المسجد العمري[٧] ومحلة هنود مع زاوية الهنود[٨] وبلغ عددهم ٩

=

اليوم مدرسة دار الأيتام الإسلامية. شوقي شعث، القدس الشريف.

[١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٨.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٨.

[٣] المدرسة الأمينية: تقع بباب الدويدارية المعروف بباب شرف الأنبياء أو باب العتم وحديثاً سمي باب الملك فيصل، أنشأها الصاحب أمين الدين عبد الله ٧٤٠هـ/ ١٣٢٩م، وهي الآن دار سكن. يذكر صاحب خطط الشام وعارف العارف، أنها تضم مدافن جماعة من آل الإمام وعلمائهم في طابقها الأول منهم الجد الأكبر ضياء الدين محمد أبو عيسى الهكاري. من مشايخ المدرسة الأمينية في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الشيخ محمد صالح الإمام والشيخ محمد أسعد الإمام المتوفى في سنة ١٣٠٨هـ والشيخ يوسف الإمام المتوفى عام ١٣٢٠هـ والشيخ أسعد الشيخ راغب الخالدي والشيخ خليل الخالدي وخليل بك الترجمان وحسن بك الترجمان ورؤوف باشا والي القدس، شوقي شعث، القدس الشريف.

[٤] المدرسة الجوهرية: تقع بباب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية أوقفها الصفدي جوهر إمام الإدارة الشريفة سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، إلا أنَّ الموسوعة الفلسطينية،

=

=

تذكر أن الواقف هو جوهر الصفوي القنقباي، شوقي شعث، القدس الشريف.

[٥] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٨.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٩.

[٧] الجامع العمري (جامع عمر)، بني هذا الجامع حسبما تشير الموسوعة الفلسطينية عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، من قبل الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن صلاح الدين الأيوبي أثناء سلطنته على دمشق، يعرف اليوم بجامع عمر وهو يقع في الجهة الجنوبية من كنيسة القيامة ويعتقد أنه أقيم في المكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب في القدس ذلك لأنه رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يحوِّلها المسلمون إلى مسجد، أصبح الجامع موضع عناية المسلمين في مختلف مراحله التاريخية فقد جددوا بناءه عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م وأعادوا مئذنته عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م، شوقي شعث، القدس الشريف.

[٨] زاوية الهنود: وتقع داخل السور إلى الجنوب من باب الساهرة، وقد جعلت لفقراء الرفاعية على ما يذكر الحنبلي، لذلك سميت بالزاوية الرفاعية، ثم نزل بها طائفة من الهنود، بزعامة بابا فريد شكركنك فعرفت بهم يرجع ذلك إلى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، جددت في عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩-١٨٧٠.

=

وكان كل واحد منهم يتلقى سكة

- جماعة مجاوري زاوية الهنود الملطاني وبلغ عددهم ١٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٢].
- جماعة مجاوري هنود زاوية باب الساهرة[٣] وبلغ عددهم ١٣ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٤].
- جماعة المغاربة مع محلة الريشة وبلغ عددهم ٢٠ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٥].
- جماعة محافظي قلعة قدس شريف[٦] مع خدام الصرة المستخدمين في وقت توزيع الصرة وبلغ عددهم ٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٧].

ثالثاً: كان مخصص للنساء اللواتي كن يسكن في مدينة بيت المقدس وكان يصرف لهن مستحقات سنوية من الصرة[٨] حيث بلغ عدد الجماعات التي كانت تتلقى الصرة ١٩ جماعة وهي على النحو الاتي:

- جماعة نساء فقراء قدس شريف وبلغ عددهن ٣٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٩].
- جماعة نساء محلة باب القطانين[١٠] وبلغ عددهن ٥٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١١].
- جماعة نساء محلة باب حطة وبلغ عددهن ٣٣ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٢].

=

وتتكون الزاوية من مجمع معماري ضخم تهدَّم أكثره وتعرَّض للخراب من جراء حرب عام ١٩٦٧م. يشغل ما تبقى من أبنيتها اليوم بعض مكاتب وكالة الغوث الدولية والقسم الآخر به مدرسة لرياض الأقصى الإسلامية ويضم مسجداً وساحة مكشوفة، شوقي شعث، القدس الشريف.

[١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٩.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٢٩-٣٠.

[٣] باب الساهرة: ويعرف أيضاً باسم باب هيرود، يقع في الجانب الشمالي من السور إلى الشرق من باب العمود يعود تاريخه إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، شوقي شعث، القدس الشريف.

[٤] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣٠.

[٥] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣٠-٣١.

[٦] القلعة: حصن كبير فيها برج للمراقبة ومسجد للصلاة وأماكن للسكن وجددت وعمرت في فترات متعاقبة، رائف نجم، كنوز القدس.

[٧] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣١.

[٨] سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٤٨.

[٩] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣١-٣٢.

[١٠] محلة باب القطانين: تقع غرب الحرم القدسي وتنسب الى باب القطانين الذي يقضي الى سوق القطانين، العليمي، الانس الجليل.

[١١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣٢-٣٣.

[١٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٣٤.

- جماعة نساء محلة الريشة[١] ومحلة الجوالدة وبلغ عددهن ٢٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٢].
- جماعة نساء محلة خط باب داوود[٣] وبلغ عددهن ٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٤].
- جماعة نساء عقبة الست[٥] وبلغ عددهن ٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٦].
- جماعة نساء محلة باب الغوانمة وبلغ عددهن ١٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٧].
- جماعة نساء محلة باب العمود وبلغ عددهن ١٧ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٨].
- جماعة نساء سلطانية مع مدرسة منجكية[٩] وبلغ عددهن ١٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٠].
- جماعة نساء رباط علاء الدين مع رباط الحاجة فاطمة وبلغ عددهن ١٦ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١١].
- جماعة نساء رباط الحاج قاسم[١٢] مع نساء اوقاف الجنانية وبلغ عددهن ١٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٣].
- جماعة نساء ساكنات المدرسة الميمونية[١٤]

---

[١] محلة الريشة: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من سور الحرم القدس، ناحية القدس الشريف في القرن العاشر الهجري، محمد اليعقوب.

[٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٤-٣٥.

[٣] باب النبي داوود: يقع في الجهة الجنوبية من سور الحرم القدس، وسمي بهذا الاسم نسبة الى مقام النبي داوود الذي يقع بالقرب منه. محمد غوشة، القدس فيالعهد العثماني.

[٤] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٥.

[٥] عقبة الست: نسبة الى طنشق بنت عبد الله المظفرية، عارف العارق، المفصل في تاريخ القدس.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٥-٣٦.

[٧] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٦.

[٨] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٦.

[٩] المدرسةالمنجكية: بجوار خانقاه الصوفية بالجاقماقية، وفي الدارس أنها بالخلخال. وكان الخلخال حديقة أخذت للتكنة الحميدية غربي المدينة. وهي قبلي الصوفية وغربيها، إنشاء الأمير سيف الدين منجك من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة ٧٧٦ وهي اليوم حدائق ولا أثر لها، محمد كرد علي، خطط الشام، ج٦، ص٩٥.

[١٠] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٧.

[١١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٧-٣٨.

[١٢] رباط الحاج قاسم: يقع في عقبة التكية، وينسب الى الحاج قاسم بن الحاج سيدي نائب الناظر، محمد غوشة، القدس في العهد العثماني.

[١٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨ه/١٦٥٨م، ص٣٨.

[١٤] المدرسة الميمونية: تقع بالقرب من باب الساهرة وقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون عام ٥٩٣هـ / ١١٩٦م وكان هذا خازندارا للسلطان صلاح الدين =

والزاوية السلطانية وبلغ عددهن ٢١ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١].

- جماعة نساء مولوية القدس[٢] وبلغ عددهن ١٥ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٣].
- جماعة نساء رباط الكرد[٤] مع سادماري[٥] العمري وبلغ عددهن ١٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٦].
- جماعة نساء باب حطة وبلغ عددهن ٢٨ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٧].
- جماعة نساء رباط مكية مع المدرسة الحنفية[٨] وبلغ عددهن ١٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[٩].
- جماعة نساء هنود طائفة هنود سليماني و ملطاني[١٠] وبلغ عددهن ١٢ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١١].
- جماعة نساء ساكن دار رباط ديكر مع رباط السلطان وبلغ عددهن ١٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٢].
- جماعة نساء مجاوري حضرة داوود عليه السلام وبلغ عددهم ١٤ وكان كل واحد منهم يتلقى سكة ذهبية[١٣].

القسم الثاني: أهالي مدينة خليل الله إبراهيم عليه السلام.

يشمل هذا القسم ١٠ جماعات من أهالي مدينة خليل الرحمن من الخطباء، والمؤذنين، والبوابين والخدم.

=

الأيوبي، وهي حتى اليوم مدرسة ثانوية للبنات باسم المدرسة المأمونية (المامونية) وقد اندثر البناء الأصلي منذ زمن، شوقي شعث، القدس الشريف.

[١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣٨-٣٩.

[٢] الزاوية المولوية: تقع في حارة باب العمود، دخلت الطريقة الى المدينة في بداية الحكم العثماني وكان يتولى الطريقة شيخ، مروان اللاقرع، الحياة الاجتماعية.

[٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٣٩.

[٤] رباط الكرد: يقع في الجانب الشمالي من طريق باب الحديد تجاه المدرسة الارغونية، واوقفها المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية عام ٦٩٣هـ\١٢٩٣م، يحيى الفرحان، قصة مدينة القدس.

[٥] السادماري: مصلح يعني السدنة، سهيل صبان، صرة أهالي القدس.

[٦] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٣٩-٤٠.

[٧] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٤٠.

[٨] المدرسة الحنفية: وتسمى أيضا بالمدرسة المعظمية وتقع مقابل باب شرف الأنبياء، أسست على يد الملك المعظم عيسى في عام ١٢١٧م، وتستحدم في الوقت الحالي كدار للسكن، مروان اللاقرع، الحياة الاجتماعية في متصرفية مدينة بيت المقدس.

[٩] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٤٠-٤١.

[١٠] الهنود الملطاني: ينتسبوا الى مدينة ملتان التي تقع في باكستان حاليا، العسلي، وثائق مقدسية.

[١١] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص٤١.

[١٢] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٤١-٤٢.

[١٣] دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م، ص ٤٢.

- جماعة خطباء حضرة إبراهيم عليه السلام وعددهم ٢ وكان الشيخ درويش بن شيخ جمال الدين الخطيب يتلقى ٦ سكات ذهبية والشيخ أبو النصر يتلقى سكة ذهبية(١).
- جماعة أئمة حضرة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعددهم ٤ ويتلقى كل واحد منهم ٤ سكات ذهبية(٢).
- جماعة مؤذنين حرم شريف عليه السلام وعددهم ١٣ ويتلقى كل منهم سكة ذهبية(٣).
- جماعة حفاظ مراقد الأنبياء عليهم السلام وعددهم ١٥ ويتلقى كل واحد منهم التمش دقوز(٤).
- جماعة بوابين مراقد حضرة الأنبياء عليهم السلام وعددهم ٧ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(٥).
- جماعة بوابين حرم شريف وعددهم ٣ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(٦).
- جماعة مصدرين حرم شريف عليه السلام وعددهم ٤ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(٧).

(١) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٢.

(٢) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٢-٤٣.

(٣) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٣.

(٤) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٣.

(٥) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٤.

(٦) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٤.

(٧) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٤.

- جماعة فراشين حرم شريف وعددهم ٥ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(٨).
- جماعة كتاب وأمناء ومعرفين وغيرهم وعددهم ٣٠ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(٩).
- جماعة حدادين وطحانين وحالبين وطباخين وبعض خدام حضرة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام(١٠).

القسم الثالث: توزيعات مذكورين عن اوقاف المرحومة والمغفور لها والدة سلطان طيب الله ثراها والدة مرحوم ومغفور له غازي سلطان مراد خان طيب الله ثراه.

- القائمين على مقام موسى عليه السلام(١١) بالقرب من مدينة أريحا وهم جماعة واحدة عددهم ٣١ ويتلقى كل واحد منهم سكة ذهبية(١٢)، وكان الشيخ عبد الحليم بن غضية يعمل في خدمة المقام ويتلقى راتب ربع عثماني(١٣).

(٨) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٤.

(٩) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٥.

(١٠) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٥.

(١١) مقام النبي موسى: يقع مقام النبي موسى على بعد ٣٠ كم شرقي مدينة القدس بالقرب من مدينة أريحا، بني في عهد السلطان المملوكي بيبرس ووقف عليه أملاك كثيرة في مختلف المناطق الفلسطينية، كامل العسلي، موسم النبي موسى.

(١٢) دفتر الصرة الرومية لسنة ١٠٦٨/١٦٥٨م، ص ٤٦-٤٧.

(١٣) سجلات المحكمة الشرعية، القدس، ١٥٢، ص٤٩.